عبد الله شريط

معركة المفاهيم

معركة المفاهيم

عبد الله شريط

معركة المفاهيم

الطبعة الثانية

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

رقم النشر 81/1108

مقدمة الطبعة الثانية

«هناك أمر يفاجيء من يزور الجزائر ، وهو ان القوم هناك اكثر اتجاها الى العمل منهم الى القول . وقد يحار من لا يعرفهم حق المعرفة في تفسير صمتهم وحذرهم وعنايتهم بمعرفة ما لديك قبل ان تعرف ما لديهم . فطابع الجد عليهم اغلب . وربما كانوا بهذه الصفات وغيرها اقدر منا على النقد الذي تشوبه أحيانا مسحة من التهكم ، وهو تهكم تتدرج حدته حتى ليكاد يقترب من الصرامة ان لم يقترب من القسوة» .

هذه الفقرة للمرحوم الدكتور محمود قاسم من مقدمته التي تفضل بها لتصدير هذا الكتاب .

ويقول أيضا عن الجزائريين في هذه المقدمة :

«إن معركة المفاهيم بالجزائر قد بلغت الذروة في حدتها . ولن تجد جزائريا يحدثك قليلا من الوقت حتى ينقلك معه الى صميم المعركة . ونحن نرحب دائما أن نصطلي بنيران المعركة بدلا من ان نفر منها . ذلك أن عصر الهروب من المشكلات الواقعية قد غبر» .

وكان الاستاذ الدكتور أستاذا معارا عندنا في قسم الفلسفة في أواخر الستينات . وكنا نشتكي اليه يوما همومنا في الجامعة ، وما نلاقيه من قلة الاساتذة في المستوى الجامعي ، والقادرين على توجيه طلابنا وشبابنا التوجيه العلمي والفلسفي الصحيح . ونشتكي من كثرة الطلبة وقلة الكتب ، وضيق المباني ، وتزاحم المشاكل علينا من كل ناحية وفي وقت واحد ، فلا نعرف ماذا نواجه منها اليوم وما نرجئه الى الغد .

وكان رحمه الله ينصت الينا في دهشة ثم قال : «بس أنا موش فاهم أنتم مستعجلين كده ليه ؟ » .

واعتقد ان في جوابه هذا تكمن كل الفروق بين من لا يزال في خطواته الاولى من مجابهة الحياة العلمية ومشاكلها ، وبين من سار فيها اشواطا بعيدة من التجربة والنضج .

ولكن بالرغم من هذه الفروق كنا نتفق بسهولة على ان بداية المعركة تكمن في المفاهيم . الا ان اخواننا المشارقة يتصوروننا قوما عمليين ، أي لا نحفل كثيرا بالمشكلة الا في مستواها العملي ، أما في مستواها الفكري والتصوري فهي لا تهمنا كثيرا .

واذا كان هذا صحيحا فإن له جانبه الايجابي الذي يقربنا الى ساحة المجتمعات المتطورة . ولكن له أيضا جانبه السلبي وهو أننا ننصرف الى العمل بدون فكر . وبداية العمل الحقيقي هو في الفكر . لأننا كما يقول الفيلسوف الالماني الكبير «هيجل» لا نستطيع ان نبني بيتا من الحجر الا اذا سبقه بيت في افكارنا مصنوع من التصورات . والذي أخشاه أننا ــ فعلا ــ ننصرف الى بناء البيت من الاحجار ونحن لا نملك شيئا عنه في تصوراتنا الذهنية . ومثلنا الشعبي القديم : «طريق العربي بين عينه» .

ولذلك حرصت على أن أبذل جهدا خاصا في هذا الكتاب ألح فيه على قيمة المفاهيم في حياتنا العملية والثقافية والسياسية عموما . والمفاهيم في المجتمعات الناشئة كثيرا ما تأخذ طابع المعركة ، وهي عندنا في الجزائر تأخذ ــ الى جانب ذلك ــ طابع الحدة أيضا ، او كذلك يبدو الامر لأخواننا في المشرق الذين هم اكثر منا هدوءا وألطف مزاجاً . ولكن هذا امر ثانوي لا يهمني ما فيه من سلب أو ايجاب . ولكن المهم فعلا هو ان لا «نفعل» شيئا الا مسبوقا أو مصاحبا لاستعمال العقل . لأن اليد التي تفعل بدون فكر ، هي يد لا تفرق بين البناء والهدم . كما ان الفكر الذي يتصور فقط ولا يمحص أفكاره بالفعل حتى يتبين الخطأ منها والصحيح ، هو فكر يجتر نفسه ولا يقدم لصاحبه الا حطاما من الغذاء ..

وما هو منتشر في حياتنا السياسية والثقافية والاقتصادية ، هو اننا في بلاد المغرب «عمليون» بدون فكر ، وفي بلاد المشرق «حالمون» بدون عمل . وهذا ما يفرق بيننا من ناحية وبين المتطورين من ناحية اخرى ممن لا يعملون الا بفكر ولا يفكرون الا بعمل .

نعم اننا في بداية الطريق ، هنا وهناك في بلا المغرب والمشرق . ولكن الخطر هو ان نبقى قرونا في بداية الطريق لا نتقدم لا عملا ولا فكرا ، لأنهما عندنا منعزلان غير متلازمين .

وهذا ما أردت أن أنبه إليه في هذا الكتاب . وقد نفذت طبعته الاولى منذ وقت طويل ، ولكن لا ندري كيف قابله القراء ، فنحن هنا ايضا مازلنا في افضل الحالات نقرأ ولكننا لا نكتب ولا ننقد ، ولا نقول للمخطىء اخطأت هنا وأصبت هناك ، ولا يهمنا المصيب فيما اصاب . إننا نعيش في بيت واحد ولكن لا أحد منا يسأل صاحبه : من انت وماذا تفعل في الحياة ؟ تماما كما نعيش جيرانا في عمارة واحدة ولا أحد منا يسلم على الآخر .

ربما يكون ذلك ايضا عيب جيل لا عيب شعب .

مهما يكن من أمر فأنا أرجو أن يفيد هذا الكتاب جيلنا الجديد أكثر مما أفاد جيلنا المتقادم . والله ولي التوفيق .

عبد الله شريط

مقدّمة الطبعة الأولى

بقلم المرحوم الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سابقاً

إن الكتاب الذي أقدم له مجموعة حديثة العهد من المقالات التي كتبها الأستاذ عبد الله شريط أحد أصدقائي أعضاء قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الجزائر . وقد سعدت بلقائه وصحبته خلال الفترة التي قضيتها أستاذاً زائراً لجامعة الجزائر . ويجب أن أعترف أن قراءتي لما يكتب في صحيفة المجاهد الأسبوعية لسان جبهة التحرير الوطني الجزائري بدأت في ذلك الحين ، وإن كان الأستاذ عبد الله شريط مفكراً كاتباً معروفاً في المغرب العربي وفي المشرق أيضاً ، إذ عني بعض كتابنا بالحديث عنه في معرض التعريف بالفكر والثقافة المعاصرة في المغرب وقد يسمح لي الأستاذ عبد الله شريط أن أقدمه لقرائنا في المشرق وربما في المغرب أيضاً بشيء من التفصيل .

لقد بدأ الأستاذ عبد الله شريط مرحلة التعليم الابتدائي بالفرنسية في إحدى قرى الأوراس ، لكنه حفظ القرآن أيضاً ثم تلقى تعليمه الثانوي في جامع الزيتونة ، فقضى فيه سبع سنوات يدرس ثقافتنا العربية الإسلامية التقليدية من فقه وتوحيد وبلاغة ونحو ومنطق . وكان من الطبيعي أن يضيق ذرعاً بهذه الدراسة فقد ضاق

بها كثير غيره من قبل . ومنهم الإمام عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الجزائرية . ومصدر الضيق ليس هو لب هذه الثقافة كما نعلم ؛ بل هو المنهج العتيق الذي يتبع في تدريسها . فإن هذا المنهج الذي ازدهر في عصور التدهور ، إن صح هذا التعبير ، هو الذي أفسد كل شيء ، وهو الذي يجب التحرر منه حتى يمكن أن تصبح هذه الثقافة محببة إلى النفس ؛ ذلك إن كثيرين منا يمقتون هذا المنهج العقيم . ويعجبون بكتابات عصور الإزدهار الحقيقية و بمشاهير كتابنا العرب من أمثال الجاحظ وأبي علي القالي وأبي الفرج الأصبهاني . كما يتغنون بأشعار البحتري والمتنبي واضرابهم من كبار الشعراء فيما قبل العصر التركي وبعده . وصديقنا الاستاذ عبد الله شريط معجب كل الاعجاب بالجاحظ وسخريته وتهكمه . ولربما كان لهذا الإعجاب أثره في ميله هو أيضاً إلى السخرية والتهكم .

وقد لمست شخصياً جانباً من زحمة الواقع الجزائري ولكن لست أدعي أنني أتمثله تمثل الجزائري الذي يحياه ويستنشقه كل يوم ، ولا يخلو منه خاطره حتى في نومه وأحلامه . ولا أفرط في الغلو إذا قلت إن هذا الواقع مزيج عجيب من العناصر المتنافرة والمتراكضة ، وأن بوتقة المفاهيم القديمة والحديثة بل المتطرفة أيضاً تغلي وتحتدم . إن معركة السلاح أفسحت مكانها لمعركة المفاهيم . وهذا أمر لا يستطيع أي زائر للجزائر أن يتظاهر بأنه لا يراه ، أو يدعي أنه مجرد ظاهرة عابرة .

إن إقامتي في الجزائر العاصمة ورحلاتي إلى وهران وتلمسان وقسنطينة كشفت لي عن حدة هذه المعركة . وأعترف أنها لاحقتني حتى بعد عودتي إلى القاهرة إذ وجدت لزاماً علي ، حتى أحدد ميدان هذه المعركة أن أصعد إلى سنة ١٨٣٠ لأهبط حتى بدء الثورة الجزائرية وأن أسلك شعاباً متفرقة لأهتدي إلى منهج واضح أو أصل إلى مرتفع من الحوادث لكي أشرف على المعركة فأراها بوضوح .

فما بالك إذن بهؤلاء الذين عاشوا على أرض المعركة ، ومن هؤلاء صديقنا عبد الله شريط . وهذا الفارق بيني وبين من لم يبرحوا أرض المعركة هو الذي جعل عبد الله شريط يحدثني يوماً فيقول « لقد تبين لي أننا لسنا على اتفاق كامل ،

وإنني متشائم أكثر مما ينبغي . وكل ما أطلبه هو أن تؤكد الأيام والتاريخ خطأي . على أن المسألة في نظري ليست مسألة تفاؤل أو تشاؤم . بل مسألة تعرف عميق إلى واقعنا . ومقارنته بواقع الإنسانية المتحضرة . وقياس المدى الذي يفصلنا عنها ، ومتى يمكننا أن نلحق بالركب المتحرك فنشعر على الأقل بأن الوقت لا يكفينا والإمكانيات أقل مما نطمح إليه » .

حقاً قد أكون أكثر ميلاً إلى التفاؤل . والذي يدعوني إلى التفاؤل هو أن معركة المفاهيم في الجزائر معركة حقيقية وليست مفتعلة . والشعب الذي انتصر في معركة السلاح سوف ينتصر . طال الوقت أم قصر في معركة المفاهيم . وهل يجوز لي أن أستشهد بواقعنا في الجمهورية العربية المتحدة ؟ حقاً هناك رواسب عديدة من مظاهر التخلف في المفاهيم . لكن معركة المفاهيم عندنا تبشر بأن عقدة النقص تجاه الحضارة الأوربية أخذت تخف حدتها . قد يقال إن هذا ضرب من الغرور . لكنني أرى أن الغرور ينطوي على الأمل

إن معركة المفاهيم بالجزائر قد بلغت الذروة في حدتها ، ولن تجد جزائرياً يحدثك قليلاً من الوقت حتى ينقلك معه إلى صميم المعركة . ونحن نرحب دائماً أن نصطلي بنيران المعركة بدلاً من أن نفر منها ، ذلك أن عصر الهروب من المشكلات الواقعية قد غبر . سواء أكان ذلك في المشرق أم في المغرب . وتلك في رأيي علامة صحة ، وهي تبشر بخير كثير . وهذا هو السبب في أن أعود مرة أخرى فأؤكد لصديقي الأستاذ عبد الله شريط اننا ما زلنا على خلاف في هذه النقطة وحدها وكل ما أطلبه هو ما يطلبه الأستاذ عبد الله شريط . فإن هذه السبيل الوحيدة لحياة أمتنا .

في جملة القول تلك هي المعركة الكبرى التي يعرض لها صديقي عبد الله شريط . وينبغي ، قبل أن أعرض بالتفصيل والتحليل لما يموج فيها من عناصر عديدة ومتنوعة . أن أشير إلى أمر يفاجئ من يزور الجزائر ، وهو أن القوم هناك أكثر إتجاهاً إلى العمل منهم إلى القول . وقد يحار من لا يعرفهم حق المعرفة في تفسير

صمتهم وحذرهم وعنايتهم بمعرفة ما لديك قبل ان تعرف ما لديهم . فطابع الجد عليهم أغلب . وربما كانوا . بسبب هذه الصفات وغيرها أقدر منا على النقد الذي تشوبه أحياناً مسحة خفيفة من التهكم . وهو تهكم تتدرج حدته حتى ليكاد يقترب من الصرامة إن لم يقترب من القسوة .

وفي رأيي أن الأستاذ عبد الله شريط يمكن أن يعد نموذجاً معبراً للقوم في هذه الناحية . لكنك متى ظفرت بثقة الجزائري واستطعت أن تبرهن له مخلصاً أن ليس ما يدعوه إلى التحفظ معك أو الحذر منك . وجدت صورة صادقة للعربي الأصيل . وهي مزيج فريد من الصراحة والصرامة والعمق والأريحية . والحق أنه مزيج عجيب . وربما كان هذا المزيج هو ما وجدته في شخصية صديقي الأستاذ عبد الله شريط . وقد ظفرت بثقته بعد عناء كبير وأظنه يوافقني في هذه النقطة .

ذلك أنني عندما بدأت قراءة كتاباته صدمتني صرامته . وظننت خطأ أنه كاتب متشائم كما يظن هو أيضاً في نفسه . بل ذهبت إلى حد أن حسبت أنه لا يطيب له إلا أن يرى الجانب المعتم في كل شيء . كذلك لمست لديه شدة الحذر الذي يترجم عن نفسه أحياناً بالنقد اللاذع . لكن ليس ذلك سوى قناع سميك لشعور عميق رقيق . وتفكير خصب متوثب ولهفة على إزالة الظلال المعتمة التي تحجب الجوهر الأصيل للثقافة العربية الإسلامية الخلاقة التي تريد أن تحور الحاضر نحو مستقبل أكثر إشراقاً بدلاً من أن تزيف هذا الحاضر وتجمله لكي تعود بنا إلى ماض مضطرب . أو بعبارة أدق إلى مفاهيم بالية ليس بينها وبين العقلية العربية الإسلامية الأصيلة من سبب .

وإذا أردت أن تدرك الاتجاه الفكري لدى عبد الله شريط فينبغي أن تقرأه أولاً قراءة سريعة ثم تعيد قراءته مرة أخرى على مهل . وحينئذ تشرق لك الفكرة واضحة جلية . وهذا هو ما فعلت حتى أتبين الهدف الذي يكتب من أجل تحقيقه ، وحتى لا تستهويني حلاوة الاسلوب وطلاوته . ولا تستأثر بي قدرته البالغة على

مزج الأدب بالفلسفة فأغفل عن رؤية الهدف البعيد الذي يقودنا إليه شئنا أم لم نشأ .

إن عبد الله شريط لا يصرح لنا منذ البدء بما يريد أن يطبعه في نفوسنا . ويكاد المرء أن يتساءل بعد قراءة صفحات من كتابه :

ماذا يريد بنا هذا الكاتب ؟ لكن سوف أجنِّب القارئ هذا التساؤل . فإن هذا الكاتب الجزائري يريد أولاً أن يوقظ الجزائريين على حقيقة هي أن الثورة الجزائرية معجزة العالم الإسلامي في القرن العشرين . ليست هدفاً في ذاتها ولكنها مرحلة في طريق نهضة العالم العربي بأسره . وهكذا يمكن القول بأنه يريد أن يتجه في الوقت نفسه إلى جميع الأقطار العربية المتحررة وغير المتحررة لينبئهم إلى أن طريق المستقبل محفوف بالمخاطر . أما في حديثه لمواطنيه فإنه لا يفتأ يذكرهم أن انتصارهم في حربهم التحريرية ضد الاستعمار الفرنسي ليس معناه أنهم حققوا كل شيء . وأن النصر ليس سوى نقطة بدء فقط فإن « الشعب المقتدر ليس هو الذي يقوم بثورة رائعة فحسب . بل إلى جانب ذلك يحافظ على قيمتها ويعرف كيف يستفيد من تضحياته فيها » .

ولن يكون بناء المستقبل . كما يظن بعض أنصاف المثقفين . بالتقهقر للتشبث بمفاهيم وقيم لم تعد تصلح لا للحاضر ولا للمستقبل . بل بالجمع بين خير المفاهيم في تراثنا العربي الإسلامي وبين أفضل عناصر الثقافة والفكر الحديث . ومن هنا ندرك لماذا يلح الأستاذ عبد الله شريط دائماً في المقارنة بين الحضارة العربية والحضارة الأوربية المعاصرة . إلحاحاً لا شك في أنه يثير ضيق ذوي الثقافة المحدودة بل يثير حفيظتهم . وهو يريد حقاً أن يثير حفيظتهم لكي يوقظهم ويوقظ معهم النوام من ذوي الثقافة السلبية التي ترتكز على مفاهيم عصور الإنحطاط والتدهور . ومن المؤكد أن عبد الله شريط يرى ان إيقاظ النائمين لا يكون إلا عن طريق التهكم والسخرية البالغة بمفاهيمهم الخاطئة وثقافتهم الراكدة المتحجره فإن « كل مشاكلنا وعيوبنا التي يفضحها بدون شفقة مردها إلى مشكلة الثقافة

أعني الثقافة بأوسع معانيها : المدارس والكتب والصحف والمحاضرات ، والعادات والتقاليد . ومفاهيمنا للسياسة والإقتصاد والأخلاق ومشاكل التربية وتناقضات الأجيال وتنازع الأفكار » .

وقد يخدعك الأستاذ عبد الله شريط بين حين وآخر . فيوهمك أنه يحقر الثقافة العربية . في الوقت الذي يحارب فيه رجعية أدعياء هذه الثقافة . ويبين لك أن فئة المثقفين الرجعيين أشد فتكاً بحيوية الأمة . بل يمكن القول بأنهم هم الاخرين حلفاء للمستعمر عن قصد أو غير قصد . فإن هذه الفئة « تسير في الطريق الذي يوده الاستعمار . أو بعبارة أدق في الطريق الذي هيأه لها الاستعمار وعبّده وحسّنه . فلم تعد تشعر فيه بتعب المسير . كما استلذت فئة الرجعية الجلوس على الأرض في مكان واحد . واستلذت فئة المجددين السير في هذا الطريق . ولو كانت وجهته غير الوجهة التي يجد فيها الشعب نفسه وشخصيته ويستطيع أن يستخدم فيها مواهبه وعبقريته . ويبعث فيها تاريخه ويجدد فجره ويربط يومه بأمسه فيكون حاضره استمراراً للشخصية التي كان عليها ماضيه والتي تصلح أن تكون أساساً لمستقبله . وأنا لا أدري هل يشعرون أوْ لاَ يشعرون بأن تجديد حاضرنا دون ربطه بأمسنا . هو بتر أو تجزئة لخيوط تاريخنا التي يجب أن تكون مستمرة كما هي عند الأوربيين » .

وهو يفسر لمواطنيه سر تمسكهم بكل عناصر الماضي . سواء ما كان منها خيراً أم شراً حفاظاً على القومية العربية الإسلامية أمام موجة الإستعمار الزاحفة التي كانت تهدف في الجزائر خاصة إلى إبادة كل شيء . إبادة البشر . والفكر . ثم يرى أنه إذا جاز الحفاظ على كل رديء في أثناء فترة المقاومة . فإنه من الخطل في الرأي الابقاء على رواسب التقهقر والإنحطاط بعد تحرير الجزائر . كما أنه من الحق أن يندفع الجزائريون اليوم إلى تقليد الأوربيين في كل شيء تنفيساً عن مرحلة الحرمان في فترات المقاومة المسلحة وغير المسلحة . « إننا اليوم متفرنسون بقدر ما كنا في العهد الفرنسي جزائريين . وكما قلت لك يوماً إن رجال الدين عندنا أصبحوا اليوم محافظين بقدر ما كانوا في العهد الفرنسي ثوريين . كذلك

طبقة المثقفين المجددين أصبحوا اليوم فرنسيين بقدر ما كانوا في العهد الفرنسي وطنيين » .

وتلك هي الكارثة التي يخشى الأستاذ شريط أن تحيق ببلاده . وهذا ما يفسر لنا عنف أسلوبه وصرامة أحكامه على معاصيره . ومع ذلك فهو متفائل . عكس ما قد يوحي به ظاهر تفكيره عند من لا يعرف حقيقته فهو يؤكد لنا أن وجود الفرنسيين في الجزائر كان يمنع اخواننا هناك أن يكونوا مثل الفرنسيين إختياراً وإرادة .

« أمّا اليوم فقد أصبحنا نستطيع أن نكون مثلهم دون أن يسوقونا إلى ذلك بأنفسهم . هذه واحدة . أما الثانية فإننا اليوم لا نريد أن نكون فرنسيين بل نريد أن نكون متحضرين مثل الفرنسيين والإنجليز والروس . إننا اليوم لا نتشبه بأمة بعينها بل بطائفة من الأمم الراقية . كما لا نريد أن ننسلخ من كل مظاهر التأخر التي نلتقي فيها مع كل الشعوب الأخرى المتأخرة » .

إذن الطريق واضحة أمام شريط وهي تطهير التراث من أوشابه وتعميق الحاضر استعداداً لمستقبل أفضل . وهذا ما يكشف عنه كشفاً بيناً في حديثه عما بعد الهدف فيقول : « ماذا يفعلون بالنصر ؟ لقد تغلبوا على العدو وأخرجوه من أرضهم ثم ماذا ؟ وإذا كان هذا هو الهدف فإنهم بعد أن حققوه سيبقون مكتوفي الأيدي ينعمون بنشوة النصر . ويتغزلون به . وينظمون فيه الأشعار . ويمجدون الأبطال الذين استشهدوا ونالوا جزاءهم في الجنة .....

أما إذا كان الاستشهاد وسيلة لا غاية في ذاته . فإن النصر عندئذ يصبح بداية العمل . وأداة للإنتصار الحقيقي الذي هو الرفاهية والتقدم والإنتصار على مشاكل الحياة ....

أما إذا أظهرنا من العجز في معالجة مشاكل الحياة قدر ما أظهرنا من القدرة على مواجهة الموت . وإذا كان حماسنا في الاستشهاد أقل من حماسنا في الإنتاج .

وإذا كانت قدرتنا على نيل الانتصار في المعركة اكثر من قدرتنا على جعل الانتصار أداة لبناء الحياة فإن التاريخ سيحكم علينا بأننا انهزمنا شرَّ هزيمة في انتصارنا ....

إننا نتحدث دائماً عن الهدف. والموقف الصحيح هو أن ننظر إلى ما بعد الهدف. الهدف من حرب التحرير هو أن نستقل ببلادنا ولا يشاركنا فيها أحد. أما ما بعد الهدف فهو التفكير فيما نصنع بهذا الإستقلال بعد أن نحققه. وكيف نبنيه ونقيم دعائمه». وتلك الفكرة المسيطرة على ما يكتبه الأستاذ عبد الله شريط هي التي تفسر لنا كل شيء في كتابه من تلهف وقسوة في النقد أحياناً وسخرية لاذعة من الثوريين الذين انقلبوا رجعيين. وتهكم بقيم بالية كالتواكل وإساءة الفهم لسنة الكون عندما يظن الناس أن الايمان بالقضاء والقدر معناه إنكار القوانين العلمية أو تحقير العقل.

إن عبد الله شريط متلهف حقيقة على ألا يضيع الجزائريون ثمرة النصر وهو محق في تلهفه.

وهو يطيل ويقسو كل القسوة في شرح عيوب المجتمع الجزائري خاصة والإسلامي عامة. وهو محق في إطالته وقسوته. وليس له أن يعتذر عندما يبرر لهفته وقسوته فيقول «لكن عذري في كل ذلك هو الشعور الثقيل بمسئوليتنا نحو مجتمعنا. هذا المجتمع الذي نعرف مزاياه. وإن كنا قليلاً ما نذكرها. وفي مقدمتها أنه يؤثر الصراحة على المجاملة. ويحترم الحقيقة ولو كانت مرة. ويحتقر الكذب ولو كان لذيذاً» والحق أنه يعتذر ولا يعتذر في آن واحد لأنه نبيل القصد يريد لوطنه أن ينهض بسرعة غير طبيعية. فلا تقاس سرعته في التقدم بمعدل السرعة لدى من هو أكثر تخلفاً بل بمعدل السرعة لدى من هو أكثر تقدماً. وأعتقد أنه يوافقني على أن ما يتطلبه من بلده هو ما تعمل القوى التقدمية في المجتمع العربي المعاصر لتحقيقه. ويبدو ذلك بصورة أشد وضوحاً في الجمهورية العربية المتحدة التي تشهد في عصرنا تفاعلاً عجيباً في كل النواحي ثقافية كانت أم اقتصادية أم صناعية الخ .....

والأستاذ عبد الله شريط وطني صادق وعربي مسلم أصيل يبادر إلى فضح

كل محاولة رجعية تحاول الوقوف في طريق النهضة العربية الإسلامية في أي بقعة من بقاع وطننا العربي الكبير . وموقفه وسخريته البارعة من محاولة مساندة الرجعيين من حكام المسلمين والعرب جديرة بأن يشار إليها . فقد كتب في ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٦ بعنوان « دعوة بلا رسالة » في جريدة المجاهد يطعن صراحة في إخلاص ملك مسلم للإسلام . ويتهكم تهكماً بالغاً . بهؤلاء الحكام المخلصين كل الإخلاص للإسلام ، فيقطعون يد سارق الدجاج ، ولا يطبقون حكم الشريعة فيمن يسرق ثروات الأمة بأسرها من الأمراء الذين يبددون ثروات طائلة في نيس ونيويورك . ثم يبين أن الإسلام جاء بطبيعته محركاً للبشر نحو التقدم الفكري والتحرر السياسي والعدالة الإقتصادية . والعزة الإنسانية والأخلاق الإجتماعية الايجابية » .

وأن دعاة الحلف الاسلامي يخطئون طريقهم حقاً عندما يخيل إليهم أنهم يستطيعون استخدام هذه الطاقة الروحية الهائلة كأداة للتقهقر . « فإن الإسلام مهما مضت عليه من عهود ما يزال محتفظاً إلى الآن بقوة لم تمس ، وهي أنه يأبى أن يكون أداة تعمل أو تستعمل في غير وظيفتها أو على الأخص تعاكس وظيفتها .

نعم لقد مرت به عهود طويلة تعطل فيها أبناؤه عن أداء وظيفته التقدمية المحركة ، ولئن كان في هذه العهود « متعطلاً » لا محركاً إلى الوراء . ولئن مرت عصور طويلة تسمم فيها الرؤساء المسلمون بفعل الإنحرافات التي أتتهم من الخارج . ولكن أغلب المسلمين بقوا على فطرتهم البريئة ولم تستطع تلك الإنحرافات أن تنال شيئاً كثيراً إلا من الرؤساء المسلمين وبعض الطرق الصوفية » .

والأستاذ عبد الله شريط رجل مثالي يريد لمواطنيه أن يشكلوا دائماً مسلك البطولة وألا يخففوا حدة هذه البطولة بعد النصر . وهو مثالي صادق مع نفسه لأنه ، كما أعرف يسلك مسلك الجد في حياته العملية ، وقد علمت من غيره لا منه أنه رفض منصباً عالياً لكي يخصص نفسه لمعركة الثقافة واعداد جيل من المثقفين في كلية الآداب بالجزائر .

وهو يومئ إلى هذه الحقيقة إيماءة المتواضع عندما ينسب هذا المسلك إلى غيره الذي يقول عنه إنه تراجع إلى الوراء تاركاً هذا المنصب للمغامرين الذين لا يفرقون بين أملاكهم الخاصة وملكية الدولة . ثم يفسر هذا التراجع قائلاً « إنها قضية مجتمع كامل وليست قضية الفرد أو بعض المسئولين . وهذا المجتمع يجب أن نكونه في الأساس ونبعث أجيالاً جديدة تتعلم النظام والاقتصاد منذ الصغر وهذا ما نفعله ونحن مجرد معلمين ولا نستطيع فعله ونحن مسئولون كبار » . وهذا ما يفعله فعلاً عبد الله شريط . ثم يكاد يكشف عن نفسه عندما يقول على لسان صاحبه « وثق أنه لولا اقتناعي بأن العلاج ينبغي أن يبدأ من هنا لما امتهنت هذه المهنة الصعبة ثم من هنا نبدأ الإشتراكية إذا كنا مخلصين لها » .

إن الثقافة الجزائرية في نظره ثقافة هجينة . وهو كاشتراكي ملتزم يرى « أن كل واحد يشعر بأننا في أشد الحاجة إلى معالجة هذا الميدان (الأخلاقي والإجتماعي) والإلحاح عليه ... إننا خرجنا من حرب طويلة الأمد . والحرب في كل مجتمع تخلف هوة أخلاقية خطيرة . ثم إننا ورثنا عادات أخلاقية متضاربة بعضها من أجدادنا في عصور الإنحطاط الماضية وبعضها الآخر من أقوام فرضوا علينا حياة لم ننضج بعد لأن نحياها . فكان من جراء ذلك أن يصبح مجتمعنا يعيش متضارباً متناقضاً في كل ثنايا وجوده . في تفكيره ومشاعره وذوقه وفي اقتصاده وتجارته . في إدارتــه وعــاداته وميولــه . في بيته . ومع أولاده ... وعقلنا الجماعي أو الفردي يعيش محاطاً بهذا التضارب والتناقض فينطبع بهما . ويتلون بلونهما المشوش فلا نجد انسجاماً في تفكيرنا ولا عملنا . الفرد الواحد غير منسجم مع نفسه وغير منسجم مع أقاربه ، وغير منسجم مع الآلات التي يستعملها في عمله .... والمجتمع غير منسجم مع المدينة التي يعيش فيها » .

إذن هي معركة أشد خطراً من معركة تحرير الوطن من المستعمرين ، إذ هي معركة المفاهيم التي يجب أن ينتصر فيها الشعب الجزائري ليعمق بها خير ما حواه ماضيه ولكي يصل هذا الماضي بمستقبل أفضل من حاضر مضطرب متناقض .

وهي معركة يجب أن يجد فيها الأستاذ عبد الله شريط أعواناً وأظن أن التفاعل الذي رأيت بوادره عندما زرت الجزائر كفيل بأن يخلق له أعواناً وأعواناً أقوياء ، إذ من المستحيل أن يستمر هذا التناقض فالحياة تزخر بالإمكانيات كما تزخر بالمشكلات . لذلك لا تعجب إذا وجدنا العنوان الأول لمقالاته تتصدره كلمة المعركة « معركة الشهوة والقوانين » ثم يليه عنوان ثان هو « معركة المفاهيم » ثم تستمر المعركة نقداً لا هوادة فيه ثم يشتد على هيئة حوار في الصميم .

ولا يكاد يترك هذه المعركة الخاصة بالمفاهيم حتى يعود إليها مستخدماً أسلوباً تمتزج فيه الفلسفة بالأدب والجد بالتهكم والسخرية ، مقارناً بين الحضارتين الشرقية والغربية ، ومفرقاً بين الإسلام والمسلمين ، وعارضاً لعقد النقص في مجتمعه والمجتمعات النامية . وإذا تكلم عن موقف رجال الدين بعد نجاح الثورة افتقد الإمام عبد الحميد بن باديس الذي كان مثال المتدين الثائر .

وبقي أن نشير إلى سمة ، من سمات اسلوب الأستاذ عبد الله شريط . أنه يعرض هذه الآراء على هيئة حوار محكم السبك فلا يجد المرء من حيلة سوى أن يتابعه شغوفاً متلهفاً على نهاية الحوار بينه وبين صديقه . ويبدو واضحاً أنه يتخذ شخصية الصديق ستاراً يبث على لسانه آراءه الخاصة . ونجد مثالاً طيباً لهذا الحوار في الحديث عن عقد الأوربيين الذين يقول أحد شبانهم انهم سعداء ولكنهم يموتون سأماً . لأنهم لا يبذلون أنفسهم تحقيقاً لهدف كما يفعل أبطال حرب الجزائر ثم يتنازل عن مسألة العقد ليعود إلى عرض فكرته الأساسية وهي ضرورة اللحاق بالأمم المتقدمة بدلاً من الوقوف لاستعراض العقد .

والحل الصحيح هو عدم الانفصال عن القاعدة وضرورة مجابهتها بالحقائق . وهو يجابه بالحقائق المرة .وبأسلوب فيه مسحة عالية من التهكم تصل به أحياناً إلى حد القسوة ، كما قلت ، وقد تدفعه هذه القسوة إلى أن يسلك مسلك ابن خلدون في تجريح العرب وإن كان ابن خلدون يتكلم عن العرب أو الأعراب بعبارة أدق في عصور التدهور . وربما كان هذا هو المأخذ الوحيد الذي يمكن

أن يؤخذ على صديقنا عبد الله شريط في موقفه من الحضارة العربية .

ولا نريد أن نطيل في هذه المقدمة أكثر مما فعلنا فيكفي أن نورد نصين مميزين لأسلوبه تاركين للقارئ متعة تذوق هذا الأسلوب المتدفق الذي يعلو ويهبط ليعلو من جديد كأنه موج البحر أو هدير المعركة . فهو يقول مقارناً بين الحضارتين العربية والغربية .

« أخشى أن يكون نفوركم من الحضارة الحديثة سببه هو عجزكم عن هضمها وتحمل مسئولياتها وفراركم مما تقتضيه هذه الحضارة من يقظة فكرية مستمرة . وأفكاركم أنتم تعودت الهدوء والفراغ وصمت الصحراء وحوافر الماشية ... إنكم يا صاحبي فريق من المثقفين يتعبكم الخلق والابتكار والفهم . فتؤثرون أن تولوا أمر تصرفاتكم في الحياة إلى ما تسمونه « حلالاً وحراماً » في حين أنه لا علاقة له بالحلال والحرام » وهو يسخر من موت الضمير عند كثير من معاصريه فيقول :

« هل رأيت في حياتك شخصاً منا إحتدمت في نفسه معركة بين الحق والواجب فقدم واجباته على حقوقه . ولكن لماذا أضع لك هذا السؤال إننا لم ندخل بعد في الطور الذي يقف فيه ضميرنا حائراً بين الحقوق والواجبات ... ولكن لا أدري لماذا خرجنا عن الموضوع إلى هذا الاستطراد » ولا ريب في ان هذه الجملة الأخيرة لاذعة في سخريتها . ثم تستمر السخرية عندما يقول على لسان صاحبه « نعم إن الأفضل أن نعود إلى الموضوع » .

ونود أن نشير إلى أن موضوع الحديث هو « التفاؤل » ونحن نتساءل كيف يمكن أن يكون التفاؤل مشروعاً من حيث المبدأ لا من حيث الحديث عنه إذا كان محاورنا يرى أن التطرق إلى الكلام عن صلة الحق بالواجب نوع من الاستطراد الذي لا موجب له ؟ وكم كنت أود أن أحلل بعض النماذج الأخرى . لكن قلت إن صديقي الأستاذ عبد الله شريط ربما فضل مواجهة القراء بأسلوبه الخاص . وإذا كان اسم (معركة المفاهيم) هو عنوان لمقال أو مقالين من هذه المجموعة فإن بقية المقالات وإن لم تحمل هذا الاسم ، تدور كلها حول موضوعه وإذا

قدر لهذه الأحاديث أن تكون قد اقتنع بها عدد من قراء الجزائر فإني لأرجو أن ينتفع بها عدد أكبر من أجيالنا الصاعدة لأنها هي التي ستخوض هذه المعركة بصفة أكثر حيوية ونضجاً منا نحن في هذا الجيل ويكون حظنا من السعادة أننا ساهمنا مساهمة متواضعة في تعبيد الطريق لهم وفتح آفاق جديدة للمستقبل .

محمود قاسم

المعركة بين :
الشهوة والقانون

نحن نميل بطبعنـا إلى التعود عـلى السلبيات أكثر من الإقبال على الإيجابيات . وعندما نريد أن نفكر ننصرف أولاً إلى الانتقاد : إلى انتقاد غيرنا طبعاً ، وتحميله المسئولية فيما نعانيه ، السلبية هي أن لا أفعل شيئاً ، وإن فعلته فهو تهديم ما بناه غيري . وكادت هذه العادة أن تصبح مرضاً مزمناً مع مرور السنين والأجيال والقرون . والعادة تدفعك إلى العيش وفق شهوتك لا وفق القانون ، وشهوتك تترك لك الحرية تفعل ما تشاء . والقانون يضبط سلوكك ويقيد حركاتك .

حاول « حامورابي » أن يجعلنا نعيش بالقانون فعشنا به دهراً قليلاً ثم نسيناه وعدنا إلى العيش بشهوتنا ، ثم جاءنا محمد بدين كله قيود لشهواتنا ، شهواتنا في الحكم والمعاملة والأكل . وأراد أن يجعلنا أمة وسطاً تضبط شهوتها وتسيطر عليها وتقدس القانون وتعيش به . ومزج لنا محمد بين القانون وبين المقدسات حتى نحافظ على القانون . ولكن لم نكد نتعوده وينتقل صاحبه إلى الدار الآخرة حتى عدنا إلى حكم شهوتنا ودسنا القانون . وقالت الأعراب لا ندفع الزكاة ، وقال أبو بكر سأقاتلهم حتى من أجل عقال بعير كانوا يدفعونه للنبي وامتنعوا عن دفعه الآن ،

لا من أجل عقال البعير ، بل من أجل القانون ، وأطاع العرب القانون بالقوة مع أبي بكر ، وبالقدوة والمثل الأعلى العملي الذي كان يطبقه الخليفة على نفسه وهو عمر . ثم جاء عثمان فلم يستعمل القوة ولا استطاع أن يكون مثلاً أعلى . فكان أول من حابى أقرباءه في الاحسان فثار عليه العرب وقتلوه . وجدها بنو أمية فرصة لإعادة مجدهم الذي كان لهم في الجاهلية فطبقوا أرستقراطيتهم بعد عمر وتوارثوا الحكم كما يتوارثون تركة آبائهم . ولم يكادوا يفتحون أعينهم على ما خلفته لهم الحضارة البيزنطية من أساليب الحكم والتنظيم والقانون ويبنوا على أسس ذلك دولتهم التي أصبحت امبراطورية كبيرة حتى عصفت بهم أيدي خصومهم من بني العباس وانتقلت الدولة إلى العراق لتنسى الحضارة الرومانية وتفتح عينها على الحضارة الفارسية الإيرانية ، وكانت هذه ـ في نظري ـ نكبة لا تماثلها إلا نكبة مقتل عثمان وفتنة علي ومعاوية . لقد استقرت الدولة في بغداد وورثت ما وجدته أمامها من أساليب الحكم الفارسي : وهو أميل إلى العادات منه إلى القانون ، وناسب ذلك شهوتنا أكثر مما ناسبه القانون البيزنطي الروماني اليوناني ، اعتنقنا بذخ الفرس في الدولة وفقر الشعب ، وتقديس الحكام ودوس الحكم ، وانطلق شعراؤنا يمدحون رجال السلطة ويهينون المثل العليا. وراح فلاسفتنا يبحثون في صفات الله وتركوا مشاكل المجتمع ، ولو بقوا في دمشق لتأثروا بالقانون أكثر مما تأثروا بتقديس الحكام ، ونظموا الدساتير السياسية لتنظيم المجتمع والعلاقة بين الدولة والمجتمع أكثر مما اهتموا بالبحث في الآخرة ، ولاعتنوا بتحديد العلاقة بين المواطن وأخيه المواطن أكثر مما اعتنوا بالعلاقة بين الإنسان وربه . حتى الغزالي يعرض نفسه للخطر ويبعث إلى الحكام يقول لهم : إن أعناق جيادكم مثقلة بقلائد الذهب وأعناق المسلمين مثقلة بالضرائب الفادحة . ولكن الحروب الصليبية أمامه تنهش العالم الإسلامي وتمزقه فلا يبحث في أسباب الكارثة ولا يتفطن لتفكك المجتمع الإسلامي ويضع دستوراً يعيش عليه شعبه ويحترمه .

كل حياتنا قضيناها شهوة أطفال : الحكم عندنا غنيمة وليس مسئولية ، وشهوة وليس قانوناً ، وتسلط وليس تنظيماً ، حاول ابن خلدون ـ وحده ـ أن

يفهمنا عيوبنا ويهدينا إلى مشاكلنا الحقيقية ، فلم نشعر به ، تحدث بلغة العقل ، ونحن عبيد للعاطفة ، بلغة الرجال الجديين ، ونحن ما نزال مراهقين نحب العبث ولا نعرف رسالتنا في الحياة .

واليوم في عصر نهضتنا ـ أقصد في المشرق والمغرب ـ لم نستفد من سيطرة الاستعمار علينا ، ولم نستفد من اختلاطنا به ولم نقلده في الجد والتنظيم والشعور بالمسئولية ، نذهب إلى أوروبا فلا تسترعي اهتمامنا الجامعات والمصانع والمتاحف والهياكل الفنية وآثار الكتاب والفلاسفة بل نفتتن بالملاهي الليلية وحرية الاتصال بالنساء ونقلد شبابهم في آخر رقصة ظهرت . الأوروبي يرقص ليلة ويعمل ويتعلم ستة أيام في الأسبوع . أما نحن فلا نفصل العمل عن اللهو . كل أوقاتنا لهو تتخللها مخادعة لأنفسنا بأننا نعمل .

وعندما يتهمنا الأوروبيون بالكسل والغباوة والسلبية وعدم الشعور بالمسئولية وبالعبث وفقدان روح الجد وبالغش وعدم الصراحة ـ نجيب أنفسنا بأنهم كفار ملاعين يحسدوننا لأننا سنذهب إلى الجنة ونتشمت فيهم عندما يكونون في النار . أما مفكرونا فلا يترددون في فتح مناقشة عريضة بأننا خير الأمم ، وحضارتنا أعظم الحضارات التي عرفتها الإنسانية ، وان كل ما نحن فيه من بلاء وتأخر هو من أثر الاستعمار اللعين ، وهذا الجانب من الجواب الصحيح ، ولكنه نصف الحقيقة ، بل هو ـ كما يقول علي بن أبي طالب ـ كلمة حق أريد بها باطل . اننا نتخذ من هذا الجواب ذريعة لكي لا نفعل شيئاً ولا نفحص عيوبنا ونتحدث عنها بصراحة ، صراحة الرجل القوي المؤمن بنفسه ، صراحة الأمة الواعية السليمة من المرض ، ونبحث عن الطريق الطبيعي للخروج من عمر الطفولة والشهوة وأمراض المراهقة ، وندخل في عهد النضج والرجولة والقانون المحترم . تقرأ صحفنا ـ مشرقاً ومغرباً ـ فلا تجد تمجيداً للقانون بل تزلفاً لمن يمسكونه بأيديهم ولا يحكمون به ؛ وتقرأ صحف البلدان المتقدمة فلا تجد تمجيداً بل ولا حديثاً عن الحكام ، وإنما حديثاً عن عمل البلاد ومشاكلها . ودخل ديغول بعد تحرير فرنسا إلى شوارع باريس فهتف

الشعب يحيا ديغول فقال لهم : قولوا تحيا فرنسا ، فهل سجل قائد عربي في عصرنا مثل هذا السلوك ؟

يقول المتشائمون عندنا : إن السنوات الثلاث التي قضيناها بعد الاستقلال يجب أن نضيفها إلى السنوات السبع التي قضيناها في الثورة وويلاتها لأنها كانت سنوات أقرب إلى الهدم منها إلى البناء وإلى التفقير منها إلى الكسب وأقرب إلى الذلة منها إلى الشرف .

ويقول المتفائلون منا : بل ان ما صدر منا في السنوات الثلاث بعد الاستقلال يجب أن نعتبره حفلة رائعة قضيناها في الجنون والعربدة والتبذير ودوس القوانين ، وعذرنا أننا كنا في فرح .

وأنا أخشى أن يكون ما صدر منا في هذه السنوات الثلاث هو عودة إلى حياة الشهوة والفرار من حياة القانون التي تضبط السلوك وتخنق العبث . وأخشى أن نكون قد فسرنا سنوات الثورة بأنها لم تكن سنوات أتعاب تبرر العبث بعدها ، بل سنوات قانون ضقنا به ذرعاً ، وجاءنا الاستقلال بالفرحة لنتخلص من ربقته الخانقة .

وستقول ما أهمية الأمر عملياً سواء كان التفسير هو هذا أو ذاك . والأمر له أهمية عملية فعلاً : إذا فسرنا سنوات الثورة بأنها كانت أتعاباً وان عبثنا بعدها راحة فانه يترتب على ذلك اننا الآن شبعنا من الراحة والأفراح والانطلاق والعبث ، وآن لنا أن نخرج من هذه السهرة الطويلة ونبدأ العمل من جديد . وإذا فسرنا سنوات الثورة بأنها كانت قيداً لشهواتنا عابراً ، واننا بعد الاستقلال دخلنا في الحياة الطبيعية « الحرة » من كل قيد فان الأمر ـ كما ترى ـ يختلف . وهو كما ترى أيضاً خطير جداً .

هل يعقل أن تكون الحياة الطبيعية عند فلاحنا في أراضي المعمرين السابقة هي أن يحرثها شعيراً لا يفي بمصاريف النفقة بعد أن كانت تفلح خضراوات تدر الملايين ؟ وذلك لمجرد كون الشعير يتطلب عمل شهر في السنة وتفليح

الخضراوات يتطلب عملاً يومياً حتى يوم الأحد ؟

هل تكون الحياة الطبيعية عند الموظف عندنا هي أن يجهد مخيلته لاختراع الأعذار في تسويف الناس والاطالة العابثة في خدمة مصالحهم وهو يحتل مركزاً سامياً ليخدم به مصلحة شعبه بعد أن كان ذلك المركز في يد موظف فرنسي يخدم به مصلحة الدولة المستعمرة ؟

هل تكون الحياة الطبيعية عند المسئول هي أن لا ينظر لمسئوليته إلا من الجانب الذي يحقق به اقتناء سيارة فخمة ومسكناً جميلاً ومرتباً ضخماً ، ولا ينظر إليها من الجانب الآخر ـ في نفس الوقت على الأقل ـ وهو جانب العمل والجد والتعب والحرص والشعور بالمسئولية ؟

تحدث إلينا بعض أخواننا ممن اطلعوا على أحوالنا الاقتصادية والإدارية والسياسية فقالوا : في سنوات ثورتكم كنا نقول أنكم لا يمكن أن تكونوا من الجنس العربي وبلغ اعجابنا بتنظيمكم ومثابرتكم وجدكم أننا إذا رأيناكم تخطئون في موقف من المواقف لا نتردد في تأويل الخطأ بأنكم تعمدتموه عمداً وأنكم ارتكبتموه عن « تكتيك » وحساب وانكم لا تأتون أمراً أو تدعونه إلا عن دراسة مضبوطة ، أما بعد أن رأيناكم بعد الاستقلال فقد « اطمأنا » عليكم وعرفنا أنكم عرب مثلنا وأشقاؤنا حقاً !

إذن هل حقيقتنا هي سنوات الثورة ، أم سنوات الاستقلال ؟

أنا لست من المتشائمين ، ولا أقول بالجبرية الحتمية وبان « أي كذا خلقت » ولا مفر لتغيير طبيعتنا وسلبيتنا وعبثنا ، واستهتارنا ، وإنما اعتقد أن الحياة تعطي لكل ما يستحقه ، وأن الأمة التي أنجبت حامورابي وماصينيصا وبعث فيها محمد وخلق فيها ابن خلدون وطردت الصليبيين بعد قرنين من الحروب وينتمي إليها شعب نفخر بثورته وتنظيماته سبع سنوات ونصفاً ـ هي أمة قادرة على أن تتغلب على نفسها وتتجاوز أقدارها البائسة . لأن المعركة ـ في آخر الأمر ـ بيننا وبين

أنفسنا . وهذا ما لم يفهمه مع الأسف قادتنا في العالم العربي . انهم يجهلون أمتهم ولا يقرأون تاريخها ولا يدرسون نفسيتها ، ولا يحبون الاطلاع على طبائعها الاجتماعية ويأنفون التفكير ويعتبرونه مضيعة للوقت ويخلطون بين العمل والتهريج وبين العظمة والتفاخر وبين القوة والتهديد وبين الصبر والتواكل والشجاعة والتهور ولا يفرقون بين التأمل والأحلام أو النقد والانتقاد ، وبين التسرع والسرعة . ويعتبرون أنفسهم في غير حاجة لأن يدرسوا ويتثقفوا ويتعلموا ويعرفوا أنفسهم على حقيقتها وأمتهم كما هي وكما ينبغي أن تكون ، ويعرفوا العالم الذي يحيط بهم وقوانين القسوة التي تحكمه . كلا لست متشائماً ، بل أعتقد أننا سنفعل كل ذلك .

معركة المفاهيم

حضرت يوماً لهذا الحديث بين الأب وابنه ـ كان ذلك قبل الثورة .

قال الأب : أنتم معشر الجيل ليس لكم من الرجولة شيء .
الابن : وكيف ذلك ؟ ماذا تعني بالرجولة ؟

الأب : نحن لا تستطيع المرأة أن ترفع صوتها أمامنا ، وإن فعلت فإن الجواب عليها هو صفعة تعيد إليها صوابها ، أما أنتم اليوم فان النساء لا يقفن معكم عند حد رفع الصوت ، بل إذا صفعتها ترد إليك الصفعة .

الابن : نعم ، هذا صحيح ، نحن نفضل أن نتعامل مع نسائنا بهذا الشكل ولكن إذا خرجنا إلى السوق ووجدنا البوليس الفرنسي « يتفرعن » فإننا لا نتردد في تبادل اللكمات معه والذهاب إلى السجن . نفضل السجن على الإهانة من البوليس ، وأنتم تفضلون إهانــة البوليس على إهانة المرأة لكم ، فالمسألة كما ترى مسألة اختلاف بيننا في مفهوم الرجولة .

وتدخلت في الحديث : نعم ، مفهوم الشرف عند الانكليزي هو أن لا تمس

العلم البريطاني بسوء . والشرف عندنا نحن هو أن نحيط بيوتنا بأسوار عالية ونحكم اغلاق الأبواب على « الحريم » حتى لا يدنس شرفنا . المسألة إذن مسألة مفهوم في الشرف ، فقط .

الشاب : وتقول فقط ؟ وماذا يترتب على اختلاف هذا المفهوم ؟

أنا : يترتب عليه أن نساءنا في حفظ من الدنس ، ونساء الأوروبيين يتمرغن في العار .

الشاب : ويترتب عليه أيضاً أن العلم البريطاني لا تغرب عليه الشمس في أنحاء الأرض ، وعلمنا نحن لا نعرفه منذ قرن وربع قرن .

أنا : هذه مسألة أخرى .

الشاب : كلا يا سيدي ليست هذه مسألة أخرى ، هذه هي المسألة كما يقول شكسبير .

ثم استطرد يقول : إن أبي هذا قد منع أختي من الذهاب إلى المدرسة بعد تسع سنوات من عمرها والسبب هو أنه رأى المراهقين من أبناء بلدتنا ينظرون إليها .

أنا : انه أراد المحافظة على شرفها .

الشاب : كلا أراد المحافظة على شرفه هو ، حتى لا يقول عنه أقرانه بأنه سمح لابنته بالتجول في الطرقات تحت أنظار الشبان .

أنا : وهل لا توافقه أنت على هذا الشعور ؟

الشاب : أقدر فيه هذا الشعور ولكن لا أوافقه عليه ، إنه أنانية . أنانية أجيال ، يحافظ على سمعته أمام الأقران من جيله ، ولا يحافظ على سمعة ابنته أمام القرينات من جيلها ، ستخرج من بينهن جاهلة ، وتحرم من زواج سعيد . وتحرم البلاد من أبناء صالحين وأجيال متعلمين في وقت يكون أبي قد توفي ولكنه ترك للوطن تركة ثقيلة وأطفالاً جاهلين في وطن بائس .

أنا : أنت تهول الأمور بعض الشيء .

الأب : هل بقيت لنا مفاهمة مع هذا الجيل ، وانصرف .

قلت : للشاب أنت تأخذ أباك في غير رفق وتوشك أن تثير فيه ردود فعل متصلبة .

الشاب : كلا : إن مجاملتكم أنتم لمثله هي التي توهمهم بأنهم على حق ، ألم تر كيف ضاعت فلسطين .

(كانت المحادثة في سنة ١٩٥٠) .

أنا : وما شأن فلسطين ؟ هل أن أباك هو الذي أضاعها ؟

الشاب : نعم هو وأمثاله ، واليكم القصة : عندما بدأ اليهود يهاجرون إلى فلسطين قبل أن يخرج منها الانكليز كانوا يسارعون إلى فتح المواخير والمحلات الليلية ويضعون فيها أجمل النساء اللاتي يختارونهن اختياراً لهذا الغرض من مختلف أنحاء أوروبا . فيفد الشبان العرب على هذه المحلات للتسكع والتقرب من أولئك الفتيات ، والكؤوس تذهب فارغة وتجيء ملأى ، ويصبح اللهو عادة مستحكمة ، ثم يصبح استعباداً ، وتفرغ الجيوب بقدر ما تمتلئ الكؤوس ، ولا يستطيع الشبان أن يتخلصوا من العبودية وأغلبهم من أبناء العائلات الموسرة لهم مزارع وضيعات مهملة ، فيرهنونها عند المضاربين اليهود ويشربون بها خمراً عند النساء الجميلات ، ويأخذ الشاب المبلغ بعد المبلغ « على الحساب » . ثم يعجز عن تسديد الدين ، فيبيع المزرعة ، وتصبح ملكاً لليهود . وسرعان ما تتحول إلى قلعة حربية يتدرب فيها الشبان اليهود والفتيات اليهوديات على استعمال الأسلحة والتأهب للمعركة . وخرج الانكليز ، وجاء اليوم الموعود ، فتحولت الفتيات اليهوديات الباسمات الناعمات إلى سفاحينَ يذبحن أطفال « دير ياسين » ويستولين على ما تبقى .

أنا : وما شأن أمثال أبيك في هذه الكارثة ، ان المسئولية بالعكس على جيلكم أنتم جيل الشباب .

الشاب : هذا الشاب المتخنث من الذي أنشأه ؟ وهذه الكارثة أليست نتيجة لمفهوم الشرف عند آبائنا ، الشبان يجدون الشوارع مقفرة من النساء الوطنيات ومزينة بالنساء الأجنبيات فيتهافتون كالفراشات الضالة .

أنا : وهل كنت تريد أن نبيح الاختلاط بين الجنسين حتى نمنع شبابنا من الاختلاط بالفتيات الأجنبيات ؟

الشاب : المسألة ليس فيها اختيار : أما أن تضحي بشرف ابنتك أو تضحي بشرف بلادك .

أنا : هذا الاختيار عسير ، وهو لا يخلو من فاجعة .

الشاب : نعم لا يخلو من فاجعة بل كله فاجعة . ان آباءنا وأجدادنا قد انقرضوا أو هم في طريق الانقراض ، وقد حافظوا على شرف أخواتنا وأمهاتنا ، ولكن أين هو شرف أوطاننا ؟ أي شرف يغطي اليوم عارنا في فلسطين أمام الأمم . ونحن نعرف انهم لم يأخذوها بالقوة لأن العرب أقوى منهم . ولكن أخذوها لأنهم يعرفوننا كيف نفهم الشرف ، ويعرفون اننا نضحي بوطن ولا نضحي بمفهوم خاطئ ، ونضحي بأجيال لكي نكسب الأوهام ، إن معركه المفاهيم أخطر من معركة السلاح ، واليهود يعرفون حكمة انكليزية تقول : يجدر بك ـ إذا كنت صاحب أملاك ـ أن تعرف فلسفة مستأجرك أكثر من أن تعرف مداخيله . ويجدر بك ـ إذا كنت قائداً حربياً ـ أن تعرف فلسفة عدوك ومفاهيمه في الحياة أكثر من أن تعرف عدد جنوده . ونحن عندما نخالف آباءنا ـ يا صاحبي ـ فلأننا أدركنا أن المعركة بيننا معركة مفاهيم . أو ان شئت هي أنانية أجيال . اننا ندافع عن أنفسنا . اننا نحن الشعوب المتأخرة يتحكم فينا الأموات أكثر مما تتحكم فينا الحياة ومشاكلها . أقصد بالأموات عادات الأجيال السابقة . انهم لم يقدروا تطورات الحياة وانى لهم ذلك ولم ينظروا بعيداً . كانوا يفكرون في أنفسهم وماذا يقال عنهم . أو ماذا يقوله بعضهم عن بعض . أما نحن فلم يفكر فينا أحد .

أنا : اني معك إلى حد ما . ولكن ينبغي أن لا نفرط حتى نكسر الجسور .

والأجيال السابقة لم تفعل معنا الشر بقدر ما أرادت لنا الخير ، وليس صحيحاً انهم لم يفكروا في تطور الحياة من بعدهم . دخل عمر بن الخطاب إلى كنيسة في بيت المقدس ووجبت صلاة العصر فطلب من صاحب الكنيسة أن يدله على مكان خارجها ليؤدي فيه الصلاة فقال صاحبها : يا أمير المؤمنين إن الدين الاسلامي يبيح لكم الصلاة في الكنائس فهلا أديت صلاتك هنا ، فقال عمر : إذا صليت هنا فان المسلمين ـ بعد مائة عام ـ سيفتكون منكم هذه الكنيسة بحجة ان أمير المؤمنين قد صلى فيها وانها بسبب ذلك أصبحت ملكاً للمسلمين . ورأى الناس في عهده يترددون على شجرة البيعة ، فأمر بقطعها ، قيل له لماذا ؟ قال لأن المسلمين بعد مائة عام سيعبدونها وينسون ربهم ، فانت ترى أن عمر يفكر في الأجيال الآتية أكثر مما يفكر في جيله .

الشاب : نعم ذلك عمر وليس كل الناس عمراً . بل لقد قضينا تاريخنا الطويل نعمل بالحكمة العربية « الخالدة » .

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فان الخافقات لها سكون
وان ولدت نياقك فاحتلبها ... فما تدري الفصيل لمن يكون

ونحن نقول في حكمتنا : « الخالدة » أيضاً : « أحييني اليوم واقتلني غداً » ولا أدري أي طعم أجده في الحياة اليوم إذا كنت متأكداً أنني سأموت غداً .

إن القرآن حدثنا كثيراً عن الآخرة ، ولكننا لم نأخذ من الآخرة الا انها مكان سنحاسب فيه يوم القيامة على أعمالنا . ولم نفهم من الآخرة شيئاً آخر نستفيد منه في هذه الحياة أيضاً .

أنا : وما دخل الآخرة في الموضوع ؟

الشاب : كنا نستفيد منها في حياتنا لو فهمنا منها انها تعبير عن المستقبل ، العمل من أجل المستقبل ، العمل الذي لا نأخذ عليه اجراً اليوم ، اجراً مستعجلاً تافهاً . بل اجرك هو أن يستفيد منه من يأتي بعدك . أما أنت فتعمل من أجل

المستقبل الذي لن تدركه في هذه الحياة .

كان الحديث في مقهى « أهلي » وضجيج السوق أمامنا يملأ الآذان والغبار يتطاير تحت أقدام الماشية والناس ، وكان الفصل خريفاً ـ على ما أذكر ـ والصبيان يتصايحون ويسرقون الخضر والفواكه المكدسة على الأرض ، ومر أمامنا حطاب يسوق حماره المثقل ، كان الحطب فوق ظهره غير جاف تماماً ، وكانت أضلع الحمار أكثر جفافاً منه ، فقال لي الشاب : ما رأيك في هذا الحطب وصاحبه ؟

أنا : انه سيتعرض لغرامة يعاقبه عليها القانون لأن الحطب غير جاف .

الشاب : أهذا كل ما تستنتجه ؟ انني أرى هنا تاريخاً كاملاً : كل جيل من أجيالنا السابقة ظل يقطع الشجر ليبيعه أو ينضج به خبزه ، ولم يفكر في الغابة التي ستصبح صحراء كما هي اليوم . انه كان يفكر في خبزه فقط ولم يفكر في الأجيال التي ستأتي بعده فلا تجد ما تنضج به هي خبزها .

أنا : وهل كنت تود أن لو أكل الخبز عجيناً حتى لا يخرب الغابة .

الشاب : كلا كنت أود أنه عندما يقطع شجرة يغرس مكانها شجرتين : الأولى لنفسه مكان التي أخذها والثانية للجيل الذي سيأتي من بعده ، ولكن أنى لنا التفكير في المستقبل أو في الأجيال القادمة ، انه لا يوجد عندنا تضامن أجيال ، وإن وجد عندنا تضامن أفراد في الجيل الواحد ، لأنه لا يوجد عندنا تفكير في المستقبل ، المستقبل عندنا هو عالم خارج هذا العالم ، هو الآخرة وحدها ، هو الدار الباقية !

من كان في هذه أعمى

لا أشك في أن القراء ـ سواء منهم الكرام أو غير الكرام ـ يعتقدون أن ما أسجله هنا من محاورات انما هو نحو من الاسلوب فقط . وانها لم تحدث في الواقع . وانما الأفكار لي أردت أن أصيغها في قالب حوار حتى تخف قراءتها وتحلو مطالعتها . وقد يظن الأذكياء منهم أنني ألجأ بهذا الأسلوب حتى أتخلص مما يمكن أن يكون في تلك الأفكار من جرأة قد تنجر عنها مسؤولية ما .

أريد أن أؤكد لهم أن هذا وذاك خطأ . يكفي أن يتفطن كل واحد منا لما يجري من مناقشات وأحاديث في أوساطنا ـ سواء الشعبية منها أو غير الشعبية ـ ويتصور أنه قرأ تلك الأفكار في كتاب أو سمعها في حوار سينمائي حتى تتغير نظرته إليها وميزانه لها . إننا كثيراً ما نسمع فكرة فلا ننتبه لقيمتها لأن من سمعناها منه لا يملأ عيننا وليست له سمعة علمية أو أدبية . في حين أن الفكرة نفسها نسمعها من شخص له شهرة فكرية أو أدبية أو نقرأها في كتاب فنعجب بها ونسارع إلى روايتها . اننا لا نستمع إلى ما يقال . بل إلى من يقول . وخاصة إذا كنا لا نعرف

الشخص القائل . كلما أمعنا في جهلنا بالقائل وابتعدت بيننا وبينه المسافة كلما تصورنا فيه الكمال وكلما اقترب منا وعرفناه ازددنا زهداً في أفكاره .

أعرف رجلاً في قريتنا نسميه الفيلسوف ، يكاد يكون أمي القراءة ـ أعني يقرأ بصعوبة ـ ولكنه يستمع كثيراً : للاذاعات والمثقفين ويفكر كثيراً ، أكاد أقول أنه آلة تفكير . لذلك لا أسميه أمياً وكفى ، بل أمياً في القراءة والكتابة فحسب . وكان ربع القامة متوسط العمر أشيب اللحية أصلع الرأس . يمشي بهدوء ويتكلم بهدوء أكثر . كلماته متقطعة ولكن أفكاره متسلسلة . مهنته صائغي ، فقير جداً . وهذه المهنة عندما يجتمع إليها الفقر وقلة مشاغل الحياة تتيح لصاحبها أن يتأمل في كل شيء . وخاصة عندما يكون له استعداد طبيعي للتفكير والتأمل . وكنت كثيراً ما أجلس إليه ، ولكنه لا يحسن الحديث إلا عندما يكون متألماً أو قريباً من السكر .. (كان يشرب من حين لآخر عندما تطغى عليه الآلام ..) أما الآن فقد تاب عن السكر وأصبح يصلي . سألته منذ عام عن سبب هذا الانقلاب من الشرب إلى الصلاة . فقال أحب أن أكون دائماً مع الأقلية : في عهد الاستعمار كان الشعب كله يصلي وكانت الحانة (الوحيدة في قريتنا) تكاد تكون فارغة طول النهار والليل . أما اليوم فان المساجد هي التي اقفرت من أهلها وأصبحت تثير الشفقة فأنا أحرص اليوم على ملئ المسجد كما كنت أحرص بالأمس على ملء الحانة حتى يتحقق التوازن . وسكت .

قلت : وما يهمك أنت من التوازن ؟ قال : لا أحب (الزنبيل) المائل على ظهر الدابة . (الزنبيل في لهجة قريتنا هو حمل ذو ثقلين يتدلى على جانبي الدابة) .

كنت عنده يوماً جالساً على كرسي هرم هو الوحيد عنده . كان اليوم شاتياً ، والثلج يتساقط ، والباب الزجاجي يبعث على جنبي الأيسر نفحات من البرد الجاف . كان الزجاج مكسوراً ، والباب معوجاً ، والشارع وراء الباب محدودباً كثير الشقوق . والثلج يتساقط على الحفر المتناثرة هنا وهناك في الزقاق فيذوب بسرعة

في مائها المستنقع . ويبقى أبيض جافاً خارج الحفر . وصاحبي لا يكف عن نفخ تنوره فتتصاعد رائحة الفحم الحجري وتملأ الغرفة المظلمة برائحة لا يقبلها إلا من يعجن بها خبزه اليومي .. ومن حين لآخر يمر طفل أمام الباب ملتصقاً بالجدار كأنه يحتمي به من لذع البرد وتساقط الثلج . كان الزقاق عارياً من الأشجار والأطفال فيه عراة مثله من الثياب يطؤون الثلج بأقدامهم الحافية . فكنا في الدكان نشعر بالسعادة والدفء أو الوهم بأننا في دفء لأن منظر التنور يوحي لنا بذلك أما الأشقياء الآخرون خارج الدكان فأمرهم إلى الله !

قلت له ما رأيك في هذا الشقاء ؟ قال أي شقاء ؟ قلت : هذه العجوز التي لا تجد ما تدفع به البرد عن عظامها المتهافتة . لا تجد بداً من الخروج لقضاء حاجة لها . قال : انها تتصور أن الدنيا خلقت هكذا : الفرنسي سعيد بطبعه . وهي شقية بطبعها . ثم هي مقتنعة بأن نصيبها من الدفء ستجده في الجنة . قلت : دعنا من الجنة والنار . اننا نتحدث عن الدنيا ومشاكلها . قال : انت مخطئ . هناك آية في القرآن تعرفها ولكنك لم تفكر فيها : ما معنى قوله : « من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » ؟ قلت : أعترف أنني كأني لم أسمع هذه الآية إلا الآن . قال : هل تعرف ماذا وقع للجنة عندما دخلناها أعني عندما سندخلها ؟ قلت : لا أعرف ذلك . وإن كنت أسمع عن شاعر عربي يقال له المعري تحدث عن الجنة . وشاعر آخر إيطالي يقال له دانتي . كلاهما تحدث عن هذا الموضوع . فهل تريد أن تكون ثالثهما ؟ قال : لا يهمني أن أكون ثالثهما أو رابعهم . المهم أنها رواية تصلح لك وتستحق أن أحدثك عنها :

جاء يوم القيامة وانتشر الناس من قبورهم كما تعلم . وانتصبت الشمس فوق الرؤوس تحرق الجباه وتخنق الأنفاس . والأرض ـ أو ما يشبهها ـ واقفة عن الدوران . والريح مشلولة الحركة . ونسيت المرضعة طفلها فعلاً . والأمم تتزاحم باحثة عن شيء . تريد أن تخرج ولكن إلى أين ؟ كانت هناك طريق ضيقة وحيدة قيل لهم أنها هي المؤدية إلى المخرج ولا مفر من الانتظار . فكانوا

يتزاحمون عليها في غير شفقة . ومرت بضع مئات من السنين . وفي آخر الطريق انتصبت الجنة على اليمين والنار على الشمال . وبدأت الأمم في الاستعراض . من عهد آدم . أمم تميل إلى الشمال وأخرى إلى اليمين . وكانت الحوريات فوق سور الجنة يتفرجون وينتظرون أزواجهم الذين وعدوا بهم (لا أستعمل نون النسوة عمداً) ، ومرت الأمم السالفة . ثم جاء دور الكفار : أعني الفرنسيين والانكليز والالمان والأمريكان وأمثالهم . كانوا مستقيمي الخطى نظيفي الثياب ممشوقي القامة ناصعي الوجوه رافعين جباههم إلى فوق ، ورآهم الحوريات من فوق سور الجنة ففرحوا وقالوا هؤلاء هم الذين وعدنا بهم الله تعالى . وإذا القوم يميلون إلى الشمال : إلى جهنم ! ولكن لم تحدث خيبة . لقد قال الحوريات : اذن من وعدنا بهم الله سيكونون أحسن من هؤلاء . ثم قامت « عجاجة » في الأفق (هكذا استعملها صاحبها) . وباقترابهم خرج من « العجاجة » نوع آخر من الناس : برانيس وعباءات تحثو التراب بأذيالها وتثير الغبار . ومن حولهم كلاب عجاف تنبح من الظمأ . ودواب هزيلة يدفعها أصحابها دفعاً إلى الأمام . كان هذا أعور والثاني أعرج والثالث قد اصفرت لحيته من الدخان لا يمشون صفاً صفاً بل جماعات جماعات . وأرجو أن تعرف الفرق . وكان الجو قد امتلأ ضجيجاً وغباراً . وفي مفترق الطرق عرجوا إلى اليمين : إلى الجنة . وهنا حدثت الخيبة . أعني عند الحوريات . وقرروا اضراباً عاماً . ولكن أمر الحوريات لا يهم . المهم هو أن أخواننا عندما دخلوا الجنة في تلك الحال ماذا صنعوا فيها ؟ كانت الجنة جنة : أزهار مرصوفة على جانبي الطريق . وورود تعبق برائحة منعشة . وجداول يترقرق فيها ماء نظيف كالزجاج ، وأشجار لا تمل خضرتها . وبناءات جديدة وديار محاطة بالحدائق ، وبداخلها غرف مؤثثة بأحسن الرياش وأغلى أنواع الحرير مناضد وكراسي مصقولة ومصابيح تتدلى من السقف يخطف لمعانها الأبصار .

كل هذا يا صاحبي دخل عليه اخوانك دخلة .. فكان « دواء ولحسه قط » (لا أعرف إذا كان هذا التعبير مستعملاً في كل مناطق بلادنا . ولكنه يعني شيئاً

عزيزاً تعب صاحبه في تحضيره كثيراً ثم جاء من لا يعرف قيمته فأتلفه بسهولة) .

أرجو من القارئ مرة أخرى أن يصدقني بأن القصة ليست من اختراعي . بل من اختراع صاحبي ، وهي معروفة عنه في قريتنا يتناقلها الناس ويتندرون بها . ولعل بعض القراء من قريتي عندما يقرؤون القصة هنا سيعرفون صاحبها بسرعة .

والرائع في تفكير صاحبي هذا انه قص علي القصة قبل الثورة ببضع سنوات . وجاءت الثورة وفرقت بيننا الأيام والأحداث ثم التقينا بعد الاستقلال . وخرج الفرنسيون من أملاكهم ودخلناها مكانهم وصار ما صار مما نعرفه كلنا ولا نكاد نتحدث إلا عنه حتى تجاوزت القصص نطاق الوقائع إلى نطاق النكت والنوادر . والتقيت بصاحبي وتحدثنا عن مشكلة الأملاك الشاغرة كغيرنا من الناس فقال : هل تذكر قصة الجنة ؟ قلت : نعم انني ذكرتها ورويتها لكثير من أصحابي . والآن فقط أعترف بأن قصتك لم تكن تتعلق بالجنة الموجودة في الآخرة . بل بأية جنة أخرى ! قال : نعم . ولن ندخل الجنة في الآخرة حتى نعرف قيمة الجنة هنا في هذه الدنيا . لا تنس : « من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » !

حضارة و شجرة

لا أدري لماذا أحب أن أقرأ تاريخ حضارتنا في المؤلفات الأجنبية أو على الأصح ما كتب منها باللغات الأجنبية . ولو ألفها مسلمون أو عرب . قد يكون السبب هو أن قراءتها في لغتنا قد تعودناها كثيراً فأصبح لا يثير فينا شعوراً جديداً . أما بلغة أجنبية فانه يخيل إليك .. لا أدري ماذا .

كان في يدي كتاب « لحيدر بامات » من مسلمي روسيا القدماء . اسم الكتاب إن شئت الترجمة الحرفية « وجوه الاسلام » وصاحبه يعني به طبعاً وجه الاسلام ، وأنا أفضل أن أترجمه بملامح الاسلام .

كانت الصفحة التي تحت نظري فيها ما يلي :

. يقول « أنا طول فرانس » : « ان ما يهم في التضحية هو التضحية نفسها . فاذا كان الشيء الذي نضحي من أجله وهما من الأوهام فان الاخلاص له حقيقة من الحقائق . وهذه الحقيقة هي أروع حلة يخلعها الإنسان على أخلاقه التعسة » .

كانت قوة رومة قائمة على وهم تقديس الدولة . وظلت رومة بسبب ذلك

سيدة العالم ما ظل الرومان لا يترددون في التضحية من أجل عظمتها . وعندما زال هذا الوهم أو هذه العقيدة أصبح أحفاد الرومان يشاهدون أمامهم رومة العظيمة تنهار وهم واقفون لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً .

ومن المغالطة أن نظن أن الجيش الاسلامي كان مؤلفاً فقط من أتقياء صالحين لا تخلبهم روائع الحضارة القائمة في الامبراطورية الرومانية والفارسية . إن هذا الزعم مناف لطبيعة البشر . ولكننا نستطيع أن نزعم بدون مبالغة أن مغريات الحياة لم تكن تلعب إلا دوراً ثانوياً في نفوس الأغلبية الساحقة من المحاربين في الجيوش الاسلامية . أما قوادهم فلم يكن يدفعهم إلا تيار واحد . هو تيار العقيدة .

ولكن الفرق بين قوة الإمبراطوريتين العظيمتين وقوة العرب العسكرية كانت لا تقبل القياس أو المقارنة . والعقيدة وحدها لم تكن كافية لسد هذه الهوة الهائلة في الفرق بين القوتين فضلاً عن التغلب عليهما معاً لو لم يعمد العرب إلى الاقتباس من الفرس والرومان أساليب جديدة في الحروب . وهو فن كانت القبائل العربية تجهله جهلاً تاماً في حين كان هذا الفن على مستوى رفيع جداً عند خصومهم في الشرق والغرب . وكان المعلمون الأولون للعرب في الفن الحربي جماعة من الفرس ومن البيزنطيين اعتنقوا الإسلام . وكانت القبائل العربية في حروبها أقرب إلى الغزوات منها إلى الفن الحربي لا يعرفون تنظيماً ولا انضباطاً أو طاعة . كان كل واحد منهم يحارب لصالحه . وبفضل هؤلاء المعلمين أصبحت تلك القبائل في ظرف سنوات قليلة جيشاً منظماً متعلماً قادراً قدرة عجيبة على استعمال كل الأسلحة المعروفة عند غيره من الأمم في عصره .

ولكن المهم في كل ذلك هو أن الجيش العربي وجد القواد الذين يلزمونه : قواداً من الطراز الأول من نوع خالد بن الوليد القائد العظيم تحت خلافة أبي بكر الصديق وغيره ممن خرجوا من رمال الصحراء وتمرسوا على الامتلاء بالحياة الخارقة للعادة ، وبشحنة مهولة من المواهب الإنسانية النادرة .

وذلك عندما ينبعث من هذه الشعوب رجال هنا وهناك يطبعون كل شيء

في مجرى الحوادث بطابع شخصيتهم القوية . كان هذا هو الأمر بالنسبة لعهد النهضة في إيطاليا والقرن الذهبي لفرنسا . وكان هذا هو الأمر بالنسبة للقرون الأولى للهجرة النبوية في جزيرة العرب ، تلك القرون التي خلقت صفوة من القادة والحكام وجماعة ممتازة من القواد الحربيين ومن العلماء والفنانين .

وعندما ننظر إلى كل هذه النواحي بعين الاعتبار تبدو لنا الفتوحات العربية أبعد ما تكون عن المعجزة . انها كانت فقط نتيجة طبيعية لقوة أحكم تنظيمها وكانت على رأسها قيادة عرفت كيف تسيرها وكان لها مثل أعلى يحرك طاقتها جميعاً ابتداء من القائد العام إلى آخر جندي : كلهم مستعدون للتضحية بحياتهم في نشوة وسرور .. وان التاريخ لمشحون بالحروب التي أدت إلى انتصارات عسكرية باهرة يرجع الفضل فيها إلى التفوق في العدد أو العدة ، ولكن من النادر أن تجد في التاريخ أن نظاماً من أنظمة الحكم دام واستقر وثبتت دعائمه بفضل القوة وحدها . ان العرب لم يكادوا يصطدمون مع القوات البيزنطية والفارسية حتى شعروا انهم وجدوا في هذه البلاد شعوباً مضطهدة بائسة تعاني من الظلم والقهر والاستعباد ما جعلها تتقبل كل فاتح بصدر رحب إذا كان سيضمن لها فقط أن تحيا تحت جناح السلم والطمأنينة .

ومن هنا أصبحت قاعدة السلوك عند القادة العرب معروفة واضحة . فأصبح أبو بكر وعمر حيثما حلت قواتهما انما تحل بوصفها محررة فاتحة . لأن هؤلاء القادة عرفوا كيف يسيطرون على نفوسهم ويضبطون شهواتهم أمام مغريات النصر والغنائم والنفوذ والحكم .. كانوا منذ عهد محمد متفقين على توصية الذاهبين إلى الفتح بهذه الوصية :

« عندما تحاربون جيشاً عدواً في أرضه لا تضطهدوا السكان الآمنين في ديارهم . وحافظوا على النساء والعجز وارحموا الأطفال الرضع والمرضى . لا تهدموا البيوت ولا تعبثوا بالمزارع والحقول ولا تقطعوا الأشجار والنخيل » .

وكان الفصل طويلاً وممتعاً . (لا أدري إذا كنت قد وفقت في ترجمة هذه

الفقرة منه كما وفق صاحبه في كتابته) ولكني أحسست بألم في عيني منعني من مواصلة القراءة فأغلقت الكتاب وسرحت طرفي في الغابة الممتدة تحت شرفتي فماذا رأيت ؟ لا أدري إذا كانت هذه الصدف تقع لكل الناس . رأيت رجلاً عجوزاً مغبر الثوب والوجه لا يبعد أن يكون من سكان الحي ولا أعرفه . كانت الشمس مائلة نحو الغروب والصراصير تصم الآذان بصراخها من فرحة الحر . والأرض شهباء عطشى . لا عشب فيها ولا حطام من عشب . وفي وسط الغابة ساحة حمراء عارية وبقايا من هياكل منازل ذهب عنها الفرنسيون قبل اتمامها فبدأت تتشقق وتتقادم وتهرم كما لو مرت عليها عشرات السنين . وفي وسط الساحة صراخ صراصير أخرى من أبناء الحي يتقاذفون الكرة بالأرجل والأيدي وبالشتائم أيضاً ولعن الأمهات والآباء والرب الكريم ! ثم أمعنت النظر في الرجل فوجدته معلقاً في أغصان شجرة زيتون قصيرة ، طرية الأغصان غثيثة الأوراق مشرقة الاخضرار ، غمرتها أشعة الشمس بفيض من الأضواء الدافقة فكان الرجل يدلي أغصانها المعشوشبة إلى الأرض حيث وقف إلى جانبه كبش تصاعد من رأسه قرنان غليظان كجذع شجرة ميتة وهو يقضم بفمه أوراق الزيتونة الصغيرة فترتعش أغصانها بين يدي الرجل وفم الكبش وتضطرب .

وكانت آخر كلمة في الفصل الذي كنت أقرؤه ما تزال عالقة بذهني : « لا تعبثوا بالمزارع والحقول ولا تقطعوا الأشجار والنخيل » . فقلت في نفسي : تلك أول حضارة وهذه نهايتها . ثم قفزت بي الذكرى لا أدري كيف إلى قصة كنت قرأتها عن المرحوم الشيخ محمد عبده منذ أكثر من عشر سنوات : كان يتمشى مع صديق له في حديقة الحيوان بالقاهرة . وفي منعطف من الأشجار سمع صوت امرأة تتحدث إلى ابنها الصغير بلغة أجنبية . فتوقف وراح ينصت إليها . ولم يشعر صاحبه بأنه توقف عن المسير . فانتظره قليلاً حتى لحق به . فسأله عن سبب توقفه فلم يجبه . وحدق في وجهه فوجد عينيه مغرورقة بالدموع . فجزع الرجل للمشهد وكرر السؤال فأجابه عبده : كنت أنصت إلى امرأة أجنبية تحدث ولدها خلف الأشجار ويظهر انه اقتطف زهرة من الحديقة . فسمعتها

تنهاه عن ذلك وتحدثه بمعان ـ والله يا اخي ـ لا تخطر ببال فطاحل العلماء منا » .

ثم قفزت بي الذكرى بسرعة أيضاً إلى مقال كنت قرأته منذ عدة سنوات لكاتب أمريكي نسيت اسمه ولكني احتفظت منه بهذه الجملة : ما من شيء حكم على حضارة العرب بالانقراض كعدم احترامهم للمرأة والشجرة !

عود إلى معركة المفاهيم

أشعر بمسؤولية كبيرة تدفعني إلى العودة إلى هذا الموضوع . لا لأقول فيه جديداً ، بل لأجدد قديماً أو أوضح غامضاً ، وهذا بمناسبة الرسالة الهامة التي نشرتها « المجاهد » في زاوية القراء حول هذا الموضوع . وتقتضيني قواعد اللياقة قبل كل شيء أن أشكر الأخ كاتب الرسالة على شكره وتقديره للموضوع وإن كنت أتمنى لو أنه أضاف إلى شكره شيئاً من الملاحظات والنقد لما يكون قد اعترى المقال من ضعف أو أخطاء أو زلل يتطلب توجيهاً أو تصحيحاً . لقد وجدت الأخ الكاتب بالعكس من ذلك قد وجه قوته النقدية إلى المجتمع وتجاوز النقد أحياناً إلى ما يشبه الشتم والانحراف حسبما أعتقد ، وهذه هي النقطة التي يمكن أن نختلف فيها .

* * *

كنت يوماً أتحدث مع صديق من صحفيينا الناشئين مليء بالحماس والجرأة والاندفاع والذكاء وشيء من حدة الأعصاب صفات يتحلى بها الكثير من شبابنا .

فقلت أنا أعتقد ان شعبنا في حاجة إلى أن نربيه لا لنعلمه كيف يشتم ويسب . ان هذه الناحية فيه بالغة أوجها من « الكمال » . يكفي أن تستمع إلى أطفالنا كيف يتخاطبون في الشوارع ان بلاغتهم تدعو إلى الاعجاب في هذا الفن ، بعبارة أخرى هناك فرق بين مفهوم التربية والتكوين ومفهوم الاثارة والاستفزاز . وهذا أيضاً يصلح أن نجد له مكانه في ميدان معركة المفاهيم . اننا على ما يظهر ما زلنا لا نفرق تماماً بين الحرية والمسؤولية . أو بالأحرى لا نتصور مدى ارتباط الحرية بالمسؤولية . نكثر من الحديث عن حرية المرأة . ولكننا لا نتحدث إلا قليلاً عن المسؤولية التي تنجر لها من هذه الحرية ، ونثير في المرأة غريزة حب المطالب ولكننا لا نحدثها عن جانب العطاء والدفع مقابل هذه المطالب . اعترف أن مشكلة الحرية والمسؤولية من أعوص القضايا الفلسفية في مادة الأخلاق وحتى في ميدان ما وراء الطبيعة . والنقطة الإيجابية المنطقية التي يمكن أن نخرج بها من هذه المعركة هي أن الإنسان لا يمكن أن يكون ذا مسؤولية ما لم يكن يشعر بأنه حر فيما يأتيه وما يدعه من أعمال . والعكس أيضاً صحيح أو هو أكثر وضوحاً : إذا كنت حراً في عمل من الأعمال فانك لا تستطيع أن تتنصل من مسؤولية أعمالك وتصرفاتك . والتربية الانكليزية الحديثة بالنسبة للأطفال أنفسهم تقوم على هذا الأساس : يتركون مجالاً كبيراً من الحرية في تصرفات الطفل وأفعاله وعندما يقع في أخطاء تتسبب له في أضرار ما ثم يفهمونه بأنه هو المسؤول عما حصل له من ضرر ويتركون الحوادث تعلمه وتكون فيه الشعور بالمسؤولية عما فعل ويفضلون ذلك على الدروس الكلامية والتوجيه النظري .

* * *

وحرية المرأة عندنا ماذا تفهم منها ؟ حرية الخروج والتزين وإضاعة الوقت عند الجارة وأمام واجهات الدكاكين . تفهم الحرية على انه من حقها أن تشتري ما يعجبها . ولكنها لا تربط هذه الحرية بأنه من واجبها أن تعمل وتوفر الدخل الذي

تشتري به ما تشاء .

هذا النقص ليس موجوداً عند نسائنا فحسب . هو أفدح منه عند شبابنا . يستنكف الشاب عندنا عن لبس ثياب متوسطة النوع متواضعة الثمن ويريد نعالاً من الطراز الأول ولكنه يتوجه إلى أبيه أو أخيه ليدفع الثمن لأنه ـ هو حضرة الشاب ـ عاطل لم يجد عملاً . وعندما تقترح عليه عملاً تجده في الحقيقة يرغب في وظيفة بدون عمل . أجرتها عالية ومجهوداتها لا تتجاوز رقة أنامله اللطيفة ورأسه الفارغ .

* *

هذا مرض عام : عند نسائنا وشبابنا . بل وحتى عند الكثير من المسؤولين في مختلف مجالات حياتنا الوطنية : الراحة الواسعة والنفقات الباهظة . أما العمل والانتاج فنتركه للآخرين من الأمم الأخرى : الفلاح الروسي يعمل ويكد ويدخل الأموال والأرزاق لدولته . ونأتي نحن فنمد أيدينا طالبين قرضاً بدون فائض وبدون شروط سياسية إلى آخر الأغنية ! والمعلم الفرنسي يسهر الليل ويتكون ثقافياً وأخلاقياً فيكون معلماً مثالياً وموظفاً كاملاً وخبيراً منتجاً . ونتقدم نحن لدولته أن ترسله إلينا لأن معلمنا ـ مسكين ـ ليست له هذه العبقرية . ونطلب منها أن ترسله بعنوان التعاون . التعاون المشترك في الميدان الثقافي . كما لو كانت تعيننا فرنسا ونحن أيضاً نعينها في هذا الميدان ! ! وهكذا ينتج الآخرون ونستهلك نحن . بعنوان ماذا ؟ بعنوان نفسية المطالب والاستهلاك وعدم الالتفات إلى الانتاج . نفسية الحرية السهلة بدون الالتفات إلى ما يترتب عنها من المسؤولية .

* *

إن المرض عام . وموضوع المرأة ليس إلا جزءاً من أعراضه . لذلك أعتقد اننا عندما نقصر الحديث عن المرأة . ثم عندما نأتي لموضوع المرأة نفسه فنتحدث عن جانب منه فقط : جانب العطاء واستهلاك الحرية ونغفل جانب الدفع

نكون في الواقع قد شوهنا الموضوع وقطعنا احدى رجليه. قال أخي الكاتب : «ان مجتمعنا لا يدخل رحاب التقدم إلا ماشياً على رجلين من حديد هما الرجل والمرأة » . وهذا صحيح . ولكني أحب ألا ننظر إلى الموضوع على أنه مشكلة الرجل والمرأة بل هو مشكلة « المواطن ». سواء كان رجلاً أو امرأة شاباً أو فتاة . هو مشكلة الحرية مع المسؤولية . المرأة يجب أن تكون حرة في تصرفها ولكن ينبغي أن تشعر بمسؤولية هذه الحرية، حرة في أن تسير في الشارع . ولكنها حرة في أن تسير إلى العمل لا إلى مجرد التفسح . حرة في أن تلهو ولا تقضي حياتها بائسة حزينة . ولكن الأرجل التي تتقن الرقص يجب أن تحمل رأساً متعلماً وصدراً مفعماً بالعواطف النبيلة . يجب أن تشتري امرأتنا الملابس الجميلة ـ لا الفاخرة ـ ولكن ينبغي أن تعرف كيف تأتي بالأموال التي تتزين بها عن طريق العمل والانتاج . يجب أن تشعر بأنها سعيدة في بلادها الحرة السعيدة . ولكنها الحرية المسؤولة عن مصير بيتها وأبنائها ووطنها .

* * *

كلا ! اننا لا نستطيع أن نفصل مفهوم الحرية عن مفهوم المسؤولية اللهم إلا إذا كنا نريد أن نعبث . والحرية تعني الانتاج قبل أن تعني الاستهلاك .

يحتقرون الكتاب

ضمني ـ هذه الأيام ـ مجلس في عائلة صديق ، تربطها بعالم الثقافة أسباب ، وكان في المجلس فتيات ونساء متزوجات وشباب إلى جانب رب العائلة الذي يحمل ثقافة متوسطة ، ولكنه يحمل لعالم الثقافة كل عواطف التقدير والمحبة . وبين الحاضرين شاب أنيق . أنيق جداً . هو أيضاً من أقارب العائلة ولكني لم أعرفه من قبل . كنت أسترق إليه النظر أكثر من غيره . كان فعلاً يحملك على النظر إليه دون غيره : كان شعره يلمع . كنت أتوهم انه سيلمع حتى في الظلام . كل شعرة فيه متساوقة مع الأخريات ما عدا خصلة عابثة أخذت حريتها وتدلت على جبينه موزعة هائمة . ولكنها تتموج هي أيضاً باللمعان . وكان وجهه مورداً يميل إلى حمرة داكنة . من أثر الشمس . لا شمس الحقول . بل شمس الشاطئ طبعاً . وضع ساقاً على ساق من فوقه يد رقيقة مبسوطة الأصابع . أصابع رقيقة طويلة مرفهة تنتهي إلى أظافر بيضاء طويلة حادة . وبين أصبعيه سيغارة تدخن وحدها . يتذكرها من حين لآخر ليرمي رمادها في صحفة ذهبية وضعت أمامه .

كان الحديث يدور في غير انتظام وبدون موضوع معين . وكان في يدي

كتاب من الحجم الصغير لا يرى من الخارج لأنه مغلف بسفر من الجلد . كنت جالساً بالقرب من رب العائلة . فمد يده وتناول مني الكتاب واطل على اسمه تحت السفر وقرأ ما كتب عليه بصوت مرتفع : « ما هو الأدب ؟ ـ جان بول سارتر » ، ثم سألني : هل هذا كتاب جديد للفيلسوف الفرنسي ؟ قلت : لا ! لقد كتبه منذ أكثر من عشر سنوات . ولكنه ما يزال صالحاً . قال ماذا يعالج فيه ؟ قلت : يجيب فيه على أسئلة من نوع : لماذا نكتب ؟ لمن نكتب . ما هو الأدب الملتزم والأدب الحر إلى آخره ؟ قال : وما رأيك فيه ؟ قلت : إنني لم أتم قراءته بعد . ولكنك تعرف أن سارتر كاتب ملتزم . ويعتبر أن الذين يكتبون ليرفهوا عن أنفسهم فقط جديرون بالاحتقار . قال : ألا يزعجك أن تقرأ لنا فقرة منه أو فقرتين ؟ قلت : أفضل أن يقرأ لنا هذا الشاب . إنه على ما يظهر منه لا بد أن يكون كلفا بالكتب الحديثة وبالكتاب الذين يحملون سمعة كبيرة مثل سارتر . فتحرج الشاب وزاد وجهه احمراراً ووضع رجله الأخرى على الأرض ونفض سيغارته عدة مرات متوالية في الصحفة الذهبية ثم قال بصوت فاتر : كلا مع الأسف انني لا أميل كثيراً إلى القراءة . وخاصة قراءة الكتب ..

وقبل أن يتم كلامه ـ أو لعله قد أتمه ـ نطقت سيدة في المجلس هي ربة البيت : دعونا من القراءة ومن الكتب واحكوا لنا نكتاً مضحكة نفرج بها على القلوب . قلت ولكن في الكتب أيضاً نجد النكت المرفهة عن القلوب . قالت : أنتم تضيعون وقتاً طويلاً في قراءة الكتب ولا أدري كيف لا تسأمون منها . ثم سألتني : كم تقرأ من ساعة في اليوم ؟ قلت : ليست لي ساعات محددة أقضيها في القراءة . ولكنني أعتبر أن الساعات التي أقضيها في القراءة من ألذ اللحظات في حياتي . قالت إذن تترك التليفزيون في بيتك ليلاً وتنزوي إلى مكتبك حيث تقرأ ؟ قلت قد يحدث ذلك . قالت : هذه هي إضاعة العمر حقاً !

ثم قال لي الشاب : وهل تعتبر ان هذا عملاً جباراً تقوم به ؟ قلت : قد لا يكون جباراً ولكنه نوع من العمل كغيره من الأعمال الأخرى وليس أفضل ولا أحقر ، ثم سألته : وأي عمل جبار تقوم به أنت يا أخي ؟ قال أنا ؟ قلت نعم .

أنت ما هو عملك الجبار ؟ قال : أنا ما زلت أبحث عن عمل يليق بي ؟ قلت ما معنى يليق بك ؟ قال : بمعنى يدر علي مكسباً أعيش به عيشة بعيدة عن البؤس ؟ قلت تقصد عملاً حراً أو وظيفة في الدولة ؟ قال : لا يهم . المهم هو أن لا أعمل إلا عملاً يليق بي (كررها مرة أخرى) .

هنا تكلم رب العائلة ووجه كلامه للشاب : إن العمل الذي يليق بك هو وظيفة من الدرجة الأولى . ولكنك لا تحمل الثقافة التي تؤهلك لهذه الوظيفة . انك لا تحمل حتى الشهادة الابتدائية . والعمل الذي يتناسب مع ثقافتك لا يتناسب مع طموحك أو بالأحرى أطماعك . إن طموحك أكبر من امكانياتك . قال الشاب في شيء من الغضب : أنا لم أطلب من أحد أن يتصدق علي بعمل ما . ولم أطلب من أحد أن يسعى لدى وزير من الوزراء أن يجد لي وظيفة عالية . انني أعرف كيف أنالها وحدي . ولست أقل مهارة من فلان وفلان وفلان . : كلهم بسياراتهم وفيلاتهم ولهم أشياء أخرى ايضاً لا يسمح المقام بذكرها هنا . وأنا على كل حال لن أعمل أي عمل كان . سأختار . أختار ما يليق بي وأعرف كيف أحصل عليه . ومص من سيغارته مصة عصبية ملأت صدره بالدخان ثم أطفأها ورفع بيده الأخرى خصلة الشعر المتدلية على جبينه . ثم قامت ربة البيت من كرسيها وتناولت طبقاً من الحلوى كان موضوعاً على المائدة وقدمته لي قائلة : ألم أقل لكم لا تتناقشوا في الجديات ودعونا نغتنم فرصة اجتماعكم في الاستماع إلى نكتك وسخريتك اللاذعة . قلت : عفواً يا سيدتي . أشعر أحياناً ان سخريتي تافهة ولا حق لي في الترفيه بها على نفسي أو على الناس . قالت : الله ! لماذا يا أخي ؟ قلت : إن السخرية أيضاً كنز يستخرج من الكتب . وقد تبين لي من قبل اليوم وتأكد لدي اليوم اننا نعيش في مجتمع يحتقر الكتاب ولا يحترم الثقافة ، وهذا شيء مخيف . تصوري ماذا يكون المستقبل . واختطف مني رب البيت الكلام وزاد مسترسلاً : إن التليفزيون الذي ينسيك أنت عشاء أولادك حتى يناموا بدون عشاء لا يتغذى إلا من الكتاب . فالفيلم الذي تتفرجين عليه والرواية التي تشبعك ضحكاً أو تغرورق لها عيناك بالدموع هي كلها كتب . ولو لم يتعب في سبيلها أصحابها

ولو لم يقرأوا الكتب لما استطاعوا أن يكتبوها أو يملؤوا بها ذهنك الصغير بكل أنواع التحف الثقافية . ولكنكم تستهلكونها ولا تعرفون كيف أنتجها أصحابها وماذا عانوا في سبيلها ؟ ألا تعرفين ـ يا غبية ـ ان الفيلم الذي تتفرجين عليه في ظرف ساعة ونصف الساعة قد عمل رجال من أجل كتابته واخراجه شهوراً طويلة إن لم تكن سنوات عديدة . قالت : هذا غير ممكن . ثم التفتت إلي : هل صحيح ما يقول ؟ قلت : نعم مع الأسف . قالت : لماذا مع الأسف ؟ قلت لأنني لم أستطع هذه المرة أن أنصرك على زوجك كالعادة . قالت : انك اليوم تتكلم بمرارة ، قلت : صحيح إن المرارة هذه المرة غلبتني ولم أستطع أن أحولها إلى سخرية . وكل ما أطلبه منك هو أن تحاولي ما استطعت أن تحببي الكتاب إلى أبنائك ولا تتركي أباهم المسكين يفعل ذلك وحده . ان الأم تؤثر على أبنائها أكثر من الأب ومسؤوليتك كبيرة إذا أنجبت رجالاً ونساء يحتقرون الكتاب والثقافة ويطمحون مع ذلك إلى عمل يليق بهم .

فلسفة البساطة

كنا صديقين منذ عهد الدراسة الثانوية . ثم مال هو إلى الطب ورحت أبحث ـ كما يقول أبو نواس ـ عن خمارة الأدب والفلسفة . ولكن صداقتنا لم تختل . التقينا بعد عدة سنوات . وألح على العشاء ، كان يسكن فيلا على شاطئ البحر . وكانت السهرة ممتعة استرجعنا فيها ذكريات الدراسة وعبثها وسعادتها . ولا نسمع من حولنا إلا حفيفاً خفيفاً في أوراق الشجر ، وتلاطماً متراخياً لأمواج ناعسة تحت جو غائم توارت تحت سجفه الشفافة أشعة باهتة لقمر صبي .

لم تأكل السنون من صديقي شيئاً يذكر . وكان العشاء شكلياً أكثر منه حقيقياً . فهو لا يأكل إلا مرة في اليوم وأنا لا أستطيع أن أتناول إلا نصف عشاء . لقد اقترب كلانا من الكهولة وأصبح يقتصد في صحته بقدر ما أسرف في فتوته .

كان قصير القامة ممتلئها ، كروي الرأس جميل التقاطيع يحمل نظارات مغيمة زادته وقاراً وهيبة . هذا كل ما تغير فيه . في حين احتفظ بهدوء لهجته في الحديث وبخفوت الصوت وعمق النبرة وتثاقل الإشارة . ولكن ما بهرني منه

تشبعه بالحكمة . فتساءلت مع نفسي : ترى هل أخطأ مرماه عندما اختار الطب ؟ أم أن الطب قد انتهى به إلى الإيمان بالحكمة ؟

ثم طرحت عليه السؤال . فأجابني على الفور : لا هذا وذاك . ان ما استفدته في دراستي بأوروبا قد ملأ نفسي من الناحية الأخلاقية أكثر مما ملأ ذهني بالقواعد العلمية . استفدنا من أساتذتنا ـ بدون شك طريقة البحث والاستدلال وصحة التفكير . ولكنا استفدنا منهم ـ أكثر من ذلك ـ التواضع . لا أقصد التواضع العامي : حسن الأدب والمبادرة بالسلام . بل التواضع العلمي المنبثق من النفس المطمئنة إلى قيمتها ومن التفكير الواثق من نفسه والعلم الضارب بجذوره في الأعماق . يستعصي عليهم التوصل إلى معرفة مرض من الأمراض فلا يترددون في الاعتراف أمامنا ـ نحن طلابهم ـ بالعجز . بل لا يترددون في أن يطلبوا منا آراءنا في الموضوع . وعندما يخيل إلينا اننا اهتدينا إلى حل يشجعوننا على المضي في البحث والتأكد من صحة الرأي . وكثيراً ما تسمع الواحد منهم يقول لك : « قد » يكون هذا هو الرأي . وكثيراً ما يقول لك عن رأيه ثم يستفهمك : وأنت ماذا ترى ؟ أو يقول : إن هذه الحالة لم يسبق لي أن رأيتها فأي شيء نستطيع عمله لانقاذ المريض ؟

فسألته : إذن كل آرائكم معشر الأطباء عن أمراضنا هي تكهن قد يكون صحيحا وقد يكون خطأ ؟ فأجاب : ذلك هو الموقف في أغلب الأحيان وإن كنا لا نتظاهر به أمام المريض لأسباب قد تتعلق بمعنويات المريض وقد تتعلق بماديات الطبيب فقلت : انكم أحياناً تثقلوننا بقائمة من الأدوية طويلة ، وكثيراً ما داخلني الشك في صحة هذه الطريقة من العلاج . فقال : إن شكك في محله . إن كثرة الأدوية كثيراً ما نعطيها للمريض لأننا لا نعرف ماذا يلزمه بالضبط من دواء ، فنطيل القائمة لعل فيها ما يصادف الداء . قلت وبقية الأدوية ما فائدتها ؟ قال لا فائدة على الاطلاق . بل كلها يكون سبباً لعلل أخرى أو انهاكاً لخلايا الجسم في غير محله . وزاد مسترسلاً : في الطب كما في كل شيء : ليس أحسن من البساطة وليس أشأم من التعقيد . وكثرة الأدوية تعقد حياة الجسم وتدخل الاضطراب على خلاياه .

ومثلما درستم في الفلسفة أن دعامة الحكمة هي البساطة . ومثلما تعلمتم في علم الجمال أن الراقصة البارعة هي التي يبدو عليها انها لا تبذل أي جهد في رشاقة الحركة وبساطة الاداء . ومثلما تذكر ما كنا نعجب به من وصف ابن الرومي للمغنية وحيد وهي :

تتغنى كـــأنهـــــــا لا تغني   من سكون الأوصـال وهي تجيد

مثلما تعرف كل ذلك في الحياة المرئية بالعين المجردة في المجالات الاجتماعية ـ كذلك الأمر بالضبط في حياة الخلايا التي لا ترى في الجسم إلا بالمكبر . ثم تنهد وقال : البساطة يا أخي . لو عرفنا فلسفة البساطة وعشنا ببساطة ! البساطة هي الصحة في الجسم . وهي الجمال في الحياة .

فقلت ولكن الجسم يأبى أن يقنع بالبساطة في العيش . والبشر كلهم أشقياء لأنهم جهلوا البساطة أو احتقروها . اننا ما نفتأ نبحث عن السعادة فلا ننتهي إلا إلى تعقيد الحياة فنشقى . ألا تذكر قول سقراط : « انه ما دمنا في أجسادنا وما دامت الروح ممتزجة بهذه الكتلة من الشر فلن تبلغ شهوتنا حد الرضى . لأن الجسد مصدر لعناء متصل . علته هذه الحاجة إلى الطعام . وهو لا يدع لنا السبيل إلى تحصيل فكرة بسيطة عن الحياة والحقيقة (أو كما قال) لما يملأنا به من صنوف الحب والشهوات والمخاوف والأوهام والأهواء وكل ضرب من ضروب الجهالة . والا فمن أين تأتي الحروب والمعارك والأحزان إن لم تكن آتية من الجسد ومن شهوات الجسد ..فالحروب يثيرها حب المال والمال إنما يجمع من أجل الجسد وخدمته » .

قال الطبيب : هل قال سقراط كل هذا ؟ قلت : هذا من الفقرات القليلة التي ما زلت أحفظها فهل ما تزال صالحة لعصرنا ؟ فقال : إن علوم عصرنا لم تزد هذه الحكمة إلا تأكيداً . وينبغي أن أعود من حين لآخر إلى دراسة الفلسفة حتى أفهم كثيراً من الأمور . إن كثيراً من الميادين لم نكتشف فيها جديداً يذكر .

بل هذه العلوم أقنعتنا بالتجربة أننا كلما ابتعدنا عن البساطة ازددنا إيغالا في الشقاء. ذلك أنه ليس أمراً بسيطاً أن نحقق حياة بسيطة . ان الحياة ـ أو كما قال سقراط إن شهواتنا تدفعنا دوماً إلى تعقيد الحياة . وأنه لا مناص لنا من أن نقاوم هذا الدفع . انها معركة حقيقية بيننا وبين أنفسنا وبيننا وبين الحياة . وأعتقد أن من استسلم منا لحياة التعقيد في هذه الحياة فهو المهزوم .

فقلت : ولكن هل من السهل أن نوضح حدوداً بين التعقيد وبين البساطة ؟

فقال : كلا مع الأسف ، وتلك هي المشكلة !

الجوع

كان الحر شديداً . والجو مثقلاً . وغبار المدينة اختلط بغيوم السماء . فأصبحت مؤامرة حقيقية على ذوي الأعصاب الحساسة . عجزت عن العودة إلى بيتي وفضلت أن أتناول ظعام الغداء في أي مطعم يصادفني . كان علي أن أعود لمواصلة العمل بعد الغداء مباشرة .

لا أدري إذا كان اعجابي بالجو الذي وجدته في المطعم والارتياح الذي اصبته راجعاً إلى ما كابدته من الشارع أم إلى أن الجو في المطعم مريح حقاً . كانت المناضد مصطفة عليها غطاءات بيضاء تلمع من فوقها الكؤوس الفارغة وقد حشيت فيها المناديل البيضاء برشاقة وانسجام . وعلى رأس كل صف من صفوف المناضد وقف شاب نصفه الأعلى أبيض ونصفه الأسفل أسود يبتسم لكل من يقصد صفه ويمد يده في الاتجاه الذي يقصده الزبون كأنه يقول له : اختر أي مائدة تشاء . وهناك مستقبلة أخرى ترحب بك باغراء لا يخلو من خطر : هي الرائحة المنبعثة من المطبخ . فحكمت على نفسي بالتشدد في الحكم على الآخرين . كنت أعتقد أننا في الجزائر سيكون من الصعب علينا أن نتقن هذه « الأشياء » اللطيفة : الابتسامة

في الاستقبال وتنسيق المناضد والكؤوس ، والنظافة ، ووضع باقة من الزهور في هذا الركن أو ذاك من القاعة بطريقة فيها ذوق ورقة .

جلست إلى مائدة وحدي . فواجهني في مائدة مقابلة رجل خيل إلي أنه أجنبي . كان طويل القامة عالي الصدر واسع الجبين رمادي الشعر عريض المنكبين غائر البطن قوي الذراعين أنيق اللباس جميل الوجه دقيق الأنف .

لم يقف عنده عامل المطعم طويلاً . وبعد قليل اتاه بصحن اصطفت فيه أضلع خروف إلى جانبها ورقات من السلاطة وقارورة من الماء المعدني وطبق من الخبز . أخذ الشوكة والموسى وراح يفصل الشحم الأبيض فيتركه جانباً ويتناول اللحم خالصاً . ومن حين لآخر يتناول ورقة من السلاطة . أو يشرب نصف كأس من الماء المعدني . لم يمد يده إلى طبق الخبز مرة واحدة . ثم أتاه عامل المطعم بصحن من العنب فأصاب منه أكثره . ثم تناول جاكيتته من ظهر المقعد وانصرف يدفع الثمن .

هذا الرجل كان يغذي جسمه ولا يملأ بطنه . والفرق كبير . لاحظ اننا ـ في مجموعنا ـ لا نبحث ولا نفكر في نوعية المواد التي تغذي بقدر ما نبحث عما يثقل البطن ويشعرنا بأن المعدة قد امتلأت . لقد أصبح مفهوم الشبع عندنا مسألة وزن .. هذا عند المتطورين منا والموسرين . أو بصفة عامة من لا تشكل لهم مسألة الغذاء مشكلة مصاريف . أما الفقراء منا فمشكلتهم من نوع آخر : انها من قبيل الحوار الذي وقع بين تشرشل والفيلسوف الانكليزي الشهير برنارد شو : كان الأول ممتلئاً كما هو معروف . والفيلسوف نحيفاً . التقيا في حفلة فقال رئيس حزب المحافظين للفيلسوف التقدمي : مالك نحيف هكذا ؟ ان من يراك يظن أن الشعب البريطاني يعاني مجاعة . فأجابه الفيلسوف : نعم . ومن يراك أنت يدرك سبب المجاعة ! والتناقض عندنا هو أن الموسرين يملؤون بطناً في جسم لا يتحرك . أو لا يبذل جهداً عضلياً بقدر ما استنفده من أكل . ومن يبذلون هذا المجهود العضلي لا يملكون ما يعوضون به ما استفرغه جسمهم من جهد جسدي . إن الفئات الموسرة عندنا ـ بما فيهم عامة المثقفين ـ يأكلون أكثر من زملائهم في أوروبا . أما الطبقة

الجاهدة عندنا فلا تصل ربع ما تتغذى به زميلتها في أوروبا .

ومع ذلك .. أو من أجل ذلك تجد المرض المنتشر في الطبقات الموسرة عندنا هي المتعلقة بالجهاز الهضمي . لأننا نملأ ولا نغذي . انه مرض عرفه العرب منذ العصر العباسي وكانوا يجهلونه قبل ذلك . انتشر بينهم عندما انتقلت إليهم أطعمة الفرس وخيرات العالم . فأخذت طبقة الحكام وحواشيهم تأكل ولا تعمل والآخرون يعملون ولا يأكلون إلا قليلاً . وبقيت عادة .. وإنها ما تزال . ولكن الطبيعة عادلة . إن هؤلاء الناس لا يعرفون نعمة الجوع ولذة الشاهية . وكما قال فيلسوف آخر : ليس المسكين من يدخل بيته بشاهية كبيرة فلا يجد بماذا يسدها . انما المسكين من يجد مائدة ملأى ولا يملك الشاهية ليزدردها . لأن الأجسام عند أولئك تدفع ولا تأخذ . وعند هؤلاء تخزن ولا تبذل . هي معركة توازن أخرى . لا نقول للذين أنعم الله عليهم أن لا يأكلوا . بل نقول فقط اعملوا . وإذا كان عملكم ذهنياً فلا تحرموا أجسادكم من العمل العضلي . وإذا حرمتم من نعمة العمل الجسدي فغذوا أجسادكم ولا تملؤوا البطن . قال المثل العربي : ما ملأ امرؤ وعاء شراً من بطنه . وقال المثل الفرنسي : اننا نحفر قبورنا بأسناننا .

وعند ابن خلدون فصل في المقدمة لم أقرأ أروع منه في الموضوع : يرى أن المجاعة تكتسح مختلف المناطق الغنية والفقيرة ولكنها تخلف من الأموات في المناطق الغنية أضعاف ما تخلفه في المناطق الفقيرة . لأن أمعاء السكان في المناطق الفقيرة متعودة على الجوع فلا تضرها المجاعة . وهي عند سكان المناطق الغنية متعودة على الملأ فيهلكها الفراغ العارضْ .

ثم يختم الفصل بقوله : ان ما قتل هؤلاء هو الشبع السابق وليس الجوع العارض .

بالضبط كما يقع ـ في ميدان آخر ـ لبعض من غلطت فيهم الأحداث فكانوا في يوم من الأيام وزراء أو نواباً أو حكاماً كباراً ثم دارت الأيام فلم يعودوا يستطيعون أن يعيشوا كبقية الناس : مواطنين وكفى . لقد قضى عليهم الشبع بالنفوذ والكرسي السابق ولم تقض عليهم المواطنة اللاحقة . قاعدة ابن خلدون معنوية

اجتماعية بقدر ما هي جسمية فردية .

مرت بي كل هذه الخواطر وأنا في المطعم أفكر في ذلك الذي تغذى جيداً ولم يأكل إلا قليلاً . ولكنه أعطاني درساً كبيراً . كهذه المئات من الدروس التي نلقاها في حياتنا كل يوم ولا ننتبه لقيمتها !

الخوف

ـ اسمع : اما أن نذهب إلى الصاروخ أو إلى المئذنة .

قالها وقد بلغ به الانفعال أشده . وكانت المناقشة قد طالت وحاول أثناءها أن لا ينفعل .

ـ وأنت حاول أن تفهمني : إنني لست محافظاً بالقدر الذي تتصور . قد يهمني أكثر منك أن نذهب إلى الصاروخ ولو لم نذهب إلى الصومعة . لكن مشكلتنا هي أننا لم نذهب لا إلى الصومعة ولا إلى الصاروخ . وإذا كنت تأسف لكون مدن العالم العربي مزروعة بالمآذن أكثر مما هي مزروعة بمداخن المصانع . فانك هنا أيضاً على خطأ . المآذن بناها الأموات أولاً . وقد توقفنا عن بنائها منذ أن توقفنا عن البناء جملة . ونحن اليوم كما توقفنا عن ملء المساجد بالمصلين توقفنا عن ملء المصانع بالعمال والآلات . إن الأماكن الوحيدة التي نملؤها في الوقت الحاضر هي المقاهي .

ـ وأنت يا سيدي لا تظن أنني أتهم الاسلام بالتأخر . بل أتهم المسلمين . قال : « شكيب أرسلان » منذ نحو نصف القرن إن الإسلام شيء والمسلمين شيء آخر . وأنا أضيف إلى ذلك تماماً كما هو الأمر في ميدان اللغة إن اللغة العربية شيء والعرب شيء آخر . والتأخر الذي نعانيه اليوم في ميدان اللغة سببه قلة جرأتنا

وضيق مخيلتنا في إيجاد الحلول الجذرية وليس العيب راجعاً إلى اللغة العربية وعدم قابليتها لأن تتطور .

— لندع الآن مشكلة اللغة جانباً . إن الموضوع الحضاري وحده أكثر تشعباً من أن يسمح لنا بالتطرق إلى موضوع آخر .

— أوافقك على أن نترك موضوع اللغة جانباً . ولكن لا تظن أن اللغة منفصلة عن الحضارة : إذا كان الدين لحمة الحضارة فإن اللغة هي سداها .

— طيب لنبدأ من البداية : أنت تعرف أن النزهاء من أبناء الدول القوية يعترفون اليوم بأن تاريخ الشعوب المهزومة أمثالنا لم يكتب بعد : وان اتهامات المؤرخين في القرن التاسع عشر لحضارتنا كان سببها الجهل والتعصب والاحكام المبتسرة . وأعتقد أنك لا تنكر اليوم اننا ما زلنا متأثرين بشيء من تلك الأحكام وليس ذلك عن سوء نية منا نحو أجدادنا بل عن حماس وطني لا شك فيه وعن مقارنة مستمرة تعيش في شعورنا وفي اللاشعور أيضاً بين حياتنا المتأخرة وحياة الشعوب المتمدنة : بين أدبنا وأدبهم . ولغتنا ولغتهم . بين طقوسهم الدينية التي هذبوها وطقوسنا التي جمدناها . بين آلات الحرث عندهم وعندنا . بين وسائل التجميل عند نسائهم ونسائنا . بين غذائهم المبني على دراسة علمية وغذائنا المتخثر برواسب القرون والعادات التي أخذناها مسلمة . بين طرائق التعليم التي أخذوها عن أكاديميات اليونان وما يتبعها من امتحانات دورية ومجالس بحوث منظمة وطرائقه عندنا بما فيها من إهمال واعتباط وفردية : فلان أخذ عن فلان وهذا كاف لكي يكسب منزلة علمية يحسد عليها .

كل هذه المقارنات تعيش معنا وتسير خطانا وتطبع أحكامنا على أنفسنا وتعمل عملها حتى في أحلام « المبتلين » منا بالتفكير في مشاكلنا . ولا نتفطن إلى أن هذه المقارنة في غير محلها . وانها لا تكون صحيحة إلا إذا أقمناها عندما وقف الزمن بيننا وبين أوربا في منتصف الطريق : في القرن الرابع عشر . عندما انتهينا نحن إلى منطقة التجمد التي أخذوها هم نقطة انطلاق . أما أن نقارن بين مجتمعنا اليوم —

وهذا ما يزال على حاله التي وقف عندها في القرن الرابع عشر وبين المجتمع الأوروبي الذي يجر وراءه ستة قرون من التقدم ـ فأعتقد أن المقارنة لا تصدر عن عقل علمي ولا تخدم حتى الحماس الذي نريد أن نثيره في أنفسنا بهذه المقارنة وأنت تعرف أيضاً أن هذه المقارنة ، تعممت عندنا وأصبح يستعملها ويعيش بها حتى البسطاء من الناس فلا نسمع إلا : « نحن العرب » آواه . لن تقوم لنا قائمة . لقد خلقنا مهدمين ولم نخلق لنبني ان الكثير من هؤلاء البسطاء يعتقدون أن هذه الفروق ليست مسألة تطور وزمن بل مسألة جنس وطبيعة .

ــ أنا أخشى أن يكون هذا التحليل الطويل منك مبعثه الخوف ، الخوف على مجتمعنا من أن تنحل رابطته بماضيه . في حين أن ما يدفعني أنا هو الرغبة في أن نحكم العقدة بيننا وبين المستقبل . أنك تعرف ـ يا صاحبي ـ أن البشر لا يستطيعون أن يبنوا إلا إذا هدموا . والمقارنة التي تحدثت عنها ليست مقارنة وحسب : بل هي مصادمة : مصادمة ماضينا الجامد يتصارع في شوارعنا وبيوتنا ومدارسنا وحقولنا مع الحاضر الأوربي المتحرك ، وكان ينبغي أن تولد هذه المصادمة فينا قوة محركة نندفع بها في وعي وثقة دون أسف على الماضي أو التفات إليه ، انكم ـ على ما يبدو لي ـ لا تتصورون مبلغ الضرر الذي تصيبوننا به من جراء هذا التحفظ والخوف . والخوف هو ألد أعدائنا . عندما كان الإنسان الأول يخاف الطبيعة والبحار والأجواء والسباع والجراثيم كان لا يعرف إلا الفرار منها . وعندما امتلك الجرأة وتشجع على مهاجمتها عرف شيئين : قوته الهائلة ، وأسرار الطبيعة التي لا تنقضي ولا تحصى . ونحن اليوم نرى الحاضر الأوربي الهاجم في هذه المصادمة يأخذ بتلابيب ماضينا الساكن المضعضع فلا نملك أمام المصادمة إلا النظرة الدامعة ، وانني سأبقى متشائماً ما لم نكتشف قوتنا ونعرف أسباب الحضارة العصرية فنهجم عليها في غير تهيب ولا خوف .

ــ ألا تظن أن المشكلة دقيقة وأنها تتطلب دراسة أعمق وتثبتاً يقينا شرور الهزات العنيفة لأن أجسامنا هزيلة ولا تتحمل الانتقال فجأة من السفر على ظهر البعير إلى امتطاء الصاروخ كما تقول .

رجل منظم

عرفته منذ سنين طويلة .. واستحكمت بيننا أسباب الصداقة ولم يعد للكلفة بيننا مجال أو مبرر . وأصبح كل منا لا يتحرج في شيء من أن يفاتح الآخر بما يراه فيه من عيب أو نقص أو خطأ . كما لا يتردد في تهنئته على ما يأتي به من عمل موفق أو موقف مشرف . وكم نعاني في حياتنا من نقص وكم تكدس في أعمارنا من خطأ يتخلله مع ذلك بعض التوفيق أو المواقف التي لا نحمر لها خجلاً .

هو اليوم مدير مؤسسة ثقافية يحاول أن يجعل منها نموذجاً لما نحلم به ولا يبعد أن يبلغ ذلك في وقت قصير .

كلما زرته في مكتبه وجدته يعمل . لا يتوقف إلا يوماً في الأسبوع فقد نظم عمله بين العمل المدرسي والعمل الثقافي . أو ان شئت بين ما يهم سير المؤسسة وما يتعلق بتكوينه هو الثقافي . ومن أبرز ما أغبطه عليه عقله المنظم . سألته مرة من أين اكتسب فن البراعة في التنظيم ؟ فقال : أعتقد أنه من الكشافة . وبعد ذلك من العمل في الحركة الوطنية عندما كانت قبل الثورة لا تملك من الوسائل المادية شيئاً . فكنا نلتجئ للتنظيم والاقتصاد نعوض بهما الوسائل الأخرى . أما اليوم فقد أصبحنا في غير حاجة إلى التنظيم والاقتصاد في النفقة لأن الدولة بأيدينا !

قلت : قد يكون نصيب كبير من المسؤولية في ذلك على أمثالك فقال : وما دخل أمثالي ؟ إن التبذير في الدول التي استقلت حديثاً كاد يصبح قانوناً اجتماعياً لم تتخلف عنه دولة منها .

قلت : هذا صحيح . ولكنه لا ينفي مسؤليتكم في الموضوع أنتم أصحاب المواهب في التنظيم .

قال : ولماذا تسميها مواهب فاني شرحت لك المسألة .

قلت : من الجائز انني أميل إلى اعتبارها موهبة حتى أسلي نفسي ـ أنا الذي حرمت هذه الموهبة أو هذا العلم .

قال : وهل تظن إذن أن الأوروبيين يتمتعون كلهم بما تسميه موهبة التنظيم ولم يتعلموه ولم يلزموا به أنفسهم ولم يتحملوا ما فيه من مشقة ؟

قلت : لا أدري ، ولكني أميل أيضاً إلى تفسير نفسية النفرة من التنظيم عندنا بأنها طبيعة فينا اكتسبناها من حياة البداوة ومن الابل والغنم : تأبى القيد ويصيبها منه الهزال .

قال : هذا في نظري تفسير ميتافيزيكي . ولا يخلو من خطر انه دعوة للاستسلام إلى ما تسميه طبيعتنا فلا نحاول تغييرها . وما هو بطبيعة فينا ولكنه عدم تكوين وظروف السهولة ساعدتنا على الميل إليه . أنت تعرف أنه قد مرت بنا ظروف في الثورة وقبل الثورة لم تكن لنا فيها هذه « الطبيعة » . كنا ننظم ونقتصد . والتنظيم اقتصاد : اقتصاد في الوقت وفي المال وفي مجهود الأعصاب . نعم كنا مضطرين لذلك . أما اليوم فاننا نتوهم أننا لم نعد مضطرين للاقتصاد . لأننا لا نشعر بأننا في معركة . أو لأن معركة الأمس كانت معركة مادية يراها كل أحد في الشارع وفي الجبل وفي بيته وفي السجن وفي المنفى . أما معركة اليوم فهي عقلية نفسية معنوية لا يشعر بها إلا بعض الموظفين الذين يعملون بالأرقام في الوزارات أو الإدارات ذات العلاقة بمصاريف الدولة والنفقات العامة .

كان يتكلم كعادته بهدوء . يتخير الكلمات ويتمحص الأفكار ولا يشير بيديه إلا نادراً . فهو ما يزال يذكر نصيحة قدمها له أحد أصدقائه النقابيين من الأجانب منذ أيام الثورة : كان عليه أن يتقابل يوماً مع شخصية أجنبية في مهمة تتعلق بشؤون الثورة . فقال له أصدقاؤه وهم ذاهبون للموعد اسمع أيها الصديق : إنكم معشر العرب والأفارقة وسكان حوض البحر الأبيض المتوسط عامة تتحدثون بأيديكم أكثر مما تتحدثون بألسنتكم . أو على الأقل أنتم مشهورون عندنا بذلك وهو عيب ، لأنه عندنا علامة على أنكم ما زلتم بدائيين وما زلتم في حاجة إلى الاستعمار . إذن تكلم بهدوء وحافظ على اتزان أعصابك ولا تتحمس أبداً . واذكر بالخصوص ـ وهذا ما نؤكده عليك أكثر من كل شيء آخر ـ عندما تتعرض لمسائل تثير الحماس أو الغضب أو أي انفعال آخر حاول أن تتظاهر بعدم المبالاة وبأنك تقول حقائق لا علاقة لها بعواطفك . انك بهذه الطريقة تؤثر على محدثك أكثر مما تؤثر عليه بأعصابك الهائجة ..

عود صاحبنا نفسه على هذا السلوك بل بالغ فيه حتى يكاد يذكرك أحياناً بقاضي البصرة والذباب في قصة الجاحظ : فهو يتكلم ويفرك يديه بدلاً من أن يشير بهما يميناً وشمالاً ، ولا يرفع حاجبيه أو يحدق فيك منتظراً إعجابك أو تعجبك مما يقول . وكل حياته خاضعة لهذا الضبط والتنظيم والتماسك .

قال : لنعد إلى الموضوع:ما هو ذنبي أنا ومسؤولية أمثالي فيما نحن فيه من حالة التبذير والفوضى ؟

قلت : لأنكم كلما طلب منكم أن تتحملوا مسؤولية عالية في الدولة تراجعتم إلى الوراء بدعوى عدم أهليتكم لهذا المنصب وتركتم بذلك المجال فارغاً للمغامرين المبذرين الذين لا يفرقون كثيراً بين أملاكهم الخاصة وأملاك الدولة التي يتصرفون فيها . فقال : وهل تظن أننا لو قبلنا بهذا المنصب لكنا قضينا على مشكلة الفوضى والتبذير ؟ إنك هنا أيضاً واهم ، انها قضية مجتمع كامل وليست ، قضية أفراد أو بعض المسؤولين . وهذا المجتمع ينبغي أن نكونه من الأساس ونبعث أجيالاً جديدة تتعلم النظام والاقتصاد منذ الصغر وهذا ما نفعله ونحن مجرد معلمين

ولا نستطيع فعله ونحن مسؤولون كبار .

قلت :هذا لا أوافق عليه . إن الحقيقة هي أنكم سئمتم من المسؤوليات وأصبحتم تميلون إلى الهادئ من العمل وتفرون من المسؤوليات ولو إلى العمل المتعب .

قال : لا . لا تتعجل انه من أضخم المسؤوليات أمام ضميرك أن تكون ناشئة جديدة على نحو معين وتجذبها إلى اتجاه خاص.والمجتمع الجاهل المريض يجذبها إلى اتجــاه آخر . إنهــا معركــة حقيقية يا صاحبي ، ومأساة أيضاً . ولقد عرفنا الكثير من مسئوليات الهدم في أيام الاستعمار ولكن شعرنا لم يشب فيها كما شاب في هذه المهمات التي نقوم بها اليوم في البناء ولا يعلمها أحد إلا أصحابها . وثق أنه لولا اقتناعي بأن العلاج ينبغي أن يبدأ من هنا لما امتهنت هذه المهنة المتعبة . ثم ، من هنا تبدأ الاشتراكية إذا كنا مخلصين لها : قال كونفوشيوس فيلسوف الصين الأكبر : « تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته . والتعليم إذا انتشر هو السبيل إلى القضاء على الفروق بين الطبقات » وقال ـ سويفت ـ ناقد المجتمع الانكليزي الأعظم : « كل من يستطيع أن ينتج سنبلتين من القمح في مكان كانت تنمو فيه سنبلة واحدة يستحق من الانسانية جزاء أكبر من الذي تستحقه كل طغمة السياسيين ويؤدي لبلاده خدمة أجل من خدماتهم لها مجتمعين » . ونحن يا أخي نحاول أن ننبت هذه السنابل البشرية كل عام أوفر وأحسن دون أن يعرف أحد .

ما بعد الهدف

بعث إلي أحد الأصدقاء بهذه النكتة أو القصة الجدية . وأشكره سلفاً « ... بما أنك تهتم بشؤوننا العقلية وطريقة نظرتنا إلى الحياة وتبحث عن أسسها الفلسفية واتصالها بتفكيرنا ونظرتنا إلى الوجود ومشاكله ـ فقد رأيت أن أبعث إليك بهذه القصة : عندما كنت طالباً في القاهرة قبل الثورة ، زارنا المرحوم الشيخ العربي التبسي فجمع الطلاب الجزائريين وألقى فيهم حديثاً عن شؤون الجزائر ومستقبلها وماضيها . ومما جاء في حديثه عن تاريخنا قوله : « إن حرب الاحتلال الفرنسي للجزائر أحرز فيها كل من الجزائريين والفرنسيين على الهدف الذي يرمي إليه . » فتوقفت أنفاسنا ننتظر كيف أحرزنا نحن على هدفنا ؟ هل كان هدفنا أو هدف أجدادنا من تلك الحرب التي دامت عشرات السنين هو أن نعطي أرضنا للفرنسيين ونسلمهم رقابنا يتحكمون فيها ؟ ولكن الشيخ الاستاذ استمر يقول : « لقد كان هدف الفرنسيين هو أن يستولوا على بلادنا ويعيرونا شعبنا يعمل أجيراً في أرضه ، ويسلم غلتها بعد ذلك إلى المحتلين . فكان لهم ما أرادوا . وكان هدفنا نحن من حربنا البطولية التي قاومنا بها مقاومة عنيدة هو أن نذهب إلى الجنة . فتحقق هدفنا وذهبنا إلى الجنة ! » .

هذه هي القصة أو النكتة . وأنا عرفت الأستاذ التبسي وتتلمذت عليه عدة سنوات . وكنت أعرف عنه ناحيتين متقابلتين في شخصيته القوية الباهرة : كان شديد التدين عميق الاخلاص لا يتساهل في قضايا الإيمان وكل ما يتعلق بالعقيدة الدينية . وكان من ناحية أخرى يحب النكتة ويمزح مع أصدقائه ويمزح في براءة . وكنا بسبب ذلك نشعر معه بحرية واسعة في المناقشة ، ولكننا في الوقت نفسه نهابه ولا نكاد نسمح لأنفسنا بأن نتجاوز معه حدوداً معينة في حرية المناقشة . ولكنني أعترف اليوم عندما وصلتني هذه القصة أو النكتة ، أنني عجزت عن تفسيرها : هل كان الشيخ يقصد ببراءة وجد أن أجدادنا كانوا فعلاً يقاومون الفرنسيين بدافع ديني يريدون من ورائه أن يستشهدوا ويحققوا أحلامهم في الجنة ؟ وأن الشيخ الأستاذ كان ينظر إلى هذا الدافع الديني عندهم نظرة احترام وجد ؟ أم أنه ساق هذا التعليل ليتهكم مر التهكم وألذعه ؟

إن تشدده الديني الذي عرف به يجعلني أميل إلى التفسير الأول ، ولكن يقظة فكره وتشبثه بالأفكار العصرية وإيمانه بأن الدين قوة وبناء وسعادة ورخاء وليس زهداً في الحياة وبحثاً عن الموت في سبيل السعادة الأخروية وحدها ـ هذا الجانب من شخصيته يجعلني أميل إلى الاعتقاد بأنه ساق هذا التعليل مساق الاشفاق على أجدادنا والتهكم بعقولنا التي كانت عند أجدادنا وظلت إلى أيامه هو وما تزال إلى اليوم وستظل مدة أخرى طويلة ، تفضل جزاء الآخرة على منفعة الدنيا ، وتدفعها العاطفة الدينية أكثر من أن تحركها غريزة الدفاع عن الحياة ، وإن لم يكن هناك ما يوجب هذا الاختلال لأن الجمع بين الأمرين جائز وممكن عقلاً وعملاً .

وعلى أية حال ، سواء نظرنا إلى المسألة على أنها قصة جدية أو نكتة عميقة ، فانها مرة مؤلمة قاسية بالرغم مما تشتمل عليه من عنصر الضحك . وهي تذكرني بنكتة أخرى لا تقل عنها عمقاً ومرارة وضحكاً : يحكى أنه التقى شخص عربي وآخر روسي ، وثالث أمريكي ، وراحوا يتحاورون في أصل آدم وإلى أي جنس من الأجناس البشرية يمكن أن ينتسب (وينبغي أن لا ندخل المنطق هنا ونقول

إن آدم هو أصل الأجناس كلها فكيف نبحث له عن الجنس الذي ينتمي إليه) فقال الأمريكي : « إن آدم لا يمكن أن يكون إلا أمريكياً ، لأن المشكلة التي أخرجته من الجنة هي مشكلة التفاحة . ولا يمكن أن يوجد تفاح في هذه الأرض ولا حتى في الجنة يحمل أبانا المحترم على عصيان ربه إلا التفاح الأمريكي بسبب نكهته اللطيفة ومذاقه اللذيذ ولونه الأخاذ . »

فقال الروسي : « ليس هذا بصحيح . إن آدم لم يكن في عهده وجود للرأسمالية ولا للاقطاعية ولا للاستعمار القديم أو الحديث ولا للامبريالية التي تآمرت على حرية الشعوب وتقاسمت أرزاقها واستغلت جهلها وتعاستها . لقد كان رجلاً طيباً يعيش على الفطرة البريئة ، لا يعرف استغلال الإنسان لأخيه الإنسان . ومن ثم فهو لا يمكن أن يكون إلا اشتراكياً صميماً ، بل شيوعياً أكثر من لينين . »

فتكلم العربي وقال : « لا هذا ولا ذاك . فالمعروف تاريخياً أن جميع الأنبياء بعثوا في هذه المنطقة من العالم . وأرضنا قد لا تنبت الأشجار الباسقة والجنات التي تجري من تحتها الأنهار ـ فذلك سيأتينا عنه تعويض في الآخرة ـ ولكنها تنبت الأنبياء بكثرة وجودة لا تنافسنا فيهما أية أرض أخرى . هذا أولاً . أما ثانياً وأخيراً فان آدم لا يمكن أن يكون إلا عربياً أصيلاً بدليل أنه كان عاري الجسم حافي القدمين ، وهو يحسب نفسه في الجنة ! »

وطبعاً لم يجد الأمريكي ولا الروسي ما يدحضان به حجة زميلهما العربي . لقد ألقمهما حجراً ..

إن هذه النكتة لا تحتاج إلى تحليل . ثم ان تحليل النكتة يقتلها . فهي مثل الزهرة تشم ولا تحك كما يقولون . ومع ذلك نستطيع أن نتبين منها شيئاً جديداً ظهر في عقليتنا العربية المعاصرة ، هو الذي يجعلها تختلف اختلافاً واضحاً عن عقلية أجدادنا . لقد أخذنا نتنبه إلى سذاجتنا ونعترف بها في شجاعة ، سذاجتنا التي كانت تجعل أجدادنا يقبلون أن يعيشوا عراة حفاة ولكنهم لا يعيرون لذلك قيمة . لأنهم اما أن يحسبوا أنفسهم في الجنة فعلاً أو يشعرون بأن حالتهم المزرية

في الحياة ظل سيزول بالنسبة للحالة الأخرى الدائمة ، والتي يجب أن تكون هي محور الاهتمام ، من أجلها نعمل ونحيا ونقاوم الأعداء ونستشهد أو ننتصر .

ولكن النتيجة الخطيرة التي ننتهي إليها بهذا النمط من المنطق ، والتي من أجلها أوردت هاتين القصتين أو النكتتين إن شئت ، هي ما بعد الهدف أو الغاية : فإذا كنا نقاوم من أجل الاستشهاد فقط ، فان الذين يخسرون الصفقة منا هم من لم يكتب لهم الاستشهاد حتى لو انتصروا : ماذا يفعلون بالنصر ؟ لقد تغلبوا على العدو وأخرجوه من أرضهم . ثم ماذا ؟ وإذا كان هذا هو الهدف فانهم بعد أن حققوه سيبقون مكتوفي الأيدي ، ينعمون بنشوة النصر ويتغزلون به وينظمون فيه الأشعار ويمجدون الأبطال الذين استشهدوا ونالوا جزاءهم في الجنة ، واسدل عليهم وعلى الأحياء من بعدهم الستار .

أما إذا كان الاستشهاد وسيلة لا غاية في ذاته فان النصر عندئذ يصبح بداية للعمل وأداة للانتصار الحقيقي الذي هو الانتصار على مشاكل الحياة .

إننا لا نستطيع أن نتبين بوضوح أي الدافعين فينا أقوى في الوقت الحاضر . لعل ذلك سيظهر بعد سنوات من التطور وسيحكم علينا التاريخ أو يحكم لنا . ونتيجة الحكم الذي سيصدره التاريخ بشأننا ستقوم على إحدى المقدمتين كما يقول المناطقة : إذا أظهرنا حماساً في بناء الحياة كما أظهرناه في الإقدام على الموت ، وإذا غيرنا طباعنا التهديمية القديمة وغرسنا مكانها طباعاً إنشائية جديدة ، وإذا نظرنا إلى الحياة على أنها مسؤولية وضمير وانتاج بقدر ما كان الموت تضحية وعقيدة وحرماناً ـ فان التاريخ سيحكم لنا بأننا جعلنا المقاومة والاستشهاد وسيلة فقط لغاية الحياة ، والغاية أثقل من الوسيلة ، واننا انتصرنا انتصاراً حقيقياً .

أما إذا أظهرنا من العجز في معالجة مشاكل الحياة قدر ما أظهرنا من القدرة على مواجهة الموت ، وإذا كان حماسنا في الاستشهاد أقل من حماسنا في الانتاج ، وإذا كانت قدرتنا على نيل الانتصار في المعركة أكثر من قدرتنا على جعل الانتصار

أداة لبناء الحياة فان التاريخ سيحكم علينا بأننا انهزمنا شر هزيمة في انتصارنا ، وانا قاومنا فعلاً لكي نذهب إلى الجنة فقط ، وعندئذ تصبح النكتة حقيقة .

إننا نتحدث دائماً عن الهدف . والموقف الصحيح هو أن ننظر إلى ما بعد الهدف : الهدف من حرب التحرير هو أن نستقل ببلادنا ولا يشاركنا فيها أحد أما ما بعد الهدف فهو التفكير فيما نصنع بهذا الاستقلال بعد أن نحققه ، وكيف نبنيه ونقيم دعائمه ، وما هو الوجه الذي سيكتسيه ، والهيكل الذي يعطيه أبعاد قامته .

وكل واحد منا اليوم يذكر أننا في حرب التحرير كنا لا نفكر إلا في الاستقلال وقليل منا من كان يفكر فيما بعد الاستقلال . لقد كانت هناك هوة طبيعية تنتظرنا . وكان ينبغي أن نهيئ الجسر الذي نعبر منه هذه الهوة إلى ما بعد الاستقلال . ولكن الجسر لم نفكر فيه . فما كدنا نخطو الخطوة الأولى بعد الاستقلال مباشرة حتى وجدنا أنفسنا في القعر البعيد .

هذه إحدى نتائج التفكير في الهدف وإهمال ما بعده . أو ان شئت أيضاً هي نتيجة العقلية التي تقاوم العدو من أجل الاستشهاد لا من أجل الحياة .

قوة رجل

هذه جملة أولى من فصل كامل عن الأمير عبد القادر من كتاب دونه صاحبه والحرب الجزائرية الفرنسية قائمة على قدم وساق . وقد قام صاحبه برحلة إلى الجزائر في أيام الحرب سنة ١٨٤١. واسم الكتاب « الفرنسيون في الجزائر » . واسم مؤلفه « لوي فويو » . وقد أشار إليه الأمير محمد في كتاب « تحفة الزائر » . وتولت طبع الكتاب « مكتبة الشبيبة المسيحية » بموافقة أسقف مدينة « تور » بفرنسا . وقد قال مؤلف الكتاب عن هدفه من تأليفه : « إن تثقيف الناس قليلاً والتوجه بالدعاء والصلاة إلى الله أحياناً هو الهدف الوحيد الذي أرسمه لنفسي كلما أمسكت القلم بين أصابعي ووضعت ورقة بيضاء أمامي » وليس في نيتي أن أنقل هنا هذا الفصل برمته رغم أهميته وامتاعه . لأن الكتاب كله يستحق أن ينقل إلى العربية لما يلقيه من الأضواء على فترة خصبة من التاريخ دقت فيها يد « المدنية » الأوربية على باب المغرب العربي وأفريقيا بيد حمراء . وهذه بعض فقرات من الفصل المذكور .

يقول الكاتب بعد ذلك :

إن فرنسا هي التي خلقت هذا الرجل الذي وجدت فيه العدو الشريف . وهذا صحيح لأن كل عدو عندما يغزو بلاداً أجنبية يجدها قد تجمعت في رجل ووقفت على رجليها تدفع العدو عن الأرض التي يجتاحها . ومع ذلك فان العدو الغازي لا يخلق الرجال بهذه الصورة إلا عندما يكونون هم جديرين بطبعهم أن يكونوا رجالاً وأن يكونوا عظماء .

والحق أن نصيب فرنسا في عظمة الأمير عبد القادر نصيب ضئيل لا يكاد يذكر . انه نال عظمته ليس فقط بوقوفه في وجه فرنسا وصدها عن غزو بلاده ، بل لقد اكتسب عظمته من شجاعته ومهارته معاً . نالها بتلك المهارة التي جمع بها حوله القبائل المتنافرة . ليجابه بها دولة كبرى وهو ما يزال في الثالثة والعشرين من عمره . بل كان وهو في تلك السن قد فرض نفسه بأنه هو الممثل الوحيد للأمة العربية في الجزائر . ولم نستطع نحن إلا أن نعترف به كذلك .

لقد عرف كيف يحول الخصومات الداخلية بين القبائل والعروش إلى حرب ضارية ضد المسيحيين . والواقع أن المهارة وحدها لم تكن لتكفي في هذا المجال وانما هي أضيفت إلى خصال أخرى هي ثقافته وطهره ، وبلاغته وسحر بيانه ، وفروسيته التي بلغت حد الكمال ، والشجاعة التي كانت أقرب إلى الجسارة .

بدأ حياته كقائد لشعب بداية بسيطة متواضعة . ولكنه ظل دائماً بسيطاً متواضعاً في حياته . بدأها بأن بايعته بعض القبائل ، ثم توجه إلى معسكر فطلب من أهلها محلاً فقط يستقبل فيه الوفود . وبعد بضعة أيام أشعرهم بأنه من المناسب أن يكون هذا المحل مؤثثاً بأثاث بسيط . فكان له ذلك . ثم أخذ يهتم بالمشائخ ورجال الدين فيفاوضهم في حالة البلاد ، فكانوا يصغون إليه وهم مأخوذون بصدق لهجته . ثم أخذوا يأتون جموعاً إلى بيته ، وعندما يدخلون عليه يجدونه جالساً على سجادة بسيطة والمسبحة في يده فلا تبدو عليه أي علامة من علامات التعاظم ، أو القيادة والحكم ، أو البذخ والمال . ويجلسون إليه فيحدثهم طويلاً عن ضرورة توحيد الصفوف للجهاد ، مستشهداً في كل مناسبة بالآيات القرآنية .

ثم يتطرق بعد ذلك إلى وضعيته هو شخصياً ، فيصارحهم بأنه لما بويع للامارة فلإن مواطنيه أقنعوه بأنه أخلص رجل للدفاع عن الدين ، وأنه شخصياً لا يبغي شيئاً لنفسه . وكان يحرص بالخصوص على تذكيرهم بأنه لا يفهم السلطة كما يفهمها الحكام الأتراك في البلاد ، وبأنه لم يقبل بهذه الامارة إلا للقيام بواجب الجهاد ، وأنه سيخرج منها فور ما تسترجع البلاد حريتها . فكان رجال الدين يخرجون من عنده وهم مقتنعون بحماس أن هذا الأمير الشاب هو الذي سيحكم بالكتاب والسنة حقاً .

ولكنه إذا كان يستولي على رجال الدين بهذه الصورة فانه كان يسيطر على الرجال الشجعان بشجاعته . كما يسيطر على أصحاب المطامح والأهواء بذكائه ورقة حاشيته ، وعلى المثقفين بعلمه وسعة اطلاعه ، وعلى بقية الشعب بطهارة أخلاقه التي لا يستطيع أحد أن يلوثها حتى بالدعاية المغرضة .

يضاف إلى هذه الخصال كلها أنه كان شاباً جميل الطلعة تزيده الفروسية فتوة وهيبة . وهذه الخصال في الرجل جعلت الطبقات الشعبية البسيطة تتناقل بشأنه قصص المعجزات . والمعجزات عند العرب كثيراً ما تختلط بالتاريخ . أما الأذكياء من الناس الذين اتصلت بهم واستقيت منهم أخباره وصفاته بدقة فيتفقون كلهم في هذه الملاحظة : وهي أن الأمير عبد القادر رجل تستطيع بسهولة أن تفهم منه ما يقول . ولكنك لا تستطيع أبداً أن تدرك ماذا يفكر .

وكل من الطبقات الشعبية ، ورجال الدين ، والمثقفين ورجال العرب كانوا يتحدثون في البوادي والمدن عن أميرهم بهذه الكلمات : « الله أكبر ! الله أكبر ! أيها العرب ، اعلموا أن الحاج عبد القادر بن سيدي محيى الدين هو امامنا في الجهاد ضد أعدائنا النصارى . انه لن يفعل مثل الأتراك . انه لن يستخلص الضرائب لنفسه . هو أخوكم ، عربي مثلكم . انه منكم واليكم . الله أكبر . الله أكبر » . والمستمعون يردون عليهم بهذه الكلمة : « الحمد لله يا رب » انهم يشعرون بالفخر والاعتزاز عندما يعلمون أن العرب أصبح يحكمهم رجل عربي بواسطة مبايعة

قام بها العرب أنفسهم . إن شيئاً من ذلك لم يقع منذ أن قدم الأتراك .

كل هذه العوامل يدرك الأمير عبد القادر أهميتها بالنسبة للمعركة . فلا يترك فرصة تمر دون أن يثيرها في المساجد والاجتماعات ويجعل منها مذهباً عقائدياً ودستوراً لسياسته . ولكنــه يفعل ذلك بمهارة تثير حماس الجماهير . يستشهد بمهارة أيضاً بالآيات القرآنية الداعية إلى الجهاد . ويكتب بنفس اللهجة إلى القبائل البعيدة ويذهب بنفسه لزيارتهم . وأثناء كل ذلك لا ينقطع عن مطالعة الكتب . الكتاب هو رفيقه الدائم . وإذا تخلى عنه أحياناً فإلى المسبحة مع الدقة المدهشة في المحافظة على أوقات الصلاة . وهكذا استطاع أن يستولي على شعبه . انهم يفدون عليه من جميع أنحاء البلاد لمبايعته وهم محتارون بين شخصيته الدينية كولي صالح وشخصيته السياسية كملك أو سلطان . لقد كون الشعور الوطني عند الجماهير دون أن يجرح شعورهم باستقلال شخصيتهم وميلهم إلى الفردية . فيتحدث إلى الفلاحين الفقراء من الشعب ويقربهم إليه ويتقرب منهم ويقول لهم : « انني أنا أشدكم فقراً . »

والحق أنه كان كذلــك كأنــه رجل يعيش دون احتياج إلى شيء لأن حياته في منتهى البساطــة . بــل أي حياة عنده لنفسه ؟ إن لباسه هو لباس الفقراء . فــلم يشاهد يومــاً لابساً برنساً مطروزاً . بــل رأى أحــد أقاربه لابساً هذا النوع من البرانيس فأصدر ضده عقوبة لأنه يعتبر أن الذهب ينبغي أن ينفق في الحرب لا في التزين . لا يملك شيئاً جميلاً ما عدا فرسه وسلاحه .

وعندما يفصل في الخصومات بين الناس يظهر من الحكمة والطهر والضمير الحي ما يقنع كل المتخاصمين بأحكامه فلا يخرجون من عنده إلا وهم يرددون « ان هذا الرجل مبعوث من الله » !

وهو يحرص على أن يطيعه الأقوياء قبل الضعفاء . فأنت لا تجد قوياً يجرؤ على عصيانه وان وجد من بين هؤلاء الأقوياء الأغنياء من يشعر بالمهانة من جراء ذلك فيحاولون أن يتألبوا أو يتآمروا . ويعلم هو ذلك فلا يتردد في قطع الرؤوس

الكبيرة . فيعلم الآخرون أن ليس هناك مائة سلطان في البلاد . بل يوجد واحد فقط يقوم بالحرب ضد المسيحيين . وبالسلم بين الجزائريين . والقوة التي أصبحت عنده اليوم حقيقية لا ننسى أن صاحبها بذل عاماً كاملاً في إعدادها وصيانتها والعناية بها آناء الليل وأطراف النهار .

إن الجنرال دي ميشال عسكري شجاع . ولكنه ديبلوماسي رديء . قواتنا في وهران لا تستطيع مغادرتها . فلا نجد مناصاً من الاتصال بالعدو . ولكن عبد القادر يعرف وضعيتنا . نطلب منه التصالح فلا يظهر أي استعجال في إجابتنا . ثم عندما يجيب لا يجد الجنرال دي ميشال في جوابه ما يرضيه . بل يجد ما يسحره . والواقع أننا ما زلنا نجهل خصال الديبلوماسية العربية . ولقد قيل ان العرب يولدون فرساناً . وكان يجب أن يضاف ويولدون ديبلوماسيين أيضاً . أضف إلى ذلك أن اليهود الذين يحيطون بالجنرال يهولون له قوة الأمير الجزائري ويزعمون أنها لا تقل عن سبعة عشر ألف رجل . والأمير عبد القادر يحسن إيفاد الرجال : يرسل إلينا نحن العرب المهذبين الديبلوماسيين المتفتحين ليفاوضونا . ويرسل المتعصبين المتشددين إلى الجزائريين الذين هم في منطقتنا ليثيروهم ضد سلطتنا . وعندما يعودون إليه يسألهم عن كل الدقائق والتفاصيل . وتأتيه الوفود من المغرب الأقصى فيرجعون من عنده متحمسين لأفكاره مأخوذين بكرم طباعه وشجاعته وطهر أخلاقه .

والحق انه رجل تنطبق طباعه وتصرفاته على معتقداته . لا بل أعتقد أن أخلاقه وتصرفاته أروع من معتقداته . فهو وفي في حياته الزوجية . وفي في حياته الدينية . وفي حتى لأعدائه . فإذا توصلنا إلى القضاء على هذا الرجل فان جيشنا يكون أحرز على مجد حقيقي . ولكن الاسلام يكون قد أصيب في الصميم .

بين السماء والأرض

« ... إن لنا واجبات ليس فقط نحو الأشخاص ولكن أيضاً نحو المجتمع ككل . ومن أول هذه الواجبات واجب محبة الوطن » .

هذه الجملة من كتاب « أصول الأفكار الأخلاقية وتطورها » عبر التاريخ للفيلسوف الانكليزي « واسترماك » .

وعندما يحلل هذه الواجبات نحو الوطن يقول : « إن جذور هذا الواجب تجدها في الشعور الوطني وفي المحبة التي نشعر بها نحو الهيكل الاجتماعي الذي نحن جزء منه ، ونحو الأراضي التي نعيش فيها والتي نسميها الوطن . وهذا الشعور يتضمن رغبة في المساهمة في فعل الخير وخدمة مصلحة البلاد والعمل على توفير رخائها وازدهارها في الحاضر والمستقبل .

وهذه الرغبة بدورها هي نتيجة لعدة مشاعر وعواطف : من بينها شعورنا بالروابط التي تجمعنا بالناس الذين نعيش معهم . وبالروابط التي تشدنا نحو الأمكنة التي نشأنا فيها وكبرنا وقضينا جزءاً من حياتنا فيها ، وروابط الاخلاص والوفاء للجنس الذي ننتمي إليه ، واللغة التي نتكلمها والتقاليد التي ورثناها والعادات

والقوانين والمؤسسات التي أوحاها إلينا مجتمعنا الذي ولدنا بين أحضانه وانتمينا إليه .

وهذا الشعور الوطني من السهل أن نجده حتى عند الشعوب البدائية ، فقد لوحظ عند الهنود الحمر في أمريكا الشمالية شعور وطني حقيقي وارتباط شديد بالقبيلة التي ينتمون إليها والبلاد التي يعيشون فيها . ولوحظ أيضاً أن أحر عاطفة تغلي في قلوبهم هي عاطفة الشرف : شرف القبيلة وعاطفة الخير نحو البلاد التي يسكنونها ، وهذه العاطفة عندهم هي المنبع الذي تسيل منه بقية العواطف عندهم .

وشعور البدوي بالروابط التي تشده شداً متيناً إلى قبيلته ، والاهتمام العنيف الذي يوليه لسمعة قبيلته وشهرتها : والتضحيات المتنوعة التي يقوم بها في سبيل رخاء القبيلة وازدهارها ـ كل هذه المشاعر والعواطف من النادر أن نجدها في مجتمعات أخرى .

وهذا الشعور عند البدائي نحو أعضاء القبيلة يتجاوزهم إلى الشعور بمحبة المكان الذي ولد فيه وإلى نوع الحياة التي ألفها وتعوّد عليها . ومما يزيد في شدة عواطف المحبة للمكان الذي ولدنا فيه أن يبقى لنا فيه أقارب وأصدقاء ... لقد لوحظ أن سكان جزيرة سيلان لا يستبدلون بشيء حياتهم الهمجية في الغابات الموحشة والابتعاد عنها ولو لبضعة أيام ، إن هذا الابتعاد شبيه عندهم بالموت .

وسكان جزيرة مدغشقر عندما يسافرون خارج الوطن يحملون معهم حفنة من ترابه ، وخلال غيبتهم عنه يختلون بذلك التراب من حين لآخر ويتضرعون إلى آلهتهم أن تعيدهم إلى أرض الوطن ليرجعوا تلك الحفنة من التراب إلى المكان الذي أخذوها منه ... والكثيرون من جميع هؤلاء البدائيين قد برهنوا على عشقهم لاستقلالهم الوطني الذي يعطي الشعور الوطني أكمل وأرفع معانيه ... كما لوحظ عند بعضهم شعور عميق بأهمية الروابط التي تكون وحدة اللغة أو وحدة الجنس التي تجمعهم بمجتمعات أخرى ولو كانت منفصلة عنهم سياسياً واجتماعياً ... ولاحظ « بوركارد » أن البدو لا يهتمون فقط بشرف قبيلتهم الخاصة بل يهتمون أيضاً بشرف القبائل الأخرى التي تربطهم بهم روابط من نوع ما ، وكثيراً ما

يظهرون روح العصبية العامة التي تجمعهم بالقبائل الاخرى التي من جنسهم ويبدون سخطهم للخسائر التي تصيب تلك القبائل الأخرى في حروبها مع دولة أجنبية أخرى في حين أن بعض تلك القبائل عدو لبعضها الآخر » .

واضح أن « واسترماك » يستشهد بكل هذه الوقائع على أن الشعور الوطني بهذه الصورة هو شعور طبيعي وأن البدائيين فيه لا يختلفون عن المتحضرين .

يمكن تلخيص الشعور من خلال كل هذا انه عبارة عن محبة الوطن ومحبة المواطنين معاً وانه لا يمكن أن نحب الوطن كفكرة مجردة لا تشمل التراب والمؤسسات أو المناخ والبشر .

في الأخير نتساءل هل أن المسؤولين عندنا في بعض البلاد العربية قد فقدوا هذا الشعور في شكله البدائي لأنهم لم يعودوا بدائيين ؟ وأنهم لم يكتسبوه في صورته المتحضرة كما هو عند الانكليز أو الروس لأن هؤلاء المسؤولين لم يتحضروا بعد تحضراً حقيقياً ؟ وانهم بقوا واقفين بين حضارتين إحداهما انقرضت والأخرى لم تصلهم ؟

إن أكثر ما يؤلم في شأنهم أنهم في وضع مؤلم : معلقين بين السماء والأرض بين حقد شعوبهم عليهم وأطماعهم الشخصية التي أفلست !

قوة الصبر وقوة الفتك

هو من الشباب الملتحي يؤمن بالفن وبالقوة.يعيش بالقهوة والسجائر . يعمل نهاراً ويمارس الفن ليلاً . نحيف الوجه غليظ الشفتين نحيل الذراعين مخشوشن الأصابع ، أحب شيء إليه النوم ولكن العمل المرهق في النهار وهوس الفن بالليل ألهياه عن أن يحيا حياة طبيعية .

هذه المتناقضات في طريقة حياته ألهمته نفس الطريقة في تفكيره واسلوب حديثه .

كنا نتحدث ككل الناس عن حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ فقال : ماذا أقول في الذين يقبلون بتسوية المشاكل العسكرية بالطرق السياسية . وينتظرون العدو من الغرب حتى أطل عليهم من الشرق ويضربون موعداً للقاء في عاصمة العدو فإذا هم بعد ساعات يطلبون من العدو أن لا يدخل عواصمهم . ويتحدثون عن الأساليب الثورية ويطبقون تصرفات انخذالية .

ويتوجهون بالخطب إلى الجماهير ويتوجهون بعملهم نحو الملوك الرجعيين . ويتركون الشرف يداس بالأرجل ليملؤوا أيديهم بالصدقات ، ويجتمعون لوقف

ضخ البترول فيقررون استئناف بيعه . ويجعلون المقاطعة اليوم من أسباب الضعف بعد أن قرروا بالأمس أنها من أسباب القوة . ويؤمنون بحقهم بشرط أن يكافح من أجله غيرهم ، ويؤمنون بوساطة الأجانب ولا يؤمنون بقدرة شعوبهم على النضال ... »

قلت : إن كل هذا قد سببه الضعف .

فقال : الضعف ؟ أي ضعف ؟ وأي قوة .

هل تؤمن أن أمريكا اليوم تبحث عن مخرج من مأزق الفياتنام لأنها أضعف منه ؟

هل تتوهم أن بريطانيا تبحث على اتفاق مع الوطنيين في عدن لأنهم أقوى منها ؟

هل تتصور أن ديغول وافق على استقلالنا لأننا نملك القنبلة الذرية ؟

إن للضعف والقوة فلسفات لا حصر لها . هناك قوة الهجوم والفتك ، وقوة الصبر والجلد ، وهناك ضعف السلاح وضعف النفس . وكوبا والفياتنام والجزائر وعدن لم تنتصر على أميركا وفرنسا وبريطانيا بقوة الهجوم ولا بفتك السلاح ، وانما انتصروا كلهم بقوة الصبر والجلد .

انهم كثيرون أولئك الذين يفتخرون عندنا بأننا هزمنا فرنسا . والواقع أننا لم نهزمها بل صبرنا على فتكها بنا حتى ملت . نفد صبرها من ضربنا ولم ينفد صبرنا فننحني . كنا وأياها نتسابق وعيوننا معلقة في عقارب الساعة : من الذي يصبر ربع الساعة الأخير بعد صاحبه .

ثم توقف قليلاً عن الكلام راجياً مني رداً فلم أسعفه . فقال : ولكنك قاطعت حديثي الأول ولم تتركني أتم الجملة . لقد قلت لك : ان الذين يتصرفون هذا التصرف لا نستطيع أن نشاركهم فيه . وحتى لا يقولوا اننا تهربنا من مسؤولية

الاجتماع معهم قررنا ـ ونحن في أماكننا ـ ما كان يجب أن يقرره من **تحملوا** مسؤولية السفر إلى الاجتماع .

كلا يا صاحبي اننا لا نستطيع !

فقلت انك تبدو من الذين يؤمنون بالشرف إيماناً ساذجاً . الشرف الذي لا يجلب قوة ولا مالاً .

فقال : أنا من الذين يؤمنون بأننا إذا سعينا للشرف فان الخبز والمال يكونان مضمونين لأنهما أقل مشقة من الشرف . أما إذا جعلنا الشرف وسيلة للخبز والمال فإن الخبز والمال يضيعان ومعهما الشرف والاحترام . إن المثل العليا ليست فارغة من الفوائد العملية كما يتوهم الضعفاء بل هي أضمن السبل وأقربها لنيل الفوائد الأرضية .

حاول الحلفاء أن يهينوا ديغول في الحرب العالمية الأخيرة . فقال لهم : « انني أضعف من أن أستطيع الانحناء » !

متى يفهم الضعفاء عندنا هذا المنطق القوي ؟ !

أين هم تلامذة الشيخ باديس ؟

ترددت بين عدة مواضيع : أيها أطرقه عن الشيخ باديس ، تصفحت كل ما تحصلت عليه من مراجع عنه ، وهي قليلة ، ووقفت عند بعضها وقفات طويلة . وأطلت الوقوف في كثير من الجمل أحاول أن أستشف من ورائها ما يمكن أن تصل إليه من أبعاد في الأفق ، ثم طرحت عني المراجع واستلقيت متعباً في سرير صغير عندي في المكتب ، وأمامي الجدار المقابل كانت صورة الشيخ باديس معلقة ، فرحت أتصفحها هي الأخرى وأستشف من نظرته الوديعة ما يكمن وراءها من طمأنينة وعزم وطموح ، وما تنبثق عنه لحيته السوداء من هالة مضيئة على وجهه المشرق ثم من المراجع المكدسة والصورة المعلقة رجعت إلى الماضي الذي عشته وأنا يافع لا أعرف قيمة للرجل ولا أتصور ما كان يحلم به من عوالم ، كل ما كنت أشعر به نحوه هو شيء من الحب وكثير من الاحترام ورثتهما أرثاً عن أبي وعن الوسط المدرسي الذي كنت أعيش فيه في مدينة تبسة .

لا أذكر الآن هل كنت أنا الذي طلبت من والدي أم هو الذي عرض علي أن أذهب معه إلى مدينة قسنطينة لحضور تشييع جنازة الشيخ باديس ، كل ما

بقيت محتفظاً به في ذاكرتي إلى اليوم هو وجودي في شوارع لا أعرفها من مدينة قسنطينة تترامى بي مع الخلائق الكثيرة أمواج هائمة من الحزن ونحن نسير ببطء وراء جنازة لا ندري مبلغ بعدنا عنها لكثرة الازدحام .

وأذكر أيضاً كلمة من الشيخ العربي التبسي وهو يؤبنه قائلاً : أيتها الأمة الجزائرية : « لقد كان الشيخ باديس هو الجزائر ، فلتجتهد الجزائر الآن أن تكون هي الشيخ باديس » .

ولم أشعر إذ ذاك أن في كلمة الشيخ التبسي مبالغة تقليدية دعت إليها المناسبة ، وإنما شعرت أن الرجل قالها عن صدق ، ولكني لم أتصور أبعاد هذه الكلمة إلا فيما بعد ، بعد سنوات طويلة ، وأجدني اليوم مدركاً لها أكثر من أي وقت مضى .

وكان الشعور الذي تملكني طيلة مسيرتي في الجنازة مستوحى من تعاليق الناس من حولي ، وهم يتهامسون بها في تأثر وهدوء ، ومن بين ما سمعته في ذلك اليوم قول أحدهم لصاحبه : « اننا لم نفقد في هذا الرجل حاضرنا فحسب ، بل خسرنا مستقبلنا أيضاً » فأحسست عند هذه الكلمة بهزة انهيار في داخلي أشبه بالزلزال انتفض له كل كياني .

ولكني بعد أن سمعت كلمة الشيخ العربي التبسي شعرت بالثقة تعاودني ، بأنه في الإمكان فعلاً تعويض الشيخ باديس إذا عرفت الجزائر كيف تكونه . وتصورت إذ ذاك ـ ولا أدري لماذا ـ أن الشيخ التبسي جدير بأن ينقذ الشعب الجزائري من الشعور بالانهيار ويعوضه عليه شعوراً بالثقة والإيمان بالنفس .

وعدت إلى مدينة تبسة وقد عظمت مكانة التبسي في نفسي أضعاف ما كانت عليه في الماضي .

قلت اني لم أشعر في كلمة الشيخ التبسي بمبالغة تقليدية كما يحدث عادة في مثل هذه المناسبات . وجيل اليوم عندما يتصفح آثار الشيخ باديس ، وعندما يحدثه أصدقاء الشيخ باديس وتلامذته عن حياته ، لأنهم لم يكتبوها مع الأسف ، يجد

أن الرجل لم يكن يعيش للجزائر فحسب بل كان هو الجزائر فعلاً : كان هو الجزائر بمشاكلها السياسية والاجتماعية والثقافية ، وهو الجزائر بكفاحها وطموحها في كل هذه الميادين ، إن الرجل لم يكن يعيش للجزائر كما قال ، بل كان يعيش الجزائر ، يمثل شخصيتها أصدق وأعمق تمثيل ويعبر عن هذه الشخصية في أخلاقه وسلوكه وصدقه وإيمانه .

ـ كان يعيش مشاكل الجزائر وقضاياها الكبرى والصغرى جميعاً : مشكلتها الدينية في ظاهرة الزوايا والتقاليد المنحرفة فيقاوم هذه المشكلة بكل ما أوتي من طاقة ونشاط واندفاع وقد يبدو لجيل اليوم أن هذه المشكلة لم تكن تستحق كل ذلك العناء ، وأن شطحات الصوفية وقراءة القرآن على الجنائز وإقامة الزردة على قبر هذا الولي أو ذاك ليست من المشاكل الرئيسية التي تجابه فيها أمة من الأمم معركتها مع الاستعمار الذي كان يمثل الميدان الحقيقي للمعركة ، ولكن هذا الحكم هو في الواقع حكم سطحي لأن المعركة كل لا يتجزأ ، والاستعمار نفسه اختار الزوايا كسلاح لمعركته ضد تقدم الشعب ، ثم ان معركة الزوايا في عهد الشيخ باديس كانت تمثل المرحلة العقلية من المعركة وهي المرحلة الأولى ـ مرحلة اليقظة الفكرية التي لا بد أن تسبق المعركة السياسية أو تسير معها وتواكبها جنباً إلى جنب .

ـ وكان يعيش مشكلتها السياسية فيحارب الإدارة الفرنسية وعملاءها الكثيرين المقنعين والمكشوفين ، ويدافع عن شخصية الجزائر السياسية ويدخل هذا المفهوم في ذهن الشعب ويهاجم من ينكره أو يستخف به ولا يقيم له وزناً . ويشارك في الاجتماعات والمؤتمرات السياسية ويناقش مناقشة سياسية هادئة وهادفة وكان المسلك الذي سلكه في الميدان السياسي دقيقاً : جمعية علنية دينية تعمل من أجل الدين وحده رسمياً ، ولكنها في الوقت نفسه لا تجيز لنفسها أن تتخلى عن المعركة السياسية التي تخوضها الأحزاب والهيئات السياسية . والأحزاب نفسها متنافرة غير متفقة فيما بينها ، ولكنها جميعاً لا تستطيع أن تتهم الشيخ باديس بجهل الميدان السياسي أو الانحراف في المعركة ، بل تعتبر موقفه من أي مشكل موقفاً سليماً مناضلاً ملتزماً صحيحاً .

ـ وكان يعيش مشكلتها الثقافية في ميدان التعليم والصحافة والنشر والمحاضرات العمومية والتوعية الشعبية وإقامة المطابع . وتعويد الهيئات والمنظمات الثقافية على العمل الجماعي والروح الديموقراطية والمناقشات الصريحة . ويعيش مشكلتها الخلقية بسلوكه المثالي وترفعه ونبله وتواضعه وزهده في الملاذ التافهة وانقطاعه للمتع الروحية والفكرية المنتجة .

ـ ويعيش مشكلة الجزائر الاجتماعية فينشط الكشافة ويوقظ المرأة ويوجه الاقتصاد الوطني الشعبي إلى استهلاك المواد المحلية والاكثار من الشركات التعاونية الوطنية . ويعيش مشكلتها الفكرية . بمحاربة رواسب عصور الانحطاط التي تعيش في ذهن الشعب ويبعث الروح الفلسفية البسيطة الواضحة لا في الميدان الديني فحسب . بل في الميدان الخلقي والاجتماعي والفكري . ويفتح الأذهان نحو الحضارة الحديثة وما فيها من ثروات العلم والمعرفة والتفتح والخصب .

ـ وفي كل هذه الميادين لا يكتفي بتحديد الأهداف وتحميس الناس لنيلها بل يخلق الوسائل من العدم . فيقيم المطبعة للنشر ويكتل الأقلام للتحرير . ويقيم المدارس التعليمية الابتدائية . ويطورها إلى مدارس ثانوية . ويحلم بمشروع للتعليم العالي على النمط العصري . وفي نطاق شعبي . ويحرض على بناء المساجد الحرة والنوادي الشعبية لا لتكون محلات للعبادة أو التسلية السليمة فقط بل لتكون أيضاً ميادين تعليم للكبار .

ـ وهو في كل هذه الميادين يعمل بانسجام فكري ونفسي يدعو إلى الاعجاب ، لا يفرط في ميدان على حساب ميدان آخر ، لأنه كان يدرك أن الميادين متفاعلة يؤثر بعضها في بعضها وتنخذل جميعها إذا تعطل منها بعضها ، ويقرأ لكل ميدان حسابه من وقته وجهده .

ـ وهو في كل ذلك لا يبرع في الجهد والعمل والتضحية فقط ، بل يبرع خصوصاً في التنظيم ـ تنظيم وقته وعمله ، فكان ما يسمى عند الناس بالبركة في عمره وفي عمله ، وما هو بالبركة ، بل هو معجزة العقل المنظم فقط .

ـ وكان يتخذ من كل أعماله وسلوكه وتفكيره ميداناً للتعليم والتربية والتكوين يقول لتلاميذه وأصدقائه وزملائه في العمل عن كل أفكاره وخواجه ويعلل لهم لماذا يفكر هكذا ، ولا يفكر هكذا ، ويشرح لماذا يعمل بهذا الاسلوب ولا يعمل بذاك ، ويطلب منهم أن يكاشفوه كما كاشفهم حتى يعرف كل الأطراف أين هم ذاهبون وبأي سرعة يمشون ، وأي المراحل سيجتازون .

ـ وكان يعيش مشاكل الجزائر في علاقاتها الخارجية فاستطاع وهو في بلاد سجينة منقطعة عن العالم كله أن يجعل من صحيفة البصائر المتواضعة ومجلة الشهاب الصغيرة منبراً تتلاقى فيه قوى الخير للامة الاسلامية في العالم بأفصح وأقوى مما تتلاقى به اليوم في مؤتمراتها الكثيرة وامكانياتها الهائلة بدون فائدة نضالية حقيقية .

هكذا إذن كان الشيخ باديس هو الجزائر في عهد نضاله القصير الخصب المليء ، فهل حاولت الجزائر من بعده أن تكون هي باديس في خصبه وامتلائه ونضاله ؟

إننا إذا استثنينا الميدان السياسي لا نكاد نجد ظلاً في الجزائر للشيخ باديس من بعده .

نعم لنا اليوم مدارس ومعاهد وجامعات ومساجد ومسارح ، بل لنا وزارات لكل ذلك وإدارات مثقلة معقدة لكل ذلك ، ولكن ليس فيها الروح التي كانت تشع من الشيخ باديس في كل ذلك .

ـ كنت أتحدث ـ بعد الاستقلال ـ مع تلميذ من تلاميذ الشيخ باديس ، فكان يروي لنا ، ونحن جماعة ، أقاصيص عن حياة الرجل وكثرة أعماله ، ويأتي بالتواريخ ، والحوادث والوقائع في دقة وتثبت ، فسألت التلميذ الكريم : ولماذا يا أخي لم تكتب كل هذا عن حياة الرجل ، ويكتب غيرك ما يعرفه من جوانب أخرى من حياته ، فيكون لنا سجل حي لا عن حياة باديس فقط وتضحياته وبطولاته ، بل سجل عن عصره بأكمله ؟ فأجابني الشيخ التلميذ بقوله : « ولكني

لست كاتباً وليس لي قلم سيال » ، ولعل هذه حال كل الذين عاشوا مع الرجل زملاء أو أصدقاء أو تلاميذ ، فقد عجزوا كلهم ليس فقط عن أن يكونوا هم الشيخ باديس بل عجزوا حتى أن يرسموا لنا صورة باديس .

إن كل ما يعرفونه اليوم عن الشيخ باديس هو التمجيد الكسول ، عاشوا معه السنوات الطويلة ، وصاحبوه في الرخاء والشدة والنضال والمتاعب وتلقوا عنه المعرفة والأخلاق ، وكان يبدو لهم نشاطه الخصب المنظم شيئاً عادياً ، ولكنهم أدركوا فيما بعد ، وأدركنا معهم بعد عشرات السنين ، اننا لا نستطيع كلنا أن نرسم هذه الصورة إلى أن تندثر .

ـ وأذكر أني كنت أتحدث يوماً مع شاب من جيلنا الصاعد في نفس الموضوع فقال لي « إني أعتبر أن هذا الجفاف الفكري في تلامذة الشيخ باديس مظهر لافلاس الشيخ باديس نفسه وجمعية العلماء برمتها في ميدان التكوين » وأعتقد أن ليس هذا الزعم كله باطلاً : أعني أن تكوين الشيخ باديس وجمعية العلماء لتلاميذهم كان تكويناً تناول الروح والاتجاه واليقظة الفكرية وبعث الفكرة الاصلاحية من الناحية الدينية والروح الشعبية في الميدان الوطني ، ولكن لم تستطع أن تستوعب إلى جانب ذلك تكويناً علمياً يعتمد على طرق البحث الحديثة ، فأصبحنا اليوم نجد عند هؤلاء التلاميذ تكويناً دينياً سليماً وفكرة شعبية ووطنية لا غبار عليها ولكننا نلمس عندهم إلى جانب ذلك بدائية في الثقافة وتخلفاً لا شك فيه في الإحاطة بأي ميدان من ميادينها ، وهذا التخلف هو الذي قعد بهم عن الانتاج حتى في اللغة والأدب ، فضلاً عن أبواب الثقافة العامة برمتها ، انهم يتحمسون اليوم للتعريب مثلاً ولكنهم لا يقدمون لنا عملاً مجدياً في التعريب لا إدارياً ولا علمياً ، ويتحمسون للدين ولكنهم ـ وهم في هذا كبقية رجال الدين في العالم الإسلامي كله ـ لا يقدمون لنا أي حل لأي مشكلة من المشاكل الدينية القائمة والتي أصبحت تتصادم مع مشاكل الحياة العصرية تصادماً يودي منها كل يوم بجزء أو نصيب إلى أن يقضي على أركان الدين الأساسية نفسها من الوجود ، اني أعتقد ان لو بقي الشيخ باديس حياً إلى اليوم ورأى سلبية علماء الدين من قضايا العالم الإسلامي

الاجتماعية والسياسية والخلقية لثار عليهم وهزهم بشدة كما فعل في عهده مع علماء الأزهر والزيتونة والقرويين الجامدين الذين لم يواكبوا الحركات السياسية في نضالها بأقطارهم . بل ان علماء المسلمين اليوم يحدثونك بمرارة عن مشكلة النحر التي أصبحت مشكلة في الحج من جراء كثرة الذبائح وتصاعد روائحها وذهابها هدراً لا يستفيد منها من شرعت لافادتهم ، ثم ان هؤلاء «العلماء» مع ذلك لا يجرؤون عن البحث في إيجاد حل لهذه المشكلة كتعويضها بدفع ثمنها لصندوق معين يخصص للقضية الفلسطينية مثلاً أو لشراء السلاح للمناضلين في عدن أو لبناء مدارس أو مستشفيات للاقليات الإسلامية في أوربا .

إن هذا العجز الفكري وهذا الجمود الذي أصاب علماء المسلمين اليوم لم يكن ليبقى لو بقي له الشيخ باديس في الجزائر أو عبده في مصر والكواكبي في سوريا .

والواقع أن مشكلة العجز الفكري هذه لم تتناول تلامذة الشيخ باديس وجمعية العلماء عندنا وحدهم ، بل هي ظاهرة عامة في تلامذة عبده والكواكبي ورضا والافغاني باستثناء شكيب أرسلان لأنه كان أكثرهم تشبعاً بالثقافة الحديثة وانتاجاً علمياً خصيباً

إذن ما أبعدنا عن أن نكون نحن باديس الذي كان هو الجزائر برمتها في روحه وخلقه ومطامحه وعلمه ، اننا في مجموعنا ما زلنا جامدين على الوضع الذي تركه الشيخ باديس نعيش مشاكل ذلك العصر في حين أن المشاكل تطورت وتغيرت إلى نوع آخر . وانك تستطيع أن تلاحظ ذلك بصورة صارخة في خطب الجمعة لعهدنا أنها ما زالت في مستوى عهد الشيخ باديس والعربي والتبسي والابراهيمي والميلي مع فارق واحد وهو نقص الروح النضالية اليوم والتي كانت تشع من خطب ذلك الرعيل الأول .

نعم إن مشاكلنا اليوم تضخمت واتسع نطاقها ، ومشاكل الاستقلال أعقد بكثير من مشاكل المقاومة في عهد الاستعمار ، ومشاكل التطور الشامل أعقد

من مشاكل اليقظة الفكرية الأولى وبساطتها ، ولذلك إذا عجزنا عن أن نواكب تطور هذه المشاكل ، في الأقل ينبغي أن لا نترك تلك الصورة الرائعة من ماضينا تندثر وتموت ، ونحن نتفرج عليها في جمود وغباوة كما تتفرج البقرة على القطار .

إنني أتمنى من كل قلبي أن أكون مخطئاً في تقديري ، وأن يكون هناك من تلامذة الشيخ باديس أو أصدقائه الذين ما زالوا على قيد الحياة من هو الآن بصدد جمع كتاباته أو تحرير مذكراته عن الشيخ باديس أو القيام بدراسة شاملة أو جزئية لحياة الرجل أو لعصره وان ما أبطأ آثارهم للظهور إلى اليوم هو سوء نظام الطباعة وبعثرة الجهود التي لم نحسن تنظيمها في ميدان النشر . أتمنى كل ذلك ولكني أخشى أن يكون ما في الباطن هو ما في الظاهر : قحط فكري وكسل عقلي ، واكتفاء بانتقاد المنتجين عندما يخطئون وعندما يصيبون وعدم مشاركتهم في الخطأ وفي الصواب بالانتاج .

ولكن أليس من الظلم أن نقصر هذا العتاب على تلامذة الشيخ باديس وحدهم ونتهمهم باهمال ميدانهم؟ أليس لهم زملاء في الجانب الآخر من المثقفين بالفرنسية، أهملوا كتابة فترات بطولية عاشوها مع الشعب في عهد الشيخ باديس نفسه ؟ من منهم باستثناء مصطفى الأشرف من كتب عن فترات الكفاح أو الحياة الاجتماعية والفكرية التي عاشوها في عصر باديس أو قبله أو بعده ؟ ونحن نعرف منهم المحامين والأطباء والصيادلة وقدماء الصحفيين والمدرسين وأذكر اني سألت واحداً منهم عن هذا الموضوع فقال لي : « إننا لا نستطيع أن نكتب التاريخ الحي » ، فقلت اكتب ولا تنشر ثم هل من الضروري أن لا تكتبوا إلا التاريخ السياسي ؟ وأذكر أيضاً اني اطلعت أحدهم على مقدمة كتبتها لديوان شعر ني تحدثت فيها عن الفترة التي عشتها من الناحية الفكرية . والثقافية . فأرجعها إلي وقال : هذه هي حياتنا جميعاً في تلك الفترة . قالها وكأنه استراح هو من عبء الكتابة . وأذكر أخيراً ـ وليس آخراً ـ أن أحدهم انتقدني مرة عن بحث كتبته وامتحنني هل قرأت كتاب فلان وفلان وفلان عن هذا الموضوع فاعترفت له بأني

لم أقرأ هذه الكتب واني قرأت غيرها ، والبعض منها لم أسمع به اطلاقاً فقال لي الاستاذ المحترم : وكيف تكتب إذن في الموضوع وأنت لم تطلع على جميع مصادره ؟ فقلت إذا انتظرت حتى اطلع على كل المصادر فاني أخشى أن أموت قبل قراءة نصفها . ثم قلت له : ولكن بما انك أنت قرأت عن هذا الموضوع أكثر مما قرأت أنا لماذا لم تتول الكتابة عنه مكاني ؟ أو على الأقل لماذا لم تستكمل النقص الذي بقي في كتابتي عنه ؟ فأجابني بكل هدوء : ولكن ليست مهمتي أن أكتب ، فقلت : عفواً ! إن مهمتك أن تنتقد فقط . وحتى الانتقاد تعجز عن كتابته وتفضل أن تقوله لي في مقهى حتى لا يستفيد منه أحد غيري .

إن ظاهرة العجز هذه عن الانتاج ليست مقتصرة على تلامذة الشيخ باديس . بل هي عامة في مثقفينا جميعاً مهما كانت ثقافتهم . ومع ذلك فان مؤاخذة تلامذة الشيخ باديس تبقى قائمة أكثر من غيرهم ، لأنهم رأوا رجلاً يعمل عمل أمة ، وقد عجزوا هم عن أن يعملوا عمل رجل .

فكرة للمسؤولين

للمرة الثانية أحب أن أؤكد للقراء أن ما أكتبه في هذه الأحاديث من آراء منسوبة للناس هي بالفعل وبدون أي تواضع ملك لمن أنسبها له ، وليست زينة بلاغية أو حيلة من حيل الفن .

ويستطيع كل كاتب أن يجرب هذه الطريقة التي ليست جديدة ، وإنما سبقنا إليها الجاحظ في الأدب العربي ، وسيلاحظ كل أحد أنه عندما يعمد إلى تسجيل آراء الناس في شؤون الحياة فانه سيجد فيها ما يكتب وما يستحق من تسجيل .

هذه واحدة . والثانية أن الذين يظنون بأن الأفكار وقف على الكتاب وحدهم هم مخطئون . إن كثيراً من المثقفين لا يكتبون وخاصة في مجتمعاتنا التي أصيبت بالكسل العقلي . في حين أنهم عندما يحدثونك ويناقشون آراءك كثيراً ما تشعر بأن أفكارهم أصح من أفكارك وأنضج وأقوى . والثالثة اننا عندما نسجل أفكار الناس ولا نتركها « تشيح ويوديها الريح » فانما نسجل للأجيال القادمة صوراً حية عن اهتمامات الأجيال التي تقدمتهم ، ويستطيعون أن يأخذوا منها فكرة صحيحة عن الحياة الفكرية لا كما يفكر فيها الكتاب بل كما يتحدث بها الناس في بيوتهم

ولقاءاتهم ومختلف ميادين نقاشهم .

وهذا ما يبرر نشر هذه الأحاديث مهما كان موضوعها .

والرابعة أن أحاديث الناس فيها من الصراحة والمباشرة والحيوية ما يزري بالالتزامات التي يصطنعها الكاتب مضطراً لها لعدة اعتبارات اجتماعية أو سياسية أو عاطفية

والخامسة والأخيرة أننا في عصرنا هذا نتحدث كثيراً عن الرأي العام ، ولكننا نتحدث عليه ونؤمن به كقوة قابلة ومستهلكة فقط ، ولا نعتني به كقوة منتجة نستطيع أن نتغذى من تفاعلها الداخلي ، ويكفي فقط أن ننظم هذا التفاعل ونعتني به كما نعتني بالأرض السبخة المهملة . وأهم من كل ذلك في نظري هو الاطلاع - اطلاع المسؤولين السياسيين والاجتماعيين على حقيقة ما يشغل هذا الرأي العام ، وكيف يتفاعل ويحيا ويستجيب للأحداث . أما تسجيل كل ذلك في شكل قد يحرج البعض ويسر الآخرين فان أهميته ثانوية ، إذ المهم هو معرفة ما يفكر فيه الرأي العام عارياً كالحقيقة المجردة ، وعلى هذه المعرفة يستطيع المسؤول السياسي أو الاجتماعي إذا كان مخلصاً أن يقيم أسساً صحيحة لنظرته للمشاكل كما يستطيع أن يستوحي لها حلولاً طبيعية بسيطة واضحة .

أما بالنسبة للكاتب ككاتب فان هذه الطريقة هي وحدها التي تسمح له بأن يتناول مختلف المواضيع بالحديث مهما كان موضوع اختصاصه . إذ لا يستطيع أن يتحدث في كل شيء ويعطي رأيه في كل مشكلة . وهذا ما يسمح لي شخصياً بأن أتناول في هذه الأحاديث مواضيع عن المشاكل البيتية أو السياسية أو حتى القضايا الرياضية كما سأفعل اليوم دون أن تكون لي فيها بضاعة ثقافية تدخل في ميدان الثقافة العامة .

تحدثت مع أكثر من واحد في موضوع « نكستنا » الرياضية ، واعترف

أنـني لم أقـرأ كل ما كتبته صحافتنا عن هـذا الموضوع ومـا سجلته من سخط ونقد مريرين .

ولكني احتفظت من أحاديث الناس عن هذا الموضوع بفكرتين أؤديهما هنا بكل أمانة دون أن أهتم بما عسى أن تثيرهما من سخط واستياء عند المسؤولين عن شؤوننا الرياضية .

الفكرة الأولى قالها لي رجل يتتبع كل ما يجري في الحياة الوطنية والدولية من أحداث . قال لي : إن هذه الهزيمة هي هزيمة « الخامس جوان » عندنا في الميدان الرياضي . لقد جرى لنا فيها بالضبط ما جرى لأخواننا في المشرق في الميدان العسكري : دخول للمعركة بدون استعداد جدي ، وغرور كثير في اعتدادنا بقوتنا دون ميزان صحيح لقوة الخصوم الذين سنجابههم . فكانت النتيجة هزيمة لم يكن يتوقعها أحد . تماماً كما وقع في المشرق .

والفكرة الثانية قالها لي رجل لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه في تفكيره حريص دائماً على تأكيد الجانب الإيجابي مما يعالج من مواضيع في حديثه .

قال لي : ليس المهم في نظري أن ننهزم أو ننتصر في الألعاب الرياضية أو في معركة المشرق أو في ميدان الإنتاج الزراعي . بل المهم أن نحرص على أخذ الدرس اللازم من الفشل والنجاح معاً . وهذا الدرس لا يكون إيجابياً ومفيداً إلا إذا كان جدياً . أعني أن يحرص المسؤولون على تأليف لجان للتحقيق في أسباب الفشل وأسباب النجاح لكل حادثة أو عمل .

مثلاً : انهزمنا في الميدان الرياضي هزيمة غير طبيعية لا تفسر بهذا السبب الظاهر أو ذاك . هنا تؤلف لجنة تبحث الأمر وتستوعب الأسباب وتحدد المسؤوليات وتأخذ حتى رأي اللاعبين في القاعدة فلعلها واجدة عندهم من الحقائق ما لا تجده عند « الخبراء » في القمة . ولعلها ستجد جملة الأسباب مختصرة في الاهمال : اهمال التمرين واهمال العناية بصحة اللاعبين وأخلاقهم ، وعدم تقدير من

مسؤولينا لأهمية هذا الجانب من حياتنا الاجتماعية وانعكاسه على سمعة الوطن في الخارج إلى آخره ...

وإذا لاحظنا أن هذه المزرعة الصغيرة كان مردودها أحسن من تلك المزرعة الكبيرة ، تؤلف لجنة للتحقيق في الأمر فلعلها ستجد أن السبب ليس هو جودة الأرض أو قلة الماء ، بل السبب هو أن المسؤول في المزرعة الكبيرة لا يستيقظ باكراً ولا يتفقد العمال ولا يعرف شيئاً عن الفلاحة ، وان ما يهمه ليس هو أن تتعطل جرارة عن العمل إذا لم تتعطل سيارته .

إن فكرة هذه اللجان لو يتم العمل بها يجب أن تنتشر في كل جهاز من أجهزة النشاط العام ، وأن تسجل أسباب الفشل أو النجاح وتعرض ذلك على المسؤولين المباشرين للعمل وغير المباشرين . وتصدر بشأنها إنذارات أو عقوبات أو مكافآت

إنني أعتقد أن سياسة اللجان هذه لو نعمل بها حتى على نطاق محدود ـ لقلة إطاراتنا ـ فانها ستشعر كل من يعمل في أي ميدان كان أنه سيحاسب يوماً عن عمله ويجازي ، ان خيراً أو شراً وسترى النتيجة المدهشة .

وأعتقد اعتقاداً جازماً أن أغلب أسباب فشلنا في أي ميدان كان لا ترجع إلى الأسباب الطبيعية بقدر ما ترجع إلى الأسباب البشرية : الاهمال وقلة العناية وخطأ التقدير وعدم التفطن للامور قبل وقوعها ، كل ذلك يضاف إلى نفسية الغرور وضيق الأفق والاكتفاء بالمجهود الأقل مع الطمع في أحسن النتائج .. كما لو كنا ما نزال نعيش في عصر المعجزات !

الانتصار القادم

هي معلمة من بلد شقيق ، مارست التعليم عدة سنوات في بلدها . وعانت تجارب اجتماعية عديدة . وحتى من الناحية السياسية لها إلمام واسع بقضاياها . ولكن هذه هي المرة الأولى التي تمارس فيها مهنة التعليم خارج بلدها .

كنا نتحدث عن مشكلة التعريب في الجزائر من مختلف نواحيها . لم أهمل شيئاً يذكر من ملاحظاتها لأنها كانت تبدو لي على جانب من الأهمية قلت لها : ان من ينظر إلى أوضاعنا من خارج لا تبدو له كما نعانيها نحن من الداخل ، فكثرة مشاكلنا وقلة إطاراتنا تجعلنا نخلط بين إمكانياتنا وأحلامنا . ولا نفرق جيداً بين الشروط الموضوعية للمشكلة ، وبين انفعالاتنا نحوها . فقد تكون أحوالنا حسنة ولكن شعورنا بنقصنا فيها يجعلنا نحكم عليها بأنها سيئة ، والعكس أيضاً صحيح . فما هو رأيك أنت بعد أن لمست موضوع التعريب عندنا منذ نحو شهر ؟

قالت : هذه المشكلة عانيناها قبلكم عدة سنوات و مررنا بتجارب مرة استطعتم أنتم ـ لا أدري كيف ـ أن تتلافوها إذ يبدو لي أن خطواتكم الأولى اليوم أصح من خطواتنا قبلكم . ولكن ليس معنى هذا أنكم ستلمسون النتائج منذ هذه السنة أو

التي ستليها . ولكن الذي أعتقده أن الجيل الذي ستتحصلون عليه بعد ست سنوات أو سبع سيكون جيلاً طبيعياً . أعني جيلاً يتكلم لغته بطلاقة وذوق . كما لاحظت أيضاً ان المستوى العام في الأقسام النهائية من التعليم الابتدائي ليس متدهوراً بالقدر الذي نتصوره عادة عند الشعوب المتخلفة . وقد حدثني زميلات وزملاء جزائريون بأنكم حرصتم كثيراً على مسألة المستوى هذه وكنتم متخوفين منها منذ البداية ولعل هذا ما جعلكم تحافظون على نسبة طيبة من المستوى السابق ، وهو ما لم يحصل إلا نادراً على أن لي ملاحظة أخرى مرتبطة بموضوع التعريب : انني كما أختلط بالتلاميذ الصغار في المدرسة ، أنصت أيضاً لما أسمعه في الشارع من الكبار . فلاحظت أن الأطفال الصغار يتكلمون بالعربية ـ أعني الدارجة ـ في حين أن العجائز المسنات يتكلمن بالفرنسية وبلهجة باريسية على غاية من الاتقان . ولست في حاجة لأن تشرح لي بأن أولئك العجائز تربوا على أيدي الفرنسيين وكان خبزهم اليومي مرتبطاً باتقان هذه اللغة . وليس هذا هو الذي يهمني في الموضوع . بل يهمني تأثير لغة العجائز في لغة الصغار انني لم أفهم لحد الآن كيف حفظ الصغار من هذه العدوى ؟ هل ان النساء الجزائريات لا يتحدثن بالفرنسية ، إلا في الشارع ويتحدثن بالعربية في البيت ، أم أن من نسمعهم منهم يتحدثن في الشارع لا يمثلن إلا فئة قليلة من النساء الجزائريات . إن المهم على أية حال هو أن أولئك النسوة يمثلن الماضي بما فيه . والأطفال الصغار يمثلون المستقبل . وإذا استطاع هؤلاء أن يبقوا على حصانتهم من عدوى أولئك فان المعجزة ستكون سارة جداً . وعلى ذكر هذين الجيلين عجبت لخلو المسرح والاذاعة والتلفزيون من تمثيليات هزلية لطيفة تبرز هذا التناقض وتقاومه . انه موضوع غني جداً ، وهو لا يوجد إلا في الجزائر ولعله حتى في الجزائر لا يوجد إلا في العاصمة حسبما قيل لي .

وأيضاً على ذكر المسرحية الفكاهية أود إذا سمحت أن أذكر ملاحظة تصدم كل من يدخل بلدكم . هذا البلد إذا قيس بالبلدان المتخلفة الأخرى نجده في أحسن تقويم : جمال طبيعي ، وأجهزة عصرية ، وشعب كبير ، وامكانيات اقتصادية متوفرة . والحصاد الطبيعي الذي يجب أن يكون لهذا الزرع الخصب هو

الشعور بالسعادة والطمأنينة . وهو الابتسامة الشائعة على الملامح والوجود وهو البشاشة والمحبة والانشراح والنكتة والتبسط . وبعبارة مختصرة : هو الجمال النفسي . ولكن هذا النوع من الجمال هو الذي يفتقده الإنسان في بلدكم . كل الوجوه منقبضة . وكل النفوس منغلقة . والتخاطب جاف كريه . فكأنكم لا تسعدون إلا بالشقاء . ولا تبرز إنسانيتكم إلا في ساعات المحنة ولا تخصب نفوسكم إلا في الكوارث وانكم كالجوزة لا تخرج خيراتها إلا بالتكسير .

لا تؤاخذني إذا كنت مفرطة في الصراحة . إن هذا الجانب من حياتكم لم ألاحظه وحدي ، وهو حقاً يدعو إلى الأسف . فكأن كل ما تحصلتم عليه من استرجاع هذا البلد الجميل الغني وهذه السيادة الكاملة ، والأراضي الخضراء والأجهزة الكاملة ، كأن كل هذا لم يعجبكم . فماذا تريدون لكي تبتسموا وتعيشوا كخلق الله ؟ إن شعوباً كثيرة تعيش محرومة من كل ما تتمتعون به ، ولكنهم ينعمون بالقليل الذي لا يعجبكم كثيره .

وستقول لي : إن سنوات الحرب وليالي منع الجولان بعد ليل الاستعمار الطويل قد ترك في النفوس أثره ، وهذا صحيح ولكن أين هي إذن قوتكم النفسية ؟ إن القوة هي أن تتغلب على دواعي الحزن وتبتسم وأنت في غمرتها .

إذا سألتني عن رأيي الصريح فيكم يا أخي فهو أنكم شعب لا ينقصه إلا الابتسام . وهو شيء عظيم جداً ، لأنه الثمرة الأخيرة من كفاحنا في الحياة !

قلت : لعل الله خلقنا كذلك لا أدري ؟ فقالت : كلا . انني على يقين من أن الجيل المعرب سيكون جيل الابتسام . إن الكلمة التي أرددها أكثر من غيرها في الأقسام هي النهي عن كثرة الضحك والافراط في الحبور . إن جيلكم الناشئ سيتغلب على أكبر عقبة وقفتم أنتم دون اجتيازها . وهي الانتصار على حزن الماضي والابتسام للفجر الجديد .

حتى لا تتكرر المأساة

بعد مناقشة طويلة بيننا أفسح لي فيها المجال لبسط وجهة نظري في بعض مآسينا والدرس الذي ينبغي أن نستخلصه منها ، فقال :

أنت يا أخي ما زلت متأثراً بدروس الفلسفة التي تطالعها وتعطيها للطلاب عن أرسطو وأفلاطون واضرابهما ، ولا تطبق كل ذلك أو شيئاً من ذلك عن السياسة كما تجري في واقع الناس ، وان بين السياستين لبعد السماء عن الأرض ، والكتاب عن الشارع . قلت : صحيح انني لم أهتم بالسياسة كمهنة ولكني اهتممت بها كعلم وكأهم فرع من فروع الفلسفة كما تقول . ولكني أحب أن أضيف إلى هذا أن قولك بأن السياسة شيء وفلسفتها شيء آخر فيه خطأ فادح وتجاهل للتاريخ نفسه . فأرسطو كان يطبق فلسفته في السياسة الناجحة التي كان يسير عليها الاسكندر الأكبر والتي نهض بواسطتها باليونان إلى ذروة الحضارة والتوسع والفتوحات ، أو إن شئت فقل ان الاسكندر لم يبلغ تلك القمة من النجاح إلا بفضل الفكر الفلسفي في السياسة .

ومحمد عليه السلام لم يبن أمة من العدم إلا بفضل « كتاب » يعد في التشريع لاجتماعي من أمهات المصادر الفلسفية في التاريخ ، وصحبه من بعده لم ينجحوا إلا بقدر تمسكهم بالتعاليم التي حواها ذلك الكتاب ، ولم تتعثر خطواتهم إلا بقدر

تجاهلهم له وانسياقهم في طريق الارتجال والتلاعب بمقاصده وروحه .

ولينين أحدث ثورة بلغت بأمته في ظرف خمسين عاماً ما لم تبلغه أمم أخرى في ظرف خمسمائة عام بفضل فلسفة في السياسة والاجتماع فقد أكمل ما وصل إليه الفكر البشري في تطوره الطويل .

وديغول أنقذ أمته من الهاوية التي كانت تطل عليها بفضل تشبعه بفلسفة التاريخ التي جعل منها مناره في دفع أمته إلى ساحل النجاة والعظمة والاستقرار .

وتشرشل كان يعيش في وسط من العلماء والفلاسفة يناقشونه آراءه وسياسته فيتشبع منها بما يجعله هو نفسه من أبرز المفكرين في عصره .

وغاندي ومن بعده نهرو كانا يعدان ألمع المفكرين والفلاسفة في أمتهما بل في آسيا كلها . وفيدال كاسترو كان عنده شي غيفارا بمثابة أرسطو للاسكندر .

والأمثلة تطول بنا كثيراً إذا أردنا أن نستوعبها جميعاً . ولكنها كلها تنهض أدلة تاريخية على « واقعية » التفكير الفلسفي في السياسة لا على خياليته . ولكننا نحن العرب ـ ومعنا الأمم المتخلفة كلها ـ ما نزال ننظر نظرة ازدواجية لكل شيء : الدين في الكتب شيء وفي واقع الناس شيء آخر . واللغة التي نكتب بها في واد . والتي نتخاطب بها في واد آخر . والسياسة التي نسطرها في مواثيقنا ودساتيرنا غير السياسة التي نعيشها ونطبقها في واقعنا العملي . ومن هنا كان تعثرنا الذي نتخبط به في مكان واحد أكثر مما نسير خطوات إلى الأمام . ومن هنا كان تاريخنا منذ عصر الانحطاط إلى اليوم يتأرجح بين الانتفاضات الجنونية المرضية وبين الجمود والتعفن . أما السير الهادئ المتواصل فلم نعرف له أثراً في حياتنا .

قال الصديق : وماذا تقول الفلسفة في هذه الأوضاع التي نتخبط فيها ؟

قلت : كل هذه الفلسفات التي ذكرتها لك تقول ببساطة ما يلي :

ـ أولاً : نتعلم درس الأوضاع . (هذه أو غيرها) بفكر هادئ وحد أدنى

من النزاهة العقلية والخلقية .

ـ ثانياً : أن لا نترك مكاناً في أنفسنا للعاطفة الشخصية الأنانية بل ولكل عاطفة ما عدا العاطفة الوطنية الخالصة . لأننا عندما نفكر في شؤون الوطن يجب أن تذوب أمامنا كل الدوافع الأخرى الضيقة .

ـ ثالثاً : أن نعود الشعب على الاهتمام بشؤونه وأن لا ننصب أنفسنا أوصياء عليه إلى الأبد وذلك بأن نفسح له المجال للتعبير عن رأيه فيما سطرناه له من برامج أو دساتير حتى يعطى فيها رأيه ولو بصورة استشارية محضة في المراحل الأولى . وذلك بواسطة مندوبين يختارهم بنفسه في مختلف المستويات لأننا لن نوفق في اختيار ممثليه كما يوفق هو مهما كانت نوايانا حسنة وعزائمنا صادقة .

ـ رابعاً : أن نفسح المجال للطليعة الناشئة لشبابنا لأنها (مهما كانت عيوبها) فستكون أقل عيوباً ونقائص من جيلنا الذي حكمت عليه الظروف التاريخية الصعبة بالأمية ونمت فيه غريزة التهديم أكثر مما غرست فيه روح العمل والبناء .

ـ خامساً : أن يجعل الحزب في مقدمة أعماله وجهوده مهمة التفهيم والشرح والتوضيح لجماهيرنا التي لا تعرف شيئاً عن رسالة البناء والعمل هذه . والتي تبين أنها ناقصة التكوين فاقدة للتوجيه . وأن يعتبر كل المهام الأخرى ثانوية بالنسبة لهذه المهمة . قال الصديق : ولكني لا أرى أن في أوضاعنا الحاضرة ما يسمح لنا بتحقيق هذه الرسالة السامية التي تتصورها . وأرى أن وقتها لم يحن بعد بالنسبة للشعوب المتأخرة بصفة عامة .

قلت : هذا صحيح ، ولكن ما قلته لك ليس بالمستحيل التحقيق . إن هذه الرسالة رهينة بقيادة تشعر فقط بواجبها الوطني وتحمل عاطفة شعبية صادقة . وأحسب أن هذا الشرط متوفر لدينا ولو إلى حد ما .

إن القيادة التي ستتمكن من دفع البلاد في هذا الطريق سيحفظ لها التاريخ

أروع انتصار تحققه لشعبنا ، انتصار أروع حتى من الذي أنجزته بالاحراز على استقلال البلاد .

إن هذه الرسالة مهما كانت صعبة ، فانه لا مفر لنا من الالتجاء إليها اليوم أو غداً . وكلما أسرعنا إلى النهوض بها كلما وفرنا على شعبنا المآسي وأنرنا له طريق السلامة والطمأنينة والاستقرار .

ثلاثة أنواع من التربية

كانت الأمسية في منتهى الحرارة والثقل . والجو غائماً بخيوط بيضاء ملتفة بعضها على بعض كقطع من القطن المورد ببقايا أشعة من الشمس الغاربة ، والنجوم بدأت تتألق من حين لآخر وراء الغمام في حياء وتثاقل : أمسية شرقية حقاً لا ينقصها إلا صوت أم كلثوم وهي تغني « القلوب التي تميل على هبوب الهوى » في « شمس الأصيل » .

وكانت السيدة التي دعينا إلى بيتها قد أخرجت إلى الشرفة طعام العشاء لأبنائها الثلاثة حتى يناموا مبكراً ولا يحضروا سهرة التلفزيون . هي أم من نوع النساء اللاتي تعيش من أجل الأبناء . والأبناء هم فتاة ناهزت الخامسة عشرة طويلة القامة موفورة الصحة لا تقرأ إلا الروايات البوليسية لتنتقم من حرمانها من سهرات التليفزيون . وطفلة ثانية قاربت العشر سنوات شقراء مليئة الخدين ذكية النظرات لا يهمها إلا حديث الكبار وأخبار الجيران . وثالثهم صبي لم يتجاوز السابعة من عمره ثقيل اللسان لا يتحدث إلا بصعوبة ولكنه خفيف اليد في ضرب أختيه لأدنى سبب .

الأم كانت تحدثنا عن عائلة أجنبية زارتهم في بيتهم بدون قصد لأنها كانت مارة فقط عند الظهيرة ، فقالت : « في حياتي ما شفت هذا الهم : المطبخ تحول إلى ثكنة صغيرة أو عش من النمل . كل واحد من الأبناء الخمسة (ثلاثة صبيان وبنتان)يعمل : هذا يغسل الماعون وذلك يقشر البطاطا والثالث ينظف المائدة والرابع ينشف ما تم غسله من الأدوات والخامسة لا أدري ماذا كانت تصنع ، والأم كانت تعالج القدر بيد وتحضر السلطة بيد أخرى وفمها لا يتوقف عن الكلام واصدار الأوامر لهذا أو ذاك ، أو تهدده بأنه لن يأكل إذا لم يتم عمله في الوقت » .

ثم توقفت السيدة عن رواية القصة لأن ابنتها الكبرى أحست بصداع من فرط الحرارة فنهضت لتأتي بقرص مسكن أذابته مع قطعة من السكر في ماء مثلج وناولتها إياه وهي تبسمل وتدعو لها بالشفاء . ثم قالت لها البنت الثانية : ماما ! أنا لا آكل هذا العجين . أريد سلطة أو غلة . فنهضت الأم ثانية لتخرج من الثلاجة خوختين ملأتا وحدهما الصحن الزجاجي . وقالت لها : خذي يا روحي . ثم هبت باستئناف قصة العائلة الأجنبية عندما قاطعها الابن الأصغر بلهجة باكية : أنا لا أريد أن آكل شيئاً . أريد الماء فقط . وأخذت الأم تتوسل بلهجة تكاد تكون باكية هي أيضاً : لماذا يا بابا لا تأكل ؟ هل أنت مريض ؟ لا بد أن يكون لك التهاب في الحلق دعني أزن لك الحرارة ! فقال الطفل : لا . أريد أن أشرب فقط والعب مع أبناء الجيران . انظري انهم لم يدخلوا بعد إلى بيوتهم ، انهم يلعبون وأجسادهم عارية .

وكان أبناء الجيران فعلاً يلعبون في الشارع تحتنا . فالتفتت إلينا الأم ـ كما لو كنا نحن الذين اعترضنا عليها لا ابنها ـ وقالت : « في حياتي لم أر مثل هذا الهم . هؤلاء الناس لا يسألون عن أبنائهم أكلوا أم لم يأكلوا ، وذهبوا إلى المدرسة أم ذهبوا إلى الشيطان ، وناموا في بيوتهم أم في الشارع . كيف نأمل أن يكون لنا جيل في المستقبل يعرف النظام والامتثال ؟ ! » .

فقلت لها : أنت تفهمين التربية على أنها هي تعويد الأبناء على الطاعة والامتثال

وخصوصاً تعويدهم على أن يعولوا عليك في كل شيء : في احضار الطعام واحضار الدواء وتذويبه واعطائه جاهزاً لابنتك الصبية ، واحضار الغلة بنفسك إلى ابنتك الأخرى . ولا شك أنهم يقضون كامل يومهم في السأم من مراقبتك المستمرة ، وهذا خطر ولكن الأخطر منه أن ينتظروا منك أنت والخادم أن تفعلا كل شيء في البيت : الكنس والمسح وغسل الثياب والماعون والكي والمطبخ إلى آخره وتسمين كل هذا عناية بأبنائك ومثالية في الأمومة وحسن الرعاية .

والجيران يفهمون من التربية أنها تعمير البيت بالأولاد ثم دفعهم إلى الشارع يفعل فيهم ما يشاء : اللعب بالتراب والتقاذف بالحجارة والأوساخ وحفر أسس الجدران كالفيران وتبادل اللكم والشتم المقذع الذي ينتقل بسرعة إلى الأمهات وأحياناً إلى الآباء ثم ينتهي في الأخير إلى السجن أو المستشفى .

والعائلة الأجنبية التي حدثتنا عنها تفهم التربية على أنها تعويد للأبناء على العمل ، العمل الجماعي المنسق ، كل عضو يؤدي وظيفة في الحياة والنتيجة هي أن الطعام عندما يكون جاهزاً يكون ثمرة مجهود الجميع .

وتصوري الآن أن هذه الأنواع الثلاثة من التربية قد أنتجت مجتمعات ثلاثة مختلفة : سيكون مجتمع أبنائك أنت أناساً ممتثلين ولكنهم لا يعتمدون على أنفسهم ولا يقبلون المغامرة في سبيل العيش ، وهو مجتمع عندنا منه نموذج « طيب » اليوم مجتمع لا يعمل شيئاً ولكنه ينتظر كل شيء من الحكومة ومن الوظيف .

وإلى جانبه مجتمع جيرانك هؤلاء : لا نظام ولا عمل ، ولكن عبث وطيش وفساد ، مجتمع يغامر أفراده ، ولكنها المغامرة السلبية الاجرامية ، المغامرة من أجل النهب والتحيل ، وعدم الشعور بالمسؤولية .

هذه الأنواع الثلاثة من المجتمعات هي التي تشكل سكان العالم اليوم مجتمع متواكل طفيلي متمسكن يعمل فيه واحد ، ومائة يأكلون ، كما تعملين أنت الآن وحدك وثلاثة عاطلون يأكلون الطعام ويأكلهم السأم . ومجتمع يعيش عيشة

الحشرات والحيتان بدون قانون ولا هدف في الحياة . ومجتمع يعمل افراد •ينسقون عملهم المتكامل لأن عمل كل واحد جزء متمم لعمل الآخرين . تماماً كما يعمل الأعضاء في الجسم الصحيح . وكل هذه المجتمعات الثلاثة تبدأ من هنا ، من هذه الجلسة . من مثل هذه الأمسية من المطبخ والمدرسة والشارع .

أما بعد هذه اللحظة فان الأوان يكون قد فات ، والقطار يكون قد سافر !

كيف تموت الشعوب ..

تعريف صغير « بنيتشه » لعل بعض القراء لا يعرفونه : هو فيلسوف ألماني توفي سنة ١٩٠٠ . وهو من دعاة فلسفة القوة والقضاء على الضعفاء باعتبارهم يعرقلون الانسانية في مواصلة سيرها إلى الانسان الأعلى . كان لفلسفته تأثير عظيم في خلق الروح الوطنية الألمانية التي عرفت باسم النازية في عهد هتلر . كان يتهم المسيحية واليهودية بأنهما أدخلتا روح الخذلان والضعف في الدول الغربية ، ويتهم اليهود بالخصوص بأنهم استولوا على العقل في أوربا فخربوه بأخلاق عبادة المال بدلاً من عبادة القوة والقيم العليا .

قال نيتشه في فصل « الصنم الجديد » من كتابه المشهور « هكذا تكلم زراديشت » :

« لم يزل في بعض الأرض شعوب ومجموعات . أما نحن فليس عندنا سوى حكومات ... أعيروني أسماعكم لأخاطبكم عن موت الشعوب : إن الشعوب قد كونها المبدعون الذين نشروا الإيمان والمحبة فأتوا بأجل خدمة للحياة . وما ناصبو الاشراك للجماهير إلا أولئك الذين يهدمون كيانها ليشيدوا الحكومات على أنقاضها

ويعلقوا سيفاً قاطعاً فوق رأس الشعب وينصبوا مئات الشهوات أمام عينيه .

إن الحكومات تنهش بأسنان مستعارة ، وأحشاؤها مصطنعة اصطناعاً ... ان عدد من يدخلون الدنيا قد تجاوز الحد ، وما أوجدت الحكومة إلا لخدمة الدخلاء على الحياة .

وكل الراكعين لها هم من ذوي الآذان الطويلة والأنظار القصيرة ... إن الحكومة تعرف كيف تدغدغ نفوسكم الأبية وقلوبكم الطافحة بالمكارم ، انها تخترق سرائركم ، أنتم أيضاً ، يا من تغلبتم على الألوهية القديمة ، فهي تعرف أنكم تعبتم من الكفاح فتستخدم ملالكم لعبادة الصنم الجديد : انه صنم يتمنى أن يحيط به الأبطال وفضلاء الرجال ، انه مسخ بارد يريد أن يدفأ بشمس الضمائر الحية المتدفقة بالحرارة .

انه يمنحكم كل شيء إذا أنتم سجدتم له . فهذا الصنم الجديد يشتري لمعان فضائلكم وما في نظراتكم من عزة وكرامة . انه في حاجة إليكم ليجتذب إليه العدد الفائض من الدخلاء على الحياة ، فعنده الأبراج الجهنمية وخيول الموت التي تقرقع لكم بشارات المراتب والمناصب . انه البركة الآسنة التي يريدكم أن تكرعوا سمومها ليضيع كل إنسان نفسه فيها .. انه ذلك الانتحار البطيء الذي يسمى الحياة .. انظروا إلى هؤلاء الدخلاء كيف يلتفون حول هذا الصنم ويحشدون الأموال ، وكلما زادت أموالهم وذخائرهم زاد فقرهم. فهم يطمحون إلى الاستيلاء عليكم فيبدؤون بالقبض على المحرك الأول للقوة ، وهو المال ، والقابضون عليه هم الدخلاء على الحياة .

أعيروني أسماعكم لأخاطبكم كيف تموت الشعوب ! وانظروا إلى هؤلاء الدخلاء على الحياة ، إلى هؤلاء القردة يتسلق بعضهم بعضاً ويتدافعون متمرغين في الأموال التي ترمي بهم في الهاوية .. إن كلاً منهم يطمح إلى التقرب من العرش وقد عراهم جنون التوصل إليه . فكأن لا سعادة إلا بالقرب منه . وقد يرتفع رشاش الأوحال إلى العرش كما ينزلق العرش نفسه إلى الأوحال .

انني أراهم ـ وقد جن جنونهم ـ قروداً لا تسكن لهم حركة وهم يتسلقون قاعدة صنمهم الجديد الذي انبعثت منه الروائح الخبيثة » .

هذه فقرات من فصل « الصنم الجديد » . أعتقد أن القارئ لا يغمض عليه أن الفيلسوف الألماني الكبير يقصد بالصنم الجديد ما كان يسمى في القديم بعجل الذهب ، وكل من الصنم الجديد والعجل القديم هو المال الذي توزعه الحكومات على ذوي الضمائر الخربة ليفسدوا به أخلاق الشعوب ويميتوا فيها الأشواق إلى معاني الحياة السامية .

ولا يغمض على القارئ أيضاً أن هذا الصنم الجديد يجد عبادة في عالمنا اليوم أكثر مما كانوا في العصور القديمة بما فيها عصر نيتشه نفسه لأن هذا الفساد للضمائر أصبح اليوم يمارس على نطاق عالمي : فكل شيء اليوم يباع ويشترى بالدولار في أغلب أنحاء العالم . فأنت تستطيع بالدولار أن تشتري العلماء والمؤسسات الصحفية وأفكار الفلاسفة وحتى النكات المضحكة . وكل هؤلاء القردة مسخرون لقتل الشعوب وإلهاء تفكيرها بالمغريات المعنوية والمادية حتى لا تنتبه إلى أنها هي أضخم بضاعة معروضة في أسواق الحكومات التي لا تعبد من الآلهة إلا المال .

أما الطريف بالنسبة إلينا نحن العرب فهو أن المرحوم فيليكس فارس في الترجمة العربية لهذا الكتاب علق على بعض هذه الفقرات بقوله : « إن نيتشة يعالج في هذا الفصل القضية الكبرى في مدنية الغرب ، وقد نشأت من استخدام أصحاب الأموال لنتاج عبقرية المخترعين وجهود المكتشفين في سبيل حشر الثروات الطائلة والتسلط بها على الحكومات . وقد أصبحت مدنية الغرب من هذا الوضع الشاذ في حلقة مفرغة تبتدئ حيث تنتهي بين ملوك الحكومات وملوك المال . وليس ، والحمد لله . في الشرق مثال لهؤلاء الملوك » . على أي شيء يدل هذا التعليق ؟

إن ما كتبه نيتشه في فصله وما كتبه فارس في تعليقه ليس بينهما أكثر من أربعين سنة من الزمن . فهل كان نيتشه أكثر تفطناً في عصره لما يجري في عالم

الحكومات المتعفنة من فليكس فارس وأكثر الماماً وأعمق تكويناً في المجال السياسي أم أن الطاهرين من مثقفينا أنفسهم لا يختلفون عن جماهيرنا الجاهلة في التشبث بالأحلام العنكبوتية والاعتقاد بأننا أحسن الأمم ، وملوكنا وحكوماتنا « والحمد لله » أفضل من حكومات « الغير » ؟

عندما كنت أكتب هذه الأسطر كنت أستمع إلى إذاعة فرنسية تعلن عن حكم أصدرته احدى هذه الحكومات « الفاضلة » عندنا على شاب شارك في مظاهرة ضد الصهيونية بعشرين سنة سجناً !

هكذا تقتل الشعوب عندنا تقرباً للصنم الجديد . « لتبقى الحكومات وحدها بدون شعوب ! وتعلق السيف القاطع فوق رأس الشعب » .

أليست هذه هي الحكومات التي « تنهش الشعب بأسنان مستعارة لتملأ أحشاء مصطنعة ؟ »

أليسوا « هم الدخلاء على الحياة الذين تتصاعد منهم الروائح الكريهة ؟ » .

انهم هكذا يريدون قتل الشعوب . ولكن هكذا تحيا الشعوب !

حياتنا النفسية قبل الثورة واليوم

هل الفترة التي تفصل بين نوفمبر ٥٤ وذكرياته بعد الاستقلال . في امكانها أن تفسح لنا مجالاً للحديث عن تطور نفسي حصل لنا خلالها ؟

إن هذه الفترة من حيث الزمن لا تعد شيئاً في حياة الشعوب ، ولكن ما حصل خلالها من أحداث في حياة شعبنا ـ أي مضمون هذه الفترة من الأحداث ـ هو الذي يصح أن يكون له تأثير في هذا التطور .

ثم في أي اتجاه حصل هذا التطور ؟ هل هو في اتجاه التقدم أم التدهور ؟ اننا كثيراً ما نسمع الناس في بعض حالات الغضب أو الخيبة أو اليأس يأسفون على العهد الذي كنا نعيشه تحت الاستعمار . فهل لهذا التأثر من مبرر حقيقي ؟ وإذا كان له مبررات فما هي ؟ أم ان تلك الحالات النفسية التي تعرض لنا هي حالات طبيعية في مثل وضعنا ؟ وانها هزات عابرة تعبر عن عاطفة حادة أكثر مما تعبر عن « موقف » حقيقي ؟ وإذا كان السبب هو الأول أو الثاني فما هو ؟

انه لا بد لنا أن نحصر الموضوع في هذه الأسئلة حتى لا نضيع في متاهات التحليلات النفسية المعقدة التي هي من أصعب ما يتناوله المرء لفهم تنقلات الشعوب

أو الأفراد من حال إلى حال . وكل من علم النفس وعلم الاجتماع يحسدان علم الفيزياء أو الكيمياء على تقدمهما لأن هذين الأخيرين يبحثان « مواد جامدة » ـ أو هي على الأقل تبدو كذلك نسبياً ـ بحيث تسهل السيطرة عليها في المخابر وتحليل أجزائها وعناصرها في هدوء وتثبت .

أما « مواد » النفس أو الاجتماع فهي متحركة دائماً لا يتمكن العالم من ضبط بعض حالاتها حتى تكون قد تحولت إلى حالات أخرى . وهذا ما يجعلنا نحاول حصر الموضوع في هذه الأسئلة القليلة ، كما سنحاول أن لا نخرج عنها معتمدين على بعض الأمثلة فقط لضيق النطاق .

قلنا ان ما حصل في حياة شعبنا من أحداث في هذه الفترة القليلة من الزمن هو الذي حوله من حال إلى حال .

وما حدث في هذه الفترة هو أكبر انقلاب عقلي واقتصادي واجتماعي حصل في تاريخنا منذ الفتح الاسلامي إلى اليوم . والانقلاب في هذه الميادين الثلاثة له تأثيره الحتمي على حياتنا النفسية دون منازع .

١ - انقلاب عقلي لأن مفاهيمنا للحياة تغيرت في هذه الفترة تغيراً عميقاً . كثير من الأشياء التي كنا نظنها مستحيلة ، اكتشفنا انها ممكنة . واعتمادنا على أنفسنا كنا نعتقد أنه يصلح للدعاية ولتحميس الشعب في فترة محدودة من الزمن لعل عوامل أخرى خارجة عن امكانيات الشعب تتدخل لتحقيق مطامحنا ، وإذا الذي تحقق هو أن أصبح هذا الاعتماد على أنفسنا حقيقة لها نتائج مادية لم نكن نتصورها ، كما أصبح إيماناً له من النتائج ما ليس للعوامل الخارجية التي لم يكن تأثيرها إلا ثانوياً ومحدوداً . وكثيراً ما تتحول الوسائل إلى غايات في حياة الناس . قال الغزالي : « قرأنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله » !

هذا جانب إيجابي في الاعتماد على النفس لنجاح الثورة . ولكن ينبغي أن نذكر أيضاً أن هذا الجانب الإيجابي كان يقابله جانب سلبي هو أن نجاحنا بفضل

تضحياتنا الكثيرة وصمودنا للأهوال جعلنا نعتقد أننا قادرون على كل شيء . أي أورثنا غروراً خطيراً . وأصبحنا لا نعير للتواضع معنى ، بل نعتقد أن من اضطلع بالمعركة التهديمية يستطيع من باب أولى أن يقوم بمعركة بنائية فيقيم مصنعاً أو يسير إدارة بريد أو بلدية أو وزارة . وقد كلفنا هذا الغرور ثمناً غالياً في الاقتصاد والإدارة انعكس على نفسيتنا وأورثنا خيبة مبالغاً فيها أيضاً .

٢ – وانقلاب اقتصادي . كنا قبله نعيش على الكفاف والحرمان وضيق الأفق . ثم وجدنا أنفسنا فجأة فيما كان ينعم فيه المستعمرون من أراضٍ خصبة وحدائق وعمارات وآلات وأجهزة على أحدث طراز . واستطاع « الماهرون » منا أن يصيبوا من الغنائم سهم الأسد . ولكن الآخرين ــ الخجولين لم يحصلوا حتى على سهم الأرنب . فتكون الحسد . وتحول تضامن الأمس بين الغني والفقير إلى أنانية تأكل الكبير والصغير . وقديماً قال النبي عليه الصلاة والسلام : لست أخشى عليكم الرجوع إلى الوثنية من بعدي . بل أخشى عليكم اقتسام الغنائم ــ أو كما قال : ولا نستطيع أن ننكر أيضاً أن الكثيرين منا ــ وهذا أمر بشري وطبيعي ــ كان يغذي في أعماق نفسه أحلاماً خفية تختلف من شخص إلى آخر . ولكن المؤكد أننا جميعاً لم نربط بين امكانياتنا وأحلامنا بأي سبب ، وسواء حقق الكثيرون أو القليلون أحلامهم ، وسواء حققوا منها أقل مما كانوا يتصورون أو أكثر ، فالمهم والمؤكد هو أن الوضعية المادية الجديدة التي وجدنا أنفسنا فيها قد فتحت فينا شهوات وفتحت لنا آفاقاً تجاوزت حد المعقول إلى حد الافراط . وسرعان ما تحولت القناعة القديمة والحرمان والكفاف إلى ضدها من الشراهة والاسراف الأحمق . وكلما ازداد ابتلاعنا بعد الجوع الشديد كلما قلنا هل من مزيد ؟ وبقدر ما كان الكفاف في عهد الاستعمار يحملنا على الصبر ، أصبحت الشراهة في عهد الاستقلال تثير فينا كثرة التشكي والشعور بالقلق . وعندما نأسف في بعض الأحيان على عهد الأستعمار فانما نأسف دون وعي منا ــ على صبرنا المطمئن الذي كنا نشعر به في عهده ، وليس على الحرمان الذي كنا نقاسيه .

وهكذا تنعكس الأوضاع المادية على الحالات النفسية . وهكذا أيضاً كتب على

الإنسان في الحياة أن يدفع ثمن حياته : إما جحيم الحرمان يخفف من وطأته الشعور بالطمأنينة . واما جنة المتاع التي يثقل من جوها الشعور بالقلق المرير .

٣ – انقلاب اجتماعي . تمثل بالخصوص في تمزق الحصار الذي كانت تضربه حولنا السلطات الفرنسية . فلا نعرف من العالم أحداً . ولا يعرف بعضنا بعضاً إلا قليلاً . ولا نعرف من بلادنا وتاريخنا شيئاً يكاد يذكر . كل الحجب التي كانت تخفى عنا هذه الآفاق تمزقت في لحظة واحدة . فأصبح الكثيرون منا يعرفون العالم الخارجي ، وأصبح القروي والبدوي متوغلاً في أبعد آفاق التفتح والاطلاع . وكل هذا استوجب حاجات جديدة لم نكن نشعر بضرورتها من قبل ، وأدخل معه قلق الحضارة دون تدرج في التعود بها . فوجدنا أنفسنا فجأة نعيش بالنفسية القبلية والعقلية الريفية والتصرفات الفردية في عمارات حديثة ومعامل معقدة ووسائل انتاج ضخمة وقوانين لا ندري لماذا تطبق علينا ولماذا نطبقها .

يضاف إلى كل ذلك ، أو في مقدمة كل ذلك ، حرية لا حد لها ، بعد استعباد لا حد وراءه . حرية لم يكن لنا حتى الوقت الكافي لندرك أنها تستوجب مسؤوليات وتبعات . فخلطنا بينها وبين الفوضى ، ولم نميز إلا قليلاً بين واجباتنا وحقوقنا فيها . وعندما نصطدم بالواجبات نشعر أنها قيود لا مبرر لها . وأصبح يبدو لنا القانون ظالماً عندما يأتي من سلطة وطنية ـ بقدر ما كان عادلاً وطبيعياً عندما كان يأتينا من سلطة الاستعمار .

وكل هذا يشترك فيه الحاكم والمحكوم ، والمثقف والأمي مع تفاوت في حالات فردية لا تغير شيئاً من القاعدة العامة .

فإذا أردنا إذن أن نلخص السبب أو العوامل التي طرأت على حياتنا في هذه الفترة والتي حصل لنا بموجبها الانقلاب الهائل الذي يجتازه مجتمعنا منذ قيام الثورة إلى اليوم ، والذي وضع حداً فاصلاً بين حياتنا برمتها قبل ١٩٥٤ واليوم ، يمكننا أن نلخصها في الفجأة والقفز المباغت من الضد إلى الضد ، وليس هنا موضع الحديث عن السبب السياسي لهذه الفجاءة فهو يرجع كله إلى طريقة الاستعمار في حكمنا

ورد الفعل من جانبنا . ولكن المهم هو أن ندرك أن التغير النفسي الذي حصل لنا ـ إذا اعتبرنا عوامله وأسبابه الموضوعية ـ نجده تغيراً طبيعياً لا يمكن إلا أن يكون كذلك . لقد أصبحنا اليوم . وبفضل ثورة نوفمبر وحدها ، نطمح إلى آفاق أخرى بعد التي مزقتها الثورة . وفتحت بها لنا آفاقاً جديدة ، والآفاق عندما تتفتح أمام الفرد وأمام المجتمع لا حد لها ولا آخر . ولكن بقدر ما يكون انغلاق الآفاق داعياً إلى الانكماش والقناعة والصبر والرضى ، بقدر ما يدعو التفتح إلى التوسع وتوالد الحاجات واحتقار القناعة ونفاد الصبر والسخط على الموجود والطموح إلى ما لم يتحقق بعد .

إن الاستقرار الفكري سيكون نتيجة لتعودنا بالحياة الجديدة . والاستقرار النفسي كذلك . ولكن سيبقى استقراراً نسبياً . لأن الحياة الجديدة التي أصبحنا نشارك فيها العالم بفضل الثورة ، هي بطبيعتها حياة قلق عبرت عنها الفلسفة الوجودية في عصرنا أصدق تعبير . ولكن يكون شرفنا أننا نشارك عالم الأحياء في قلقهم ، أفضل من العيش مع الأموات في طمأنينتهم . وهذا هو الفرق النفسي ، بين حياتنا قبل الثورة واليوم .

مشكلة ازدهار .. ولا حل لها !

كنت أنتظر واقفاً مع المنتظرين أن يفتح باب المدرسة لأول مرة في حياة الأطفال « الجدد » كما يسمونهم في الاصطلاح المدرسي . وكان عشرات آخرون من آباء التلاميذ وأمهاتهم موزعين أمام المدرسة زرافات ووحدانا ، وكل منهم ممسك بيد طفله أو يرعاه عن قرب ، وهذه من المرات النادرة التي أرى فيها أطفالنا في مثل هذا التجمع ولكنهم لا يصرخون ولا يصيحون ، ولا يتقاذفون بالحجارة أو يخيف بعضهم بعضا بخشاش الأرض أو فتات المزابل .. بل كانوا « عاقلين » وأكثرهم ساهمون واجمون تعلو وجوههم الصغيرة ، علامات الرهبة . سألت ابني : هل أنت خائف ؟ فأجابني بابتسامة صفراء : « شوية برك » ! ففهمت عندئذ أن ذلك الهدوء لم يكن « عقلا » بل كان خوفاً ، لقد غطت سحابة الخوف على وجوههم كل الملابس الجديدة ولمعانها .

وعند باب المدرسة اصطف فريق من النساء جالسين (أو جالسات) على عتبة الباب وقد تدلت لحافاتهم فغطت أرجلهم وراحت تداعب التراب وتثير الغبار .. وكانت احداهن منهمكة في حديث « سري » مع جارتها . والأخرى مصغية إليها باهتمام كبير . لم أنتبه لكل هذا إلا بعد أن رفعت المتكلمة صوتها فجأة

وقالت لصاحبتها المصغية : « ان ابني عمره ست وعشرون سنة وله ـ تبارك الله ـ ست أولاد ! » .

لم يبد على المصغية أي اندهاش . لقد سمعت خبراً ليس من غرائب المخلوقات ولا من قبيل « صدق أو لا تصدق » ، بل أمنت على قول صاحبتها بأن رددت هي أيضاً : تبارك الله ! فرددت عليها المتكلمة من جديد بقولها : « الله يزيدو خيتي . أنا نحب الذراري » ! تفرست في وجه المرأة أو بالأحرى فيما تبقى منه خارج البرقع فرأيت عينين غائرتين تحوط حدقتيهما صفرة دكناء وقد علاهما جبين لم يتجعد كثيراً رغم فحوله واصفرار بشرته . ولكن تبدو عليه آثار التعب والارهاق والمرض المزمن الطويل

حاولت أن أحدد لها عمراً فلم « أعطها » أكثر من أربعين عاماً ، ووجدتني أقول أنا أيضاً بيني وبين نفسي : « تبارك الله ! أي شعب ينتصر علينا في هذا الانتاج الوطني المزدهر .. انتاج الأطفال » وانتقلت بسرعة إلى التفكير في المرأة الأوربية : عند الأربعين سنة تكون قد أنجبت طفلها الثاني أو الثالث والأخير ، وأعطت لنفسها مهلة بين الطفل والطفل تتمتع فيها بالحياة وتعتني بالمولود لتخرجه صالحاً قبل أن « تردمه » بخمسة آخرين فيضيعون كلهم في الشارع وفي الاهمال . ثم تذكرت بسرعة أيضاً خطاب الأخ طالب أحمد قبل ذلك بيومين فقط وهو « يبشرنا » بأن خمسين في المائة من أطفالنا يجدون الآن أماكنهم في المدرسة . وبأن هذه النسبة كانت منذ حوالي عشر سنوات فقط أربعة عشر في المائة ! وقلت أنها مسابقة حقيقية تجري بين ميزانيتنا التعليمية وجهودنا في تكوين المعلمين وبناء أقسام ومدارس جديدة والاستنجاد كل عام بمعلمين آخرين من الشرق والغرب ، من جهة . وبين انتاجنا الوطني المزدهر في الأطفال من جهة أخرى فأي المتسابقين سينتصر ؟

اني لا أعرف الحديث بالأرقام . ولكن الذي أعرفه هو أن كلمة « تبارك الله أنا نحب الذراري » ستكون هي الكلمة المنتصرة . ولن يستطيع ألف أحمد طالب ومن ورائه هيئة التغذية الدولية وكل المعاهدات الثقافية التي نعقدها مع الشرق

والغرب لانجادنا بالمعلمين والكتب . وربع ميزانية الدولة المخصصة للتعليم وحده . لن يستطيع كل ذلك أن « يغطي » ما تنتجه هذه الكلمة الصغيرة وما تخفيه وراءها من عقلية قبلية ما تزال تنظر إلى انجاب الأطفال على أنه عملية بركة وخير وتكاثر . كما كان الأمر قبل قرون عندما كانت العائلة أو القبيلة كما يقول ابن خلدون لا تحميها الدولة ولا أسوار المدينة . بل يحميها أبناؤها الكثيرون الأشداء !

إن الواقع الذي نعيشه اليوم في حياتنا اليومية لم يستطع أن يمحو من ذاكرتنا الجماعية هذه العادة المستحكمة . الواقع اليوم هو أن الطفل الواحد لكي يكون صالحاً لنفسه ولعائلته ولوطنه يجب أن يعتنى به من قبل الولادة وبعدها وأثناء الرضاع وبعده وعند دخوله المدرسة الابتدائية إلى أن ينهي تعلمه . عناية لم نكن نتكلفها لعشرات أمثاله منذ قرون .

والواقع اليوم يقول إن طفلاً واحداً صحيحاً جسمياً وأخلاقياً وفكرياً هو أجدى وأكثر سعادة من عشرة أولاد مرضى في أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم . وحتى عندما يكبر يجد بلاده في حاجة إلى واحد فقط وهو مهندس أو ضابط أو مدرس أكثر من حاجتها إلى عشرة أميين لا يعرفون ما يصنعون بحياتهم . والواقع اليوم يقول إن الدولة أو المدرسة تستطيع أن تعتني بقسم فيه عشرون طفلاً . أحسن مما تستطيع الاعتناء بقسم يضم ستين طفلاً نضطر لأن نجند لهم المعلمين الصالحين وغير الصالحين ويصبح كل همنا منصرفاً للعناية بالكم على حساب الكيف .

إن الهوة سحيقة بين إمكانياتنا في الميزانية والاطارات . وبين سيرتنا القديمة في انجاب الأولاد بدون حساب . فكيف العمل ؟

انه لا أحد منا يجرؤ على أن يقول للشعب قللوا من عنايتكم بكمية الأولاد وأكثروا من عنايتكم بكيفهم . ثم انها ليست مشكلة الجزائر وحدها . انها مشكلة العالم المتخلف ككل ، وهي من أقسى وأمر مشاكل التخلف : نكثر من الأولاد لأنهم المصدر الوحيد لفرحتنا العائلية . ونكثر من الأعراس لنفس السبب . ثم نكثر من التوجع لفقد أولئك وطلاق هؤلاء .

انا نعبث ولا نحيا !

وحياتنا العابثة هذه هي التي قال لنا عنها المعري : لدوا للموت وابنوا للخراب !

إذن ما الحل ؟

إن المشكلة هي أن الحل لو كان في يد المسؤولين لهان الأمر ، ولتفطنوا له اليوم أو غداً . ولكن ما الحيلة عندما تكون المشكلة التي يعانيها الشعب لا يستطيع حلها إلا الشعب وحده ! ؟

إنه من النادر أن نجد الازدهار في الانتاج يخلق مشكلة . ومشكلة انتاجنا نحن في الأطفال هي من تلك النوادر التي لا تسر !

في الأبدية

الوقت لا قيمة له : « انهم يعيشون في الأبدية » . كنت أطالع مقال الأخ باهي محمد عن بلد عربي يعيش في حالة حرب ، عندما مررت بهذه الكلمة المؤلمة .

وسرعان ما تحرك قانون تداعي الأفكار فتذكرت هذه القصة التي سمعتها من صديق طبيب منذ حوالي عشر سنوات . قال : « في أيام الحرب العالمية الثانية تخرجت طبيباً من جامعة برلين وحالت ظروف الحرب دون خروجي من ألمانيا . فبقيت أعمل في إحدى مستشفياتها . وفي إحدى الليالي لم تترك لنا الطائرات الأميركية مجالاً للنوم . وفي الصباح وصلت إلى المستشفى متأخراً عن الوقت بعشر دقائق . فما راعني إلا أن دعيت من طرف مدير المستشفى الذي بادرني بعد التحية بالسؤال عن سبب تأخري ؟ فقلت : تسألني عن السبب كأنك لم تنم معنا البارحة في برلين ولم تر ما قاسيناه من قصف طول الليل . فقال : بلى كنت معكم ولهذا السبب أسألك لماذا تأخرت أنت ولم يتأخر الآخرون ؟ فقلت : هذا صحيح فقال : ولكن ليس هذا هو المهم . بل تصور أن في هذا المستشفى مائة طبيب وتأخر كل

واحد منهم عشر دقائق فكم يكون المجموع ؟ ثم ضرب نتيجة عملية الضرب في عدد المستشفيات الموجودة في ألمانيا وما تحتويه من أطباء تخلفوا كلهم ـ على سبيل الفرض ـ عشر دقائق في نفس الوقت ومن أجل نفس السبب أو سبب يتصل به من ظروف الحرب . إن مجموع الوقت سيحسب طبعاً بالأيام بل بالأسابيع . وأخيراً كم مريضاً ، وخاصة كم من جريح ـ في ظروف الحرب ـ يمكن أن يموت بسبب تخلف الأطباء .

قال الصديق المتحدث : وهكذا وضعني المدير المذكور أمام أكداس من جثث الموتى كنت أنا المسؤول عن موتهم بسبب تأخري عشر دقائق عن موعد العمل .

فرد أحد المازحين معنا على القصة بقوله : لعن الله الكفار ، ما كل هذه العبادة للوقت ؟ فليأتوا عندنا نعطيهم من هذا الوقت ما شاؤوا . إننا هنا لا نعرف كيف « نقتله » ريثما يحل المغرب في .. رمضان !

حديث ومفاهيم

هو عامل بسيط في محطة لبيع البنزين .. تبدو عليه كل علائم النضج والكهولة .. وشيء غير قليل من الغم يستره بابتسامة مصحوبة بـ « لاباس . الحمد لله » ، عندما يسأله أحد : « واش الأحوال » ؟

قلت له : مالك لا تشتغل اليوم ؟

قال : لقد قضيت اليوم كله بحثاً عن الأوراق اللازمة لأقدمها إلى المستشفى حيث تلد زوجتي .

قلت : وهل أنت متزوج ؟

قال لي : ولي أربعة أبناء .

ـ : كم عمرك ؟

ـ : ثلاثة وعشرون عاماً .

ـ : يا لله . ألا تشعر بأن الأبناء اليوم كلفتهم غالية الثمن ؟

ـ : وماذا أفعل ؟ هذه مشيئة الله .

ـ : ولكن لا بد من تنظيم حياتنا حسبما يقتضيه تطور الحياة ؟

ـ : نعم . انك تذكرني بكلام أحد زبائننا الأوربيين إذ قال لنا يوماً ونحن نتحدث عن الأبناء : « أنتم المسلمون تكثرون من الأبناء ، وتقضون حياتكم في توفير بيت يرثونه عنكم ، ظانين أن ذلك هو أول ما يلزمهم في الحياة من بعدكم . ولكنهم عندما يكبرون وليس لهم إلا ذلك البيت فانهم يتزاحمون عليه بأبنائهم وزوجاتهم وتكثر بينهم المشاحنات وتنتهي إلى القسمة والتشتت .

أما نحن فاننا أولاً : لا نكثر من الأولاد ، وذلك حتى نستطيع أن نعلمهم ونعدهم للحياة ، وثانياً لا نحرمهم من شيء لأن كل ما نملكه ننفقه في إرضاء رغباتهم لأننا نعرف أننا لن نترك شيئاً يرثونه من بعدنا إلا صنعة تعلموها أو شهادة علمية يتوظفون بها . وعندما يكبرون لا يتزاحمون على شيء لأن كل واحد منهم مستقل بعمله ومهنته عن الآخر . »

قلت : لمحدثي الشاب : وما رأيك في هذا الكلام ؟

قال : انه كلام صحيح ، لأنهم وجدوا من يعلمهم ذلك وينظم حياتهم وتفكيرهم . أما نحن فاننا كنا مهملين لم يوجهنا أحد ولم يهتم بتعليمنا . إن كل ما نتمناه هو أن يتعلم أبناؤنا اليوم ويفهموا الحياة كما يفهمها الأوروبيون ، حتى لا يذوقوا في المستقبل ما نذوقه نحن اليوم ! »

كم نشعر باحتقار لثقافتنا التي لم نعرف بعد كيف نفيد منها شعبنا في هذا التوجيه يتلقونه صدفة من احتكاكهم بالأجانب !

يجب ولا يجب

قال الفيلسوف الانكليزي « بنتام » :

« إن سر الجبروت والكسل والجهل قائم في كلمة واحدة ، كلمة خداعة آسرة يجب أن نكشف عنها القناع ونفضحها ، وهي كلمة « يجب » أو « لا يجب » . فمن سلطة المتكلم المتعجرف نبتت هذه الكلمة وتجمعت حولها سحابة من الغموض والابهام ، فتسببت في وضع المجلدات الكثيرة لتبديدها .. لقد أصبحت هذه الكلمة تحمل معنى كريهاً منفـراً ، ومهما بلغ حديثنا عنها وتكرارنا لها فانها لن تصبح قاعدة للسلوك الصحيح .. إن الذي يكثر من الحديث عن « يجب ولا يجب » يستكين إلى مقعد مريح يطمئن إليه ، ثم يأخذ في نثر آراء قاطعة جازمة في كبرياء وصلف ، ولكنه لا يعمل بما يقول ! »

ونحن يجوز لنا أن لا نأخذ برأي « بنتام » في حذف كلمة « الواجب من قاموس » الحياة ، لأن لهذه الكلمة سلطانها الذي لا شك فيه ، وانها ان لم تؤثر في الكبار المجربين إلا قليلاً ، فانها هي أساس التربية للأحداث وضعاف العقول على الأقل ، ولأننا أخيراً لا نستطيع أن نستبدل بها ـ لدى جميع الناس والشعوب ـ

طريقة الشرح والتفسير والتعليل التي لا قبل للناس بالأخذ بها .

ولكن عدم أخذنا بهذا الرأي على علاته لا يسمح لنا بأن نتجاهل ما فيه من نصيب كبير من الحقيقة .

كان « بنتام » يفكر على هذا النحو في القرن الثامن عشر . وكان الاتجاه في أوربا كلها متأثراً بهذه الطريقة في العلم والتفكير ، وهي طريقة البحث عن أسباب ما هو واقع بدلاً من الاكتفاء بمحاولة تغيير النتائج بالوعظ والارشاد وتوزيع الوصايا دون بحث في الأسباب الطبيعية التي أدت إلى تلك النتائج .

ونحن اليوم ما نزال متخلفين عن القرن الثامن عشر في ميدان التفكير وتنظيم التفكير ، وما نزال مكتفين « عن عجرفة وكسل » بكلمة يجب أن نفعل كذا ولا يجب أن نفعل كذا دون بحث في الأسباب التاريخية أو الاجتماعية أو الطبيعية التي جعلتنا نتصرف على هذا النحو أو ذاك في حياتنا الخاصة أو العامة تصرفاً يثير حساسية أصحاب الوعظ والارشاد ويدفعهم إلى مخاطبتنا بيجب أو لا يجب دون أن يعبؤوا بثقل هذه الكلمة على نفوسنا .

قلت انه يجوز أن لا نأخذ برأي الفيلسوف الانكليزي على علاته لأننا نعتقد بأن كلمة « يجب أو لا يجب » لها دور تؤديه في حياتنا ، بل هي قد أدت دورها كاملاً رائعاً في فترات ناصعة من تاريخنا عندما كان الذي يقول يجب أن نفعل كذا أو لا نفعل كذا انما يتجه بهذه الكلمة إلى نفسه أولاً وإلى الناس بعد ذلك . كانت الأوامر التي يصدرها الأنبياء والوصايا التي يبثها المصلحون يعملون بها هم أنفسهم قبل غيرهم ، بل كانوا يعتمدون في تربية الناس لا على الوصايا والأوامر بل على عملية التقليد التي يقوم بها الناس لما يفعلون هم بوصاياهم وأوامرهم . أما بعد أن أصبحت النبوة والاصلاح تجارة فانه لم يبق لكلمة يجب أو لا يجب أي دور أو فاعلية . وهنا فقط تأخذ كلمة « بنتام » كل قوتها وواقعيتها الأصيلة . وأصبح استبدال طريقة الوعظ بطريقة التحليل والتفسير هي الطريقة العلمية الوحيدة الموصلة إلى النتائج العملية .

ومن الطبيعي أن لا نهضم هضماً كافياً هذه الطريقة التي ليس فيها مع ذلك من جديد إلا بالنسبة إلينا . أما في العالم المتحضر فقد أصبحت هي الطريقة العادية الطبيعية التي لا تفهم الأمور بدونها ، ولا يفكر أن يعمد إلى غيرها ، كاتب أو مدرس أو صحفي بحيث لم تبق عندهم طريقة الوعظ والارشاد رائجة إلا في المعابد المقفرة .

هذه الطريقة لم تهضم عندنا بعد لأن كثيراً من القراء لم يترددوا في ابداء استغرابهم من بعض « المزاعم » التي وردت في بعض هذه الأحاديث وشافهوني بذلك.

وقال لي أحدهم : كيف تزعم لنا بأن انتصارنا على اسرائيل لا بد أن يمر ـ شئنا أم كرهنا ـ باصلاح العربية ؟ هل انتظرنا نحن اصلاح العربية أو حتى مجرد تعلمها لكي نحارب الاستعمار الفرنسي وننتصر عليه ؟

وهذا الرد يظهر سليماً لا غبار عليه . ولكن لنتفحص الأمر بشيء من العمق .

صحيح أننا انتصرنا على الاستعمار الفرنسي في المعركة المسلحة الشعبية ـ وإن كنا لم ننتصر عسكرياً ـ ولكن هل تبع ذلك انتصار في التفكير والثقافة واللغة ؟ بعبارة أخرى هل كان مثيلاً لانتصار الفياتنام على الاستعمار الفرنسي في مجال المعركة الشعبية المسلحة وفي مجال التفكير والثقافة واللغة معاً ؟

وهل كان انتصارنا من نوع انتصار الثورة الروسية على النظام القيصري والحلفاء الغربيين الذين ساندوا ذلك النظام وقاوموا الثورة ؟ أو من نوع انتصار نفس الثورة في الصين على نظام تشانكاشيك ونفس الحلفاء الذين ساندوا ذلك النظام وقاوموا الثورة ؟

الفرق بين انتصارنا نحن وانتصار هذه الثورات المذكورة هو أن انتصارنا كان جزئياً تناول المعركة المسلحة الشعبية وحدها وبقي نظام العمل الإداري وطريقة التفكير عند المسؤولين وسير الثقافة ولغة الثقافة على ما كان عليه قبل المعركة المسلحة في حين أن انتصار الثورة في كل من روسيا والفياتنام والصين كان انتصاراً شاملاً :

عندما طرد النظام السابق من الوجود طردت معه أساليب العمل الإداري والنظام الثقافي وطريقة التفكير في الحياة وحل محل ذلك كله بعث جديد للحياة مستمدة من واقعية البلاد الجديدة ومنطلقة من واقع الشعب وتراثه ، ومتجهة نحو مستقبل لا تقليد فيه للنظم السابقة ، وفي كل هذه الثورات وانتصاراتها الشاملة كانت اللغة الوطنية والتراث الفكري والحضاري والاجتماعي تقام على أنقاض النظم السابقة المحطمة . وتهيئ الطريق للشعب وللجماهير أن تضع كل وزنها الثقيل في معركة البناء ، بناء النظم الثورية الجديدة .

وهذا ما يفسر عبوديتنا نحن بعد الاستقلال لكل ما هو فرنسي كأننا كنا في عهد الثورة نقاوم كل ما هو فرنسي عبثاً بدون غاية . وكلنا اليوم نشتكي ونستغرب هذه الظاهرة العجيبة ولكننا نعزوها في الغالب لأسباب أخلاقية ولكوننا متفسخين أو لأن شعورنا الوطني والديني ضعيف إلى آخر هذه الأسباب الساذجة الخاطئة ، ومن ثم نعالجها بطريقة عاطفية تعتمد على « يجب ولا يجب » . ولا نبحث الأسباب الواقعية التي أدت إلى قيام هذه التناقضات التي لا أتردد في وصفها بالطبيعية !

فهل نستطيع مع هذا أن نقول اننا انتصرنا على الاستعمار الفرنسي ؟ الاستعمار الفرنسي كان قائماً في هذه البلاد ليجعلها سوقاً لمنتجاته على حساب منتجاتنا الوطنية فهل تغير الأمر بعد الاستقلال ؟ والاستعمار الفرنسي كان قائماً في هذه البلاد ليغزو عقولنا ويضعف شخصيتنا ولغتنا حتى نعتمد على طريقته هو في التفكير ونعتمد على ثقافته ولغته ويتمكن منا الاعتقاد بأننا لو تخلينا عنهما لضعنا في خضم المياه أو عدنا إلى الجاهلية الجهلاء . فهل تغير شيء من كل ذلك بعد الاستقلال ؟ أم هو استفحل عندنا أكثر مما كان في عهد الاستعمار . إن كل واحد منا يشهد متطوعاً بأننا أصبحنا بعد الاستقلال الكامل الناجز نحن الحراس الأمناء المخلصين لكل ما خلفه الاستعمار الفرنسي عندنا من تراث فكري وحضاري وأساليب معقدة بعيدة عن الشعب في الإدارة والنظم العامة .

وكل هذا طبيعي ولا غرابة فيه لأن ما قاومناه في الاستعمار الفرنسي زال .

وما لم نقاومه تمكن واستفحل . قاومنا السلطة السياسية والوجود العسكري واحتلال الأرض فتخلصنا منها جميعاً . ولكننا لم نقاوم النظام الإداري الذي كان عبئاً على شعبنا ولا يزال . ولم نقاوم التراث الفكري والأدبي والثقافي والفني الذي تسرب إلينا والذي كان ثمرة حضارة بعيدة عن مستوانا بل عشقنا كل ذلك وأهملنا ثقافتنا وما نزال . ولم نقاوم لغتها التي فصلت مثقفينا عن شعبهم بل اعتبرناها هي المنقذ لنا من التأخر ، وما زلنا نعتبرها كذلك .

أو بعبارة أخرى عندما كنا نقاوم الاستعمار الفرنسي مقاومة سياسية ومسلحة كنا نهيئ ـ سواء عن قصد أو عن غير قصد ـ ما سيقوم مقامه في الميادين السياسية بعد انسحابه والتغلب عليه . ولكننا لم نهيئ له عن قصد ولا عن غير قصد أنظمة جديدة في الحياة الاجتماعية والفكرية تقوم مقام الأنظمة الفرنسية . فكان أن تمكنت منا هذه الأنظمة بعد أن انسحب أصحابها تمكناً زاد من تأصلها لما وجدته عندنا من فراغ في هذه المجالات ، والطبيعة ـ كما قال الفيزيائيون القدامى ـ تفزع من الفراغ ولا تطيقه . لقد انهزمنا في هذا الميدان الحضاري شر هزيمة وأشنعها . لأنه لم يكن عندنا أي سلاح حضاري نقاوم به الغزو الحضاري الذي بقينا بعد الاستقلال نئن تحت عبئه مثلما كنا قبل الاستقلال، مع فارق واحد وهو أننا اليوم مدفوعون إلى قبول هذه الهزيمة بدافع الحاجة والفراغ وقبل الاستقلال كنا نقبله مكرهين بالقوة .

إن « انتصارنا » العسكري اليوم على الاستعمار يذكرنا من عدة أوجه بانتصار مماثل في القديم على حضارة الفرس ، ثم اعتناقنا لكل أنظمتهم الاجتماعية والسياسية والحضارية العامة ، مع فارق واحد هنا أيضاً ، هو أننا في القديم تمكنا من نشر دعوة روحية دينية فيهم ومن المحافظة على لغتنا في مجالات الأدب والمعرفة .

ولنفرض اليوم أننا انتصرنا في يوم خمسة جوان ١٩٦٧ على اسرائيل وقضينا عليها كدولة ، وأن الأوضاع الدولية حملتنا ـ كما هو طبيعي ـ على أن نبقي شعب اسرائيل يعيش في فلسطين ولو تحت نظام دولة عربية ذات سيادة . دولة عربية

تحكم شعباً من الأميين هم العرب وشعباً من المثقفين وهم اليهود . ستكون الصناعة الناهضة والفلاحة المتطورة والتجارة الماهرة والاطارات الإدارية المدربة وحياة اللهو المغرية متأثرة كلها بالأساليب اليهودية ـ إن لم يسيطروا عليها سيطرة مباشرة ـ كما هو الأمر في الجزائر وبلاد المغرب عموماً بالنسبة للتأثير الفرنسي ، وكما كان الأمر عند العباسيين العرب بالنسبة للتأثير الفارسي .

إن المعركة المسلحة والانتصار فيها شيء ، والمعركة الحضارية والفوز فيها شيء آخر . ويظهر أننا لم نستخلص بعد أي درس في هذا الموضوع الخطير .

ومن المؤكد أنني هنا أيضاً سأثير الاستغراب . سيقول لي قائل . ها هو ذا مثال الجمهورية العربية المتحدة ومثال سوريا تخلصت من كل مظاهر الاستعمار بأشكاله العسكرية والسياسية ومعها الشكل الثقافي فأصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والتعليم والصحافة والإدارة . وان وضعهما في ميدان الثقافة واللغة والفكر يختلف عن وضعنا بحيث أصبح عندهم كل شيء وطنياً عربياً .

وأنا أقول أصبح عندهم كل شيء يحمل أسماء عربية وليس هو بذاته عربياً . الإدارة المثقلة التي تكبل حياة الشعب ليست عربية النظام وإن كانت عربية الكلمات والحروف ، ومظاهر الأنظمة السياسية والاجتماعية ـ مثلها هناك أو عندنا نحن في الجزائر وبلاد المغرب عموماً ـ لا تتلاءم في شيء مع مستوى الشعب الحضاري . والفواصل والفروق الفكرية بين المثقف ثقافة عربية في القاهرة وبين الشعب المصري هي نفس الفواصل والفروق الفكرية التي تقوم بين المثقف ثقافة فرنسية في الجزائر وبين الشعب الجزائري . والعزلة الانحطاطية التي يعيش فيها المجتمع السوري عن إطاراته في كل المجالات هي نفس العزلة التي يعانيها المجتمع الجزائري عن اطاراته .

لماذا هذه الظاهرة العامة ظاهرة الافلاس في وطننا العربي مشرقاً ومغرباً ؟ لأن أداة الحضارة والتقدم وهي اللغة ليست واحدة عند الشعب وعند إطاراته : هي عند الاطارات في المشرق لغة ارستقراطية كسولة ورجعية يعيش بها أصحابها بعيدين

عن الشعب ومنعزلين عنه ، وهي في المغرب ـ وخاصة في الجزائر ـ أكثر فداحة وخطراً ، لأنها لغة أجنبية تماماً عن الشعب لا يعرف منها شيئاً لا جملة ولا تفصيلاً .

هذا في حين أن أول قضية بادر « لينين » إلى معالجتها بعد الاستيلاء على الحكم في روسيا هي إصلاح اللغة الروسية حتى تصبح في متناول الجماهير وتمكنهم من التقدم العلمي في كل المجالات على نطاق واسع شامل ، وحتى تخرج الثقافة والعلم من صفتها الامتيازية الاحتكارية وتصبح ملكاً مشتركاً للجميع ، ولأن الاشتراك في الثقافة هو الذي يحقق الاشتراك في الثروة المادية والمعنوية .

وكذلك فعل الفياتناميون والصينيون . لأن التفكير الثوري الصحيح يقول : ان شعبنا يعتمد في حياته الفكرية والثقافية على لغة أجنبية لن يتمكن أبداً من التحرر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، لأن اللغة الأجنبية ستبقى عنده على حساب تراثه الوطني وستبقى وقفاً على طائفة ذات امتيازات فكرية وثقافية ومن ثم تؤول إلى امتيازات اقتصادية واجتماعية وسياسية ، وأخيراً لأنها ستبقي الشعب مشلولاً يتفرج فقط على ما تقوم به تلك الاطارات من عمل غريب لا يستطيع أن يساهم فيه هو بطاقته . وعندئذ تضطر الاطارات المسيرة المعزولة عن الشعب إلى الاستعانة بالخبراء الأجانب في الكبيرة والصغيرة بل وباليد العاملة الأجنبية وبالآلات الأجنبية

وانتاج هذه الاطارات « الوطنية » والخبراء الأجانب مهما أوتيت من قوة ونشاط فانها ستبقى وحدها في ميدان العمل والشعب وراءها كسيح . وهذا ما نشاهده عندنا في الجزائر منذ الاستقلال وفي بلاد المغرب العربي عموماً ، وفي المشرق كله حتى في الأقطار ذات الأنظمة التقدمية التي لم تبخل بالاخلاص في العمل من أجل مصلحة الشعب ، ولكن كل جهودنا ضاعت هدراً لأن هذه الأنظمة تعتمد في عملها على نفسها وعلى اطاراتها « المثقفة » وعلى الخبراء الأجانب ولا تعتمد على الشعب . انها تتصدق على الشعب بالعمل ولا تشركه حتى يصبح هو المنتج والمتصرف . وهي لا تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك ما دام قطار التقدم الذي يركبه الشعب معطلاً منذ قرون ، وهو اللغة الموحدة وما تحمله من ثقافة

مشتركة . إن كل « مظاهر » التقدم التي نلاحظها في المشرق منذ عشرات السنين هي « لباس » ترتديه الاطارات المثقفة كما ترتدي الأزياء الأوربية ، أما الشعب فما يزال عارياً أو شبه عار إلا من الاسمال التي أبقتها القرون من لغته وتراثه ، فلم يتجدد منها شيء ، بل ما نزال نحرص على أن يبقى مرتدياً هذه الأسمال لأنها في نظرنا هي التي تحفظ شخصيته .

والوضع في بلاد المغرب ليس أقل تعاسة منه في المشرق ! إن لم يكن أشد الحاحاً عندنا في الجزائر منها في أي مكان آخر .

في الوقت الذي يتناقش فيه القوم في مصر عن جدوى تعريب كل الفنون العلمية في التعليم العالي ، نتناقش نحن في الجزائر في جدوى تعريب التعليم الابتدائي والثانوي . وسبب المناقشة ـ أي الآراء المتعارضة ـ واحد ، وهو الخوف من أن يؤدي هذا التعريب إلى هبوط في المستوى الثقافي . ولكننا سواء في مصر أو في الجزائر ـ نحن لم نستطع أن نضع السؤال المنطقي الحتمي والواقعي لسبب هذا الخوف . وهو ضعف مستوى اللغة ، هذه اللغة العاجزة عجزاً مزدوجاً : عجزاً عن أن تنزل إلى مستوى الشعب من جهة ، وعجزاً عن أن ترقى إلى المستوى العالمي في العلوم من جهة ثانية ، وهذا في عصر بلغت فيه قدرة الانسان العلمية مبلغاً يمكنه من أن يخلق لغة من العدم أو يبعثها من القبور كما فعل الاسرائيليون بلغتهم . وفي حين أن اللغة العربية تحمل كل الامكانيات التي تجعلها متطورة وعلمية وشعبية في آن واحد مثل أية لغة حية من لغات العالم المتمدن اليوم ، ولكنها تنتظر فقط الجرأة والتضحية من أبنائها . وهم في الوقت الحاضر ـ ومنذ أكثر من قرن ـ مكتفون اما باحتقارها واليأس منها ، أو بتقديسها واعتبارها من حيوانات الهند المعبودة التي لا يجوز أن تمس ، وكلاهما موقف سلبي دفعنا إليه خوف آخر : خوف من أن نثير انتقادات المحافظين من رجال الدين أو رجال العربية ، وهؤلاء بدورهم متمسكون بموقفهم المحافظ هذا بدافع خوف ثالث ، هو الخوف على

مكاسبهم وخبزهم ومناصبهم ، أو بدافع الوهم والخلط بين الحرام والحلال في الشرع والحرام والحلال في اللغة .

على أن المناهضين للتعريب في الجزائر خاصة ينظرون إلى الموضوع بعين واحدة . يتصورون كل تقصير أو عجز أو كسل انما هومن جانب المثقفين بالعربية وحدهم .. واننا عندما نوكل أمر أطفالنا طيلة عامين من حياتهم المبكرة إلى أيدي هؤلاء العجزة الكسولين من المثقفين بالعربية فانما نكون قد حكمنا على هؤلاء الأطفال بضياع زهرة أعمارهم في الجهل والأمية والضلال . والتقصير والعجز والكسل موجود فعلاً عند المثقفين بالعربية ولكن لا يزيد كثيراً عما هو موجود عندزملائهم المثقفين بالفرنسية . اننا منذ الاستقلال وكل أمورنا الادارية والثقافية والعمرانية العامة بأيدي هؤلاء المثقفين بالفرنسية فأي اصلاح أدخلوه على حياتنا ؟ انهم مكبلون بالقيود الفرنسية لا يستطيعون أن يطلوا منها على أية نافذة أخرى يشمون منها هواء الحرية ويستوحون منها الأساليب الثورية التي تنهض بوضعية شعبهم المتدهورة . كل ما في رؤوسهم من مفاهيم للبناء والتسيير هي المفاهيم الفرنسية والغربية المعقدة التي خلقت لشعوب أخرى غير شعوبهم وبلاد تختلف أوضاعها جميعاً عن أوضاع بلدنا ، والتي تخلص منها الثوار الروس والصينيون والفياتناميون فحققوا الانتصار الكامل لشعوبهم . إن كل ما يفتخر به المثقفون بالفرنسية عندنا على المثقفين بالعربية هو ملك لغيرهم ولا حق لهم في الافتخار به أو التبجح به على زملائهم المثقفين بالعربية . إن العجز عند جميعهم متجانس . فالمدرس والمهندس والطبيب والمحامي والصحفي والصيدلي المتخرجون من المدرسة الفرنسية يصلحون للعمل في المجتمع الفرنسي أو الأوربي عامة ، ولكنهم لا يصلحون للعمل في بلادهم لأنهم في مستوى لا يستطيعون أن ينزلوا منه إلى درجة الشعب المتخلف الخشن ولا هو بقادر أن يرقى إلى مستوى اختصاصاتهم وتكوينهم المرهف . إن الهوة بينهم وبين شعبهم كالهوة بين الشعب وبين اطارات المتعاونين الفرنسيين سواء بسواء مع فارق واحد لا يغير شيئاً من النتيجة في هذا الموضوع . وهو فارق العاطفة الوطنية وحدها . وكل هذا لا يدرك منه المثقفون بالفرنسية شيئاً ، وتبلغ بهم السذاجة إلى حد يتصورون معه أن

الحل الطبيعي لسد الهوة بينهم وبين الشعب هو أن نستمر على هذا الوضع من تعليم بضعة آلاف من أبنائنا باللغة الفرنسية تاركين الملايين الأخرى في جهالتهم وعيشهم على هامش المدنية .

وعندما يناقشون غيرهم في مشكلة التعريب يتبادر إلى ذهنهم أن الفائدة الوحيدة من هذا التعريب هي تمتين الصلة بيننا وبين المشرق ، ولا يكادون يتصورون أن الغرض الأول من التعريب هو قبل كل شيء ربط الصلة بيننا وبين الشعب ، شعبنا هنا في الجزائر .

إن المثقفين بالفرنسية في الجزائر لا يتصورون أنه إذا كانت هناك هوة بينهم وبين زملائهم المثقفين بالعربية في الجزائر أو في المشرق . فان الهوة التي تفصلهم عن شعبهم هي أكثر عمقاً وأبعد غوراً .

وكل من المثقفين بالفرنسية ، والمثقفين بالعربية تجمع بينهم من ناحية أخرى عادة آخذة في الاستفحال وهي التعود على أن يعيشوا هم في واد والشعب في واد. لقد أصبح عندنا من الطبيعي أن نلبس نحن الزي الأوربي ويرتدي الرجل الشعبي الزي الوطني ، ونتداوى نحن بالبنيسلين ، ويتداوى هو بالأعشاب ، وتتزين العروس عندنا بمساحيق أوربا وتتزين العروس الشعبية بطريقة جدتها الأولى بعد آدم ، ونستضيء نحن بالكهرباء ويستضيء صاحب الكوخ بدخان القنديل.وفي المجال الأدبي نفس الفوارق : نعيش نحن بكتب المطابع العربية أو الفرنسية ويعيش الشعب بحكايات رأس الغول أو حكم الشيخ السماتي ويتكون ذوقنا الموسيقي على أنغام الآلات الكهربائية ، ويتكون ذوق الشعب على البندير.ولا نتفطن إلى كل ما جرته وما تجره هذه الفوارق في المستوى المعنوي من فروق في المستوى المعاشي والاقتصادي في بلد يتحدث فيه هؤلاء المتميزون أكثر من غيرهم عن الاشتراكية .

ومن ثم يبدو لهم عجباً عندما « نزعم » لهم بأن طريق التعريب من ناحية واصلاح العربية من ناحية أخرى حتى يتمكن منها كل أفراد الشعب وتصبح لهم

أداة الرقي الفعالة ـ هو الطريق الطبيعي والطريق الوحيد والطريق الثوري لتحقيق الاشتراكية في الداخل والانتصار على اسرائيل وحلفائها في الخارج . ولكن أصحاب الثقافة الفرنسية يتصورون أن المناداة بالتعريب تعصب في غير محله ، وأصحاب العربية يعتقدون أن اصلاح العربية هو تهور في غير محله . وكل من أولئك وهؤلاء لا يقيم حساباً في تفكيره للشعب . وهم جميعاً يتفقون على ابقاء الأوضاع المتناقضة على ركودها ، لأنهم ـ كما قال بودلير ـ يبغضون الحركة التي تغير الخطوط من أماكنها .

ان مفهوم الوطنية عندنا ما يزال بدائياً سواء عند المثقفين بالفرنسية أو العربية . محبة الوطن هي محبة خيراته التي ينعم بها علينا . وليست هي محبة المواطنين والبحث عن صالحهم قبل البحث عن راحتنا . ومفهوم السعادة عندنا هو أن يكثر من حولنا الأشقياء وليس هو العمل على اشراكهم معنا في أكبر نصيب منها .

ومقياس النهوض عندنا هو أن يتحصل أصغر عدد منا على أعلى الشهادات العلمية من أوربا ، وليس هو العمل لأكبر عدد منا لكي يحصلوا على الشهادة الابتدائية .

هذا هو وضعنا الحقيقي كما يبدو لي ، وكل ما أتمناه مخلصاً هو أن أكون أنا المخطئ في تحليله . وما أرجوه من اخواني الذين يرون الوضع بغير هذا المنظار هو أن يقدموا آراءهم بالتحليل ويبتعدوا ما أمكنهم عن طريقة الوعظ والارشاد ، و « يجب ولا يجب » اننا في حاجة لأن نفهم : أن نفهم أنفسنا وإلى أين نحن سائرون ! وهل الطريق أمامنا مضاء واضح أم نحن فيه كما قال المعري :

وبصير الأقـــــوام مثلي اعمـى فتعـــالوا في منـــدس نتصادم !

الحقيقة والزيف في مجتمعنا العربي

من أحرج مشاكلنا الفكرية والنفسية التي نجتازها في مرحلتنا الحضارية الراهنة ، هي حيرة الكاتب عند بحثه أي موضوع . بأي طريقة يتناوله : هل ينساق مع منهج الفخر الذي توارثناه عن أجدادنا في الجاهلية ، ونقلناه من الميدان القبلي إلى الميدان القومي والديني والحضاري ؟ وهو منهج ترتاح اليه نفوسنا ، ولكنه لا يعطينا نتيجة ايجابية ولا يقدم عجلة تطورنا إلى الأمام ؟ أم هي طريقة النقد الذاتي الذي يساعدنا على كشف نقائصنا ومعالجتها بفكر مسؤول ، ولكنه منهج قد يحطم طموحنا إلى المعاني ويشعرنا بأننا أصغر من حقيقتنا ، ومن ثم يصبح هذا النقد الذاتي مثل الفخر تماماً من حيث النتيجة المعطلة التي تؤدي اليها .

ذلك أن هذين المنهجين هما الموجودان في مجتمعنا العربي على اختلاف بين بعض مناطقه والبعض الآخر . فمثلاً عندنا في منطقة المغرب وفي الجزائر على وجه الخصوص نجد الاتجاه يلح أكثر وبدون قصد في أغلب الأحيان ، على ما يمكن أن نسميه بمنهج النقد الذاتي وهو اتجاه تلقائي مفرط في هذا النقد حتى أن المستمع إلى أحاديث الناس عندنا ، سواء كانوا مثقفين أو من أوساط الشعب ، يلاحظ

بسهولة أن هذه الأحاديث لا تتناول إلا النقائص وحتى عندما لا تكون هذه النقائص صارخة فاننا نلتذ باخراجها من حفرها وابرازها والتشنيع بها فيما بيننا . وحتى أمام الأجانب أحياناً . وكثيراً ما ينعكس هذا الاتجاه عندنا على كتابتنا وأبحاثنا في الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وكل ما يمس حياة المجتمع من قريب أو من بعيد ، وكثيراً ما يأخذ هذا النقد طابع ضمير الغائب : فإذا كنا نسير في طريق غير معبد كما ينبغي ننهال بالنقد على عمال الطرقات ومصالح الأشغال العامة . وإذا ذهبنا إلى المستشفى ولم نجد مكاناً أو طبيباً أو ممرضاً على الفور ، وإذا دخلنا إدارة بريد أو بلدية نتضايق من الازدحام ويشتكي كل واحد منا من كثرة الناس ، وننسى أننا بعض هؤلاء الناس ولكن المسؤول دائماً في نظرنا هي السلطة !

وقد اتخذ هذا النقد المرير الذي لا ينقطع ، طابعاً مأساوياً عندنا وشعوراً بعدم الرضى في كل الأحوال وأذكر أن أحد الأساتذة الشرقيين . وهو رجل فاضل وصريح ، كان يعمل معنا في الجامعة ، وكنا يوماً نحدثه عن كثرة مشاكلنا من قلة الامكانيات المادية والبشرية لمجابهة كل الطلبات الملحة . وعن تأخرنا . وعدم جدية اطاراتنا ، فكان ينصت الينا بانتباه وتعجب ، ثم قال : يا أخواني . بكل صراحة أنا لا أفهم معنى لقلقكم واستعجالكم . لقد قطعتم في ثماني سنوات من الاستقلال مراحل في نشر التعليم وتعبيد الطرق وبناء المساجد والمستشفيات وتكوين الاطارات واقامة المصانع والجسور والسدود وو .. ما لم تحققه لكم فرنسا في ظروف قرن وثلث قرن . فماذا تريدون أكثر من هذه الغاية ؟ ان كل شيء عندكم على أحسن ما يتمنى المرء لبلاده ، إلا شيء واحد : وهو هذا القلق والاستعجال الذي أصابكم بالعبوس وقنوط النفس . انكم في حاجة إلى شيء واحد . إلى انفساح الأمل في القلب وابتسامة مشرقة في الوجه .

وفي بعض أقطارنا في المشرق نلاحظ عكس هذه الظاهرة : فمهما كانت المشاكل من الحدة وعظم الخطب يقابلها الانسان العربي كما لو كانت شيئاً طبيعياً لا يستدعي الانزعاج ولا يتطلب الاسراع في تغيير الأوضاع . وأذكر أني زرت

بلداً عربياً يعتبر في طليعة أقطارنا الناهضة . وكتب لي أن حظيت بمقابلة رئيس هذه الدولة ، في مهمة تتعلق بالثورة في الجزائر ، وكنت اذاك مديراً لمجلة « المجاهد» وكان يصحبني في هذه المقابلة مدير جريدة من كبريات صحف المشرق العربي . وانطلقت بكل بساطة أتحدث عن المستوى الاجتماعي المتدهور الذي يلاحظه الزائر لهذا البلد . شارحاً رأيي بأننا ما لم نهتم في وطننا العربي بالتكوين الحزبي والثقافي والاجتماعي والسياسي في شعبنا العربي ، فان مظاهر التمدن الغربي ستبقى قشرة مصطنعة تخفي تحتها بدائيتنا الحقيقية . وان الأجانب لن يقيسوا رقينا بما استوردناه من عندهم من الالات والمصانع والسيارات بل يقيسونه بما نحن عليه من المستوى الذهني والمهارة الحضارية التي هي روح المادة الآلية المتحركة .

وعند خروجنا من المقابلة صارحني رفيقي الذي كان يصحبني بأنني كنت قاسياً جداً ، مبديا تعجبه مما كاد أن يسميه وقاحة . ومعرباً عن رضاه الكامل بالأوضاع السائدة في بلاده.وفي جوابي اليه لم أخف عنه تعجبي من تعجبه . ثم سألته : أي فائدة في أن أعتبر نفسي عربياً في أي بلد عربي أنزل فيهولا أتحدث معأبنائه ، مسؤولين أو غير مسؤولين ، كما أتحدث مع أبناء بلدي ؟ كما أعربت له عن دهشتي من عدم تنبيهه هو للمسؤولين لهذا النقص في أوضاع المجتمع . ثم استدعيته لزيارة من يشاء من مسؤولينا ويتحدث اليهم عن النقائص الصارخة التي تتخبط فيها الثورة الجزائرية فان آراءه سنتقبلها لا بصدر رحب فقط بل اننا عندئذ فقط سنحس باخوته الحقيقية .

إذن فهنالك حالة مرضية في كلتا الظاهرتين : النقد المفرط الذي يخلق جواً مأساوياً وقلقاً مثبطاً . والرضى الأبله الذي يخلق حالة الاطمئنان القدري العاجز .

اننا في كلا الحالتين لم نهتد إلى الموقف الموفق . كأن أحكامنا عن أنفسنا ما تزال سجينة التشاؤم الأبكم أو التفاؤل المجنح ، وكل منهما يرتكز على عاطفة طفولية غير ناضجة ومزاج نفسي متهافت . وفي كلا الحالين ما زلنا محرومين من الحكم العقلي الهادئ المحلل .

وإذا التفتنا إلى تقاليدنا الفكرية القديمة في هذا الصدد فاننا نعثر بسهولة على أصل هذا الموقف المزاجي ، وهو أصل المدح والهجاء في تراثنا الشعري القديم . بحيث إذا استثنينا الجاحظ وابن خلدون ، ذاك في مجاله الأدبي المسلح بالثقافة العلمية ، وهذا في مجاله الاجتماعي المسلح بالتجربة فاننا لا نكاد نعثر في هذا التراث على تقاليد للتحليل الفكري الخالص من ضباب المزاج وغيوم العاطفة والحكم المرتجل .

أما إذا رجعنا إلى وضعنا الراهن لنبحث فيه عما يمكن أن يزودنا به في هذا المجال من سلاح ، فاننا نجد الضباب قد تضاعف بدلاً من أن ينقشع ، والغيوم تراكمت حتى غشيت أمامنا كل رؤية صحيحة ، وذلك بفعل تصادمنا مع الحياة بالزيف لاختلاط المادة عندنا بالفكر . فلم نعد نميز بينهما ولا نعرف ما هي حقيقتنا في هذا الاصطدام .

وسنعود إلى توضيح هذه النقطة بعد أن نوضحها بايجاز من الوجهة الفلسفية : ان هجل يعتبر الوجود الفكري هو الوجود الحقيقي . فهل كان على خطأ ؟ ان السكة الحديدية قد وجدت في ذهن المهندسين قبل أن ينجزها العامل . وهو يعني أن كل وجود عملي لم يسبقه درس فكري . فهو صائر إلى زوال . ولا يدخل باب الحضارة الخالدة . ووجود المجتمع عنده لا يقاس بوجود أفراده . بل هويدخل التاريخ منذ اليوم الذي تشكل فيه لذلك المجتمع دولة . لأن الدولة وذلك في الحدود التي تكون فيها الدولة هي عقل المجتمع . وهي الوجود الفكري له . هي الوجود الحقيقي . فالمجتمع لا يدخل الوجود الإنساني قبل أن يمتلك العقل أي الدولة .

وإذن فالمجتمع الذي لم يقم على أسس عقلية فهو لا يعد مجتمعاً حقيقياً . وابن خلدون من ناحيته يعتبر الوجود العلمي هو آخر مرحلة في الوجود النظري . بحيث يكون الوجود الاجتماعي الذي لم يركب مطية الفكر إلى الوجود العملي فلا أمل له في الوجود الحقيقي . ومن ثم كرس كل جهده إلى فهم المجتمع العربي ذهنياً لأنه لاحظ أن هذا المجتمع بقي محروماً قبله من هذا الوجود الذهني الذي هو الوجود الحقيقي .

ولعل ما يسميه البعض بواقعية ابن خلدون هو هذه الواقعية الفكرية التي افتقدها المجتمع العربي قبل ابن خلدون ، أي افتقدو جوداًمدروساً ومحللاً ، ينتقل به أو يرتفع من الوجود العملي إلى الوجود العلمي المعقلن . إن عنصر الفكر في واقعية ابن خلدون يأخذ في نظري أهميته الكبرى من ادخال عنصر الفكر هذا في الوجود الخام لكي يصبح وجوداً حقيقياً . وابن خلدون في هذا الصدد يلتقي مع هيجل في غاية واحدة ذهب اليها كل منهما عن طريق خاص به .

وهذا مانريد من ناحيتنا أن نبني عليه مشكلة الحقيقة والزيف في مجتمعنا العربي . وليسهل علينا توضيح الطريق إلى هذا الغرض سنقسمه إلى ثلاثة ميادين رئيسية هي : الميدان الحضاري ، والميدان السياسي ، والميدان الثقافي . محاولين أن ندعمها بأمثلة مأخوذة من وقائع حياتنا الاجتماعية .

الميدان الحضاري :

قلت قبل قليل أن وضعنا الراهن في مجتمعنا العربي يتميز بالتصادم الذي اختلطت فيه حياتنا التقليدية في كل الميادين بالحياة العصرية . وهذا الاختلاط طبيعي ولم يكن لنا منه مفر . وليس لنا أن نأسف له في حد ذاته . ولكن ما نأسف له في هذا التصادم هو أننا تقبلناه عملياً وتعودناه كما لو كان شيئاً طبيعياً . ودخل حياتنا اليومية قبل أن نتلقاه فكرياً وندرسه ونفهمه . فكان الجانب الحضاري في حياتنا موجوداً وجوداً عملياً أي وجوداً مستعاراً . ولكنه غير موجود فكرياً . أي هو غير موجود وجوداً حقيقياً . إن وجودنا الحضاري خليط من الحقيقة والزيف . ولكن إلى أي حد يمكن أن نميز بين الحقيقة والزيف بوضوح في هذا المجال ؟

اننا في محاولة التمييز نفسها نوشك أن نقع في الزيف إذا رحنا نستعير القوالب الذهنية الأوروبية ونصب فيها وقائعنا الحضارية . لذلك سنلجأ إلى تراثنا الفكري الوحيد في هذا المجال لأنه هو الذي ما تزال قوالبه صالحة لأن نصب فيها وقائعنا

الراهنة ، وهو تراث ابن خلدون : والمشكل الحضاري في المجتمع العربي في هذا الصدد من جهة التعليل الخلدوني يتمثل في مشكل البداوة والحضارة ، وليس في التقسيم الطبقي الاقتصادي كما يقتضي ذلك ، المنهج الماركسي . فهل ما يزال هذا التقسيم صالحاً لنا اليوم ؟ وأي نصيب من البداوة في حياتنا العربية المعاصرة ، وأي نصيب من الروح الحضرية فيها ؟

منذ حوالي اسبوعين فقط كان لي حديث مع ممرضة في مصحة للتوليد في مدينة الجزائر العاصمة فقالت لي : ان أكثر ما يضايقنا في عملنا هو مجابهة الزوج الذي ينتظر في قاعة الاستقبال أن نخبره بما ولدته زوجته . فاذا كان ولداً ذكراً فان البشر والانشراح يصل به إلى أن يغمرنا بالهدايا والعطايا وبالشكر والامتنان كما لو كنا نحن الذين رزقناه بهذا الطفل المولود . وإذا كانت بنتاً . فهو التجهم والعبوس وأحياناً يصل إلى درجة شتمنا والتهجم علينا كما لو كنا نحن الذين تسببنا له بصورة مباشرة في حصول هذه الكارثة .

هذه المصحة لا يقصدها الرجل المتوسط عندنا ولا رجل الريف أو البادية ، وانما تقصدها الاطارات العليا في البلاد من كبار الموظفين والعائلات الموسرة ذات التقاليد الحضرية العريقة .

ولنفحص هذه الظاهرة عن قرب : هذا الرجل يرتدي لباساً أوروبياً من آخر طراز ، وزوجته كذلك ، وقد أتى إلى المصلحة في سيارة أنيقة . وليس على ظهر بعير . والآلات التي استعملت في عملية التوليد من أحدث الآلات وأدقها . والطبيب المولد نال درجة الاختصاص في هذا الفن من المعاهد الأوروبية . والمصحة التي يجري فيها التوليد ليس فيها ما يذكر بالخيمة . أو الاعتماد على الأولياء الصالحين في تسهيل عملية الولادة . والمحيط المادي الذي يغمر هذه العملية كلها هو محيط حضاري تستطيع أن تنافس به أرقى المصحات في العالم المتحضر .

ولكن الروح التي تختبئ خلف هذه المظاهر كلها هي تلك الروح التي وصفها القرآن في الانسان الجاهلي منذ أربعة عشر قرناً وهي أن أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل

وجهه مسوداً من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب . هذا ولا حاجة بنا إلى التوسع في ظاهرة الدعوة إلى تحرير المرأة واعطائها حقوقها الكاملة في المساواة مع الرجل ، ولكننا نقصد دائماً نساء الآخرين وأخواتهم وزوجاتهم أما الروح التي نتصرف بها مع نسائنا من عشيرتنا فهي لا تحمل من المساواة قليلاً ولا كثيراً ولا حتى من الاحترام العادي الذي حاول الاسلام أن يغرسه في نفوسنا منذ عشرات القرون نحو المرأة ولكن بدون جدوى .

إن التوسع في هذه الوقائع من حياتنا الاجتماعية سهل جداً ويستطيع كل واحد أن يحشد منه عشرات الأمثلة في اليوم الواحد لأنه هو الطابع العام في حياتنا كلها واذن فأين هي الحقيقة الحضرية في هذه الوقائع . وأين هو الزيف ؟

إن أكثر ما يبرز الجواب على هذا السؤال هو اندفاعنا الشديد وحدة تحمسنا في تقبل النقائص حتى قيل عن معدتنا الحضارية انها أقوى معدة حملتها الشعوب في التاريخ : تتحمل الحار والبارد والمنبه والمخدر في آن واحد .

والنقائص التي نتحملها هنا هي اجتماع البداوة الفكرية والحضارة المادية ، والافراط فيهما معاً : لا نرضى من مستوردات الحضارة الحديثة إلا بما كان من آخر المنجزات التقنية الآلية . وفي نفس الوقت لا نتمسك من تقاليدنا الموروثة إلا بما كان موغلاً في التأخر الفكري ولكننا بدون أي حرج أو شعور بالأثم نجمع النقيضين تحت سقف واحد وتشمله في الشخص الواحد نفس البدلة ونفس الجسم والفكر . ولنحاول الآن أن نقلب الوضع قلباً فرضياً طبعاً لكي نتصور وجودنا الحضاري وجوداً حقيقياً لا مزيفاً . ولنستعين على توضيح هذا القلب سنلجأ إلى مثل من الصين ، بقطع النظر هنا عن الاديولوجية السياسية . مفترضين أن هذا القلب فيها كان يمكن أن يتم بدون نظام شيوعي . في الصين يتمتع المجتمع بتراث حضاري تقليدي في النظم الاجتماعية وفي الصناعات اليدوية والانتاج الفكري يعد أرقى من التراث العربي قليلاً أو كثيراً . ولكنهم في الأخذ من الحضارة المستوردة يكتفون بالضروري من الآلات الانتاجية ووسائل الحياة العصرية أو ما يشبه الضروري وما

يسميه ابن خلدون بالحاجي من لوازم الوجود . وبذلك استطاعوا أن يلائموا بسهولة بين تراثهم التقليدي الرفيع نسبياً ومستورداتهم المتواضعة نسبياً ، وهم الآن لا يعانون ما نعانيه نحن من التناقض الصارخ بين الميراث الوطني والمستورد الأجنبي في حياتهم . لماذا ؟ هل لأن الفرق بين العرب والصينيين هو فرق في الانسانية كما يسميها ابن خلدون ؟ كلا ! الفرق يكمن في دور العقل في كل من الحالتين : في الصين بذل مجهود فكري على الجبهتين : جبهة التراث التقليدي بالتنقية والتقييم ودرس ما هو قابل للحياة وما هو غير قابل للحياة . وجبهة المستوردات الأجنبية بالدرس والتقييم ما يصلح منها للانتاج ، وما هو للمتعة المادية وحدها . نعم لقد ارتكبت أخطاء في هذا المجهود الفكري ، وربما ما تزال وستظل الأخطاء ترتكب . ولكن ما استوردوه من المستحدثات عن طريق التقييم الفكري . وما أدخلت عليه الحياة من التراث التقليدي قد استطاع به الصينيون ليس فقط أن يتخلصوا مما بينهما من تناقض معطل ، بل وأيضاً أن يوجدوا بينهما تكاملاً حركياً يزيد من سرعة التاريخ . (أبرز مثل معروف في العالم هو الجمع بين الطب التقليدي والطب الحديث) هذا المجهود سواء سميناه ايديولوجية متكاملة يقوم بها رجال السياسة ، أو ثمرة أبحاث اجتماعية جادة يقوم بها رجال الفكر ، هو ما لم يقم به أبناء المجتمع العربي في الصدام الذي حصل بين تراثهم التقليدي ومستورداتهم الحديثة . فكانت نتيجة الصدام بينهما في مجتمعنا ليست فقط فقدان التكامل بينهما . بل كانت النتيجة هي تعطيل سير التاريخ بالمجتمع العربي المعاصر والشلل الحقيقي الذي لم يختف وراء كثرة الحركة الظاهرة .

في الميدان السياسي :

في هذا الميدان أيضاً وعندما نلتفت إلى تراثنا التقليدي المدروس نجده أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى . ويحسن أن نزيد هذا الزعم توضيحاً : في ميدان المبادئ السياسية القائمة على القيم الأخلاقية والعدالة والمساواة أمام القانون ورفع قيمة الانسان وتكريمه . نجد تراثنا السياسي المتمثل في الاسلام مبادئ أقل ما يقال فيها أنها ثورية على النطاق الانساني العام فتساوي الناس كأسنان المشط . وعدم

أفضلية العربي على الأعجمي إلا بالتقوى ، والمجهود الذي بذل في تحرير العبيد وترقية المرأة ، ورفع العلاقات الاجتماعية من مجال القرابة الدموية إلى مجال الإيمان بالفكرة ، واعتبار الوطن الاسلامي كله وطناً لا لأبنائه الأصليين فقط ، بل لكل من يحمل عقيدة الاسلام ، ونظام الضرائب والزكاة ، والتقريب بين الطبقات اقتصادياً واجتماعياً ، وافساح المجال وتوفير المناخ الضروري للانتاج الثقافي ونشر جو الأخوة بين الشعوب ، والتوغل في مجاهل الأرض لاخراج الشعوب البدائية وتحويلها من وحوش إلى آدميين ، وابراز عنصر القوة ومقاومة الضعف النفسي والاقتصادي والحربي ، والتحريض على العمل والبناء ومقاومة الظلم والفساد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الخ ... كل هذه القيم والمبادئ تعتبر ثورية ، لأنها جاءت فوق ما يستطيع البشر أن يهضموه في عصر كانت فيه البشرية ما تزال في خطواتها الحضارية الأولى في ميدان علاقة الانسان بالانسان . وهي وإن لم تعتبر أقرب ما تكون إلى الأيديولوجية المبسطة فقد كانت بقطع النظر عن ناحيتها الغيبية المتمثلة في الوحي ، هي المجهود الفكري الأول والأخير الذي جاء إلى المجتمع العربي كفكرة ، قبل أن يبنى عليه الأساس العملي كتطبيق . فكان به مجتمعاً حقيقياً دخل إلى الحضارة الانسانية من بابها الواسع ، وظل متمكناً في النفوس وفي التاريخ ، وكان به المجتمع العربي في العصور الوسطى هو الذي يمثل تقدم الانسانية في مرحلة عصر الإيمان فيما يرى أوغست كونت وكان من الناحية الأخلاقية على وجه أخص مجتمعاً حقيقياً لا زيف فيه .

ومع ذلك فان هذا التراث العظيم من المبادئ لم يستغل أحسن استغلال من الوجهة الفلسفية في ميدان الفكر السياسي فلم نستخرج منه الدساتير والمؤسسات والنظم السياسية التي تجعله يرتفع على الأقل إلى مستوى ما كان عليه التنظيم المحكم الذي كان عند اليونان أو الرومان . بالرغم مما كان في النظم الرومانية واليونانية من الفقر في المبادئ الأخلاقية . ولكن ثروتهم السياسية والتنظيمية وحدها كانت تفوق بكثير ما كان عليه المجتمع العربي في هذا المجال السياسي .

هذا التراث التنظيمي والدستوري هو الذي نقصد نعته بالفقر . حتى اننا لا

نكاد نجد جهداً فكرياً حقيقياً جديراً بهذا الاسم بذل في تراثنا كله إلا عند رجل واحد هو ابن خلدون . ولكن مجهود ابن خلدون نفسه يكاد ينحصر في التحليل الموضوعي والبحث العلمي المجرد ، بلغ فيه صاحبه من التجرد والواقعية والحياد حداً جعله يحرم على نفسه أن يتخيل أو يقترح شيئاً يعوض به ما حكم عليه بالفساد والقصور والعجز في هذا الفكر السياسي .

وأبرز ما يميز قصورنا في هذا المجال إلى اليوم هو الحل السهل أو ما سماه ابن خلدون عندنا بالميل إلى البسائط من الأمور . والحل السهل الذي نفكر فيه عند اصلاح المجتمع بصورة مباشرة هو اصلاح الحكومة . أي معالجة وجع الرأس دون البحث عن الأمراض التي تنهك الجسم الاجتماعي ، والتي ليست أوجاع الرأس إلا بعض أعراضها ونتائجها . ومظهر التصور السهل في هذا الحل هو اعتقادنا بأن صلاح أفراد الحكم هو الطريق المختصر المباشر الذي لا عناء فيه لصلاح المجتمع بحيث إذا كانت الحكومة أفرادها صالحون فان المجتمع يكون مجتمعاً صالحاً راقياً متطوراً ، بصورة آلية وإذا كان العكس في أفراد الدولة . فالعكس أيضاً يكون في المجتمع وعلى هذا الأساس يذهب البعض منا إلى تفسير القول المأثور : كما تكونون يولى عليكم ولا نتفطن إلى أننا بهذا التفسير نعاكس المعنى تماماً .

فهذا الحديث لم يقل كما يتولى عليكم تكونون . بل قال كما تكونون يولى عليكم . بمعنى أن الحكومة هي التي تكون انعكاساً للمجتمع ، وليس المجتمع هو الذي يكون انعكاساً للحكومة ، لأن الحكومة في الاسلام الفطري كما هي في المفهوم الحديث هي الفرع والمجتمع هو الأصل . ولا يمكن أن تستمد عروق الشجرة من الأغصان والفروع ، بل العكس هو الصحيح . ومع ذلك ففهمنا غير الطبيعي ، لأنه هو الذي يتلاءم مع ميلنا إلى الحل السهل ، جعلنا نتصور دائماً أنه يكفي أن يكون على رأس الحكومة عندنا رجل أو رجال صالحون لكي نطمئن على مصائرنا وننام على أذنينا الاثنين كما يقول التعبير الفرنسي . كما نتصور أن صلاح أفراد الحكومة سيسري مباشرة إلى صلاح المجتمع ، ولا نتصور أن فساد

المجتمع وتعفنه هو الذي يسري إلى الراس ويقضي عليه . إن العمل على اصلاح المجتمع يتطلب جهداً فكرياً متواصلاً في هذا المجال عبر أجيال وأجيال ونحن لا قبل لنا بالعمل المتواصل ! ومن جانب الحكومة فاننا نجد نفس الظاهرة ، ظاهرة الميل إلى الحل السهل ، يتمثل في كونها عندما تكون حكومة وطنية صالحة تنصرف إلى العناية بالبلاد وتهمل العناية بالعباد . تزود البلاد بالأجهزة الآلية من مواصلات وتليفون وأبنية وطرق وآلات دقيقة وخشنة ومن كل الأوزان والمعايير لأن كل هذا المجهود لا ينتجه المجتمع . بل تكتفي الحكومة باستيراده من حضارة أخرى جاهزة . فيجري كل هذا في المدن العربية حيث لا يستعمله إلى عشرون في المائة من السكان على أحسن تقدير . أما البشر الذين يسكنون بقية البلاد . والذين يوجد أغلبهم في الأرياف والبوادي فهم يواصلون حياة البداوة والبدائية يسكنون الخيام في الصحراء أو الغيران في الجبال ويستضيئون بالقنديل أو بقبس من الحطب وتتزين نساؤهم بوسائل الزينة التي كانت مثيلتها في العصر العباسي أرقى مما هي الآن عندهن .

فأين هي حقيقتنا في هذا التناقض ؟ وأين هو موطن الزيف فيه بعبارة أدق أين هو وجودنا الحقيقي ؟

انه من الواضح هنا أيضاً أن فقدان المجهود الفكري في الميدان السياسي جعلنا نعاني هذه التناقضات ونتقبلها كما لو كانت طبيعية لا تثير الاستهجان ولا تبعث على القلق والبحث . نعم ان لنا كل مظاهر الفكر السياسي : الأحزاب والصحف والاذاعات والتليفزيون وحتى المجالس النيابية والانتخابات . ولكن كل هذا نستعمله في السياسة اليومية لا في تكوين الفكر السياسي ، وفيما يسمى بالمناورات السياسية لا في التربية السياسية للمواطن ليعرف واجباته نحو الدولة وحقوقه منها .

لذلك فإن هذا القاسم المشترك من التأخر السياسي في البلاد العربية مشرقاً ومغرباً جعل من الافتعال أن نزعم بأن هذا البلد أحسن من الآخر لأن فيه مجلساً نيابياً والآخر لا يوجد فيه هذا المجلس أو أن هذا البلد أفضل حالاً لأن نظامه

تقدمي والآخر نظامه رجعي . إن ما يجمع بيننا جميعاً وراء بطاقة التعريف هذه هو حقيقة التناحر عندنا جميعاً بين البداوية السياسية في المستوى الانساني وأجهزتنا العصرية في مستوى الوسائل الآلية. وهو هذه العناية الساذجة من قبل الشعب بأشخاص الحكام من حيث الصلاح والفساد . والعناية التي لا تقل عنها سذاجة من قبل الحكام . بالأرض والشارع والجدار والآلة . لا بالانسان العربي الذي يتصارع مع هذه الوسائل المادية بوسائل فكرية وحضارية قاصرة . وما يجمع بيننا أخيراً . وهنا الكارثة الحقيقية ، هو موقف الحياد الفكري الذي يقفه المسؤول الأول في هذا الصراع . لأنه صراع فكري ، وهو المثقف العربي الذي سنخصص له فقرة بذاتها في هذا الحديث .

في الميدان الثقافي :

إذا كان تراثنا الثقافي في الفكر السياسي العلمي أقرب إلى الفقر فانه ليس أغنى في الميدان الاجتماعي العلمي كذلك . ونحن اليوم استطعنا أن نحافظ بكل أمانة على هذا الفقر في العنصر الاجتماعي في أدبنا وثقافتنا . وكنت أود ان لو تمكنت من اجراء احصاء فيما تصدره مطابعنا في المشرق والمغرب من الكتب ذات الصبغة الاجتماعية العلمية . بالنسبة إلى ما تصدره من دواوين الشعر والنقد الأدبي والبحوث الميتافيزيقية والفنون الجميلة وبحوث اللغة ومشتقاتها وهي كلها بحوث قل أن يتوفر فيها هي أيضاً الطابع العلمي . وإذا كنا لا نستطيع أن نأتي بالأمثلة من تراثنا الحديث تلافياً للحساسيات ، فان أبرز مثال من تراثنا القديم يقدمه لنا أشهر فلاسفتنا وأعظم مفكرينا على الاطلاق وهو الشيخ الرئيس ابن سينا . في كتابه الشفاء يخصص (٤٥٠) صفحة في شؤون ما بعد الطبيعة ، وفي آخر الكتاب يخصص أربع صفحات ونصف الصفحة يجعل فيها البحث فيما يسميه بالسياسات والمعاملات والأخلاق .

وقد استمر عندنا هذا التقليد في اهمال البحوث الاجتماعية في تراثنا الحديث.

وإذا تركنا مسألة الكم وهزالها في هذا الانتاج الاجتماعي والثقافي إلى ناحية الكيف . فاننا نستطيع أن نجمل أكثرها في اتجاهين : اتجاه يعتمد فيه صاحبه ما يسمى بالحياد العلمي إلى درجة لا يؤمن فيها صاحبها بموقف ، ولا يعمل على نشر اتجاه ولا يحرك عاطفة عقائدية هادفة . فهو من النوع الذي وصف نيتشيه أصحابه بأنهم يحملون في عروقهم دم الضفادع.وهذا الاتجاه نجده أكثر ما نجده في الانتاج المدرسي الأكاديمي . واتجاه مقابل له ومضاد . وهو اتجاه من العاطفة السطحية المعتمدة على تقاليد الهجاء أو المدح . والفخر الأبله أو التحطيم الأعمى . ويؤلمني جداً أن آتي هنا ببعض الأمثلة المعينة على هذا الاتجاه الغالب على انتاجنا الثقافي في الميدان الاجتماعي . ولكن الصراحة والأخوة معاً تلحان علي أن أذكر هنا كمثال صارخ على هذا الاتجاه كتاباً ظهر مؤخراً في لبنان الشقيق تناول فيه صاحبه نقد الفكر الديني . وأظهر من الجرأة الفكرية والشجاعة ما يبشر بأن المثقف العربي صمم على الخروج إلى ساحة المعركة الحضارية التي تصارع فيها الآراء من أجل البقاء والغلبة . وأثار الكتاب ضجة اجتماعية هزت . أو كانت جديرة بأن تهز ركودنا الفكري . وسمعنا بالكتاب في المغرب وتلهفنا على الاطلاع عليه ، ورجونا من المسافرين أن يأتونا به . وكتب لي أن اطلعت على الكتاب ، ولكن كانت دهشتي مؤلمة عندما وجدت الكتاب يتناول نقد الفكـــر الديني في المسائل الغيبية الماورائية وحدها ، كتحطيم فكرة الجنة والنار والنفس والروح والجن والملائكة وابليس المظلـوم إلى آخر .. فلم أصدق ما رأيت . لقد كنت أتوقع أن يكشف الكاتب عن فقر فقهائنا ورجال الدين عندنا وقصورهم في اثراء الثقافة الدينية بفكر اجتماعي متطور ، في حين يزعمون أن ديننا صالح لكل زمان ومكان ، وأن أحكامه تدور مع المصلحة الاجتماعية حيث دارت . وحتى إذا ظهر له أن ينقد الفكر الديني نفسه لا رجاله فحسب فانه كان يستطيع أن يتناول بالنقد ، لا بالانتقاد ، ما جاء في الدين من معالجات لشؤون المجتمع كفكرة الصوم وكيف يمكن أو لا يمكن أن نجعل هذه الشعيرة أو تلك من شعائر الدين الاجتماعية تؤدي وظيفتها التربوية والحضارية والحقيقية في عصرنا الحاضر .

ولكن المؤلف ترك هذه القضايا الاجتماعية الكبرى التي يعيشها المجتمع العربي في حياته اليومية والسياسية والاجتماعية عموماً ، وراح يحارب أشباح الميتافيزيقا الدينية التي لم تعد تعطل أخذاً ولا تلعب أي دور في حياتنا الاجتماعية .

ولست أقف هنا مدافعاً على الدين وإن كان الدين هو العنصر الوحيد الذي جمع شتات العلاقات الوطنية والسياسية والاجتماعية لبني اسرائيل .

إن هذا التحطيم الذي ضربت عليه مثلاً من لبنان . نستطيع أن ندعمه بمثل آخر من الجزائر يزعم فيه كاتب ياسين عندنا بأن المآذن هي مصانع المسلمين ناسياً أن الاستعمار الفرنسي لم يترك في بلاده حتى المآذن . وان المعابد في أوروبا وأسماء القديسين تملأ الشوارع في باريس في حين لا يوجد عندنا . إلا نادراً . شوارع تحمل أسماء رجال الدين . إن الأمثلة على هذا الزيف في الروح العلمية في ثقافتنا الاجتماعية بكل شعبها المختلفة ، لا تكاد تنحصر في عدد . وما يعزز هذا النقص بصورة صارخة هو ما في مقابله في الطرف الآخر من النهر من انتاج فخري يرى أصحابه أنه هو الوسيلة الفعالة والمجدية في احياء نخوتنا العربية واسلامنا الذي لن تعرف الانسانية الحديثة سلامها إلا إذا اعتنقته ديناً لها . وفي الفخر بلغتنا التي هي أكمل اللغات وأدقها ، ومن أطرف الأدلة على كمال لغتنا مثلاً في رأي محاضر عندنا في الجزائر أننا نفهم اليوم أشعار امرئ القيس كما كان يفهمها أهل وسطه ، في حين نجد الفرنسيين اليوم عاجزين عن فهم لغة راسين أو كورناي . صحيح ان عندنا اليوم شعراً اجتماعياً وقصة اجتماعية وأخيراً برزت الأغاني الاجتماعية والسياسية وفن التصوير الملتزم إلى آخره . وكل هذا حسن وإن جاء في وقت متأخر جداً ، وكان ينبغي أن يكون في طليعة انتاجنا الثقافي منذ عشرات السنين . ولكن ما نطمح إليه اليوم وما أصبح هو أيضاً متأخراً عن وقته لأنه لم يولد بعد في انتاجنا الثقافي ، فهو هذا الذي نحسد عليه الغربيين ، من الثروه الحقيقية من المؤلفات والبحوث المتنوعة في فنون الاجتماع والأخلاق . حتى ان من يفتح منا قاموساً من قواميسهم العلمية في هذه الفنون يندهش لوفرة الكتاب والفلاسفة والمفكرين والباحثين وما

أنتجوه من الدراسات العلمية المنظمة في شؤون المجتمع والأخلاق والسياسة . فيشعر عندئذ بالتواضع والخجل أمام فقرنا القديم والحديث في هذا الميدان . ويفهم عندئذ فقط أن ما يفوقوننا به من آلات ووفرة تيكنولوجية لا يعد شيئاً ازاء ما يفوقوننا به من العناية والتنظيم الفكري لشؤون المجتمع والعلوم الانسانية ، ويدرك عندئذ فقط أن ما هم عليه من النظام والتقدم والعمل والانتاج والعلاقات الانسانية الراقية لم يأتهم صدفة ولا هو بركة من بركات رهبانهم وكنائسهم ، ولا عطية إلهية ، وانما ثمرة مجهود فكري متواصل بذلوه أجيالاً بعد أجيال ورفعوا صرحه لبنة فوق لبنة مع المحافظة على كل ما هو قديم مثمر ، واضافة الجديد المستمر في الجدة والتطور ، فلا قطع مع الماضي ولا توقف عن المستقبل .

ومن مظاهر الزيف الكثيرة التي لا نتفطن لها اننا في السنين الأخيرة حسبنا أننا عثرنا على سر نهضتهم المستمرة وركودنا المستمر ، وظننا أن هذا السر هو تقدمهم العلمي في ميادين الطبيعة والتكنولوجية.وقد بلغ هذا الشعور الزائف عندنا في بلاد المغرب أن جعل أحد الكتاب المحترمين يتقدم إلى الشباب بهذه النصيحة : « أقلوا من العناية بالفلسفة والأدب ، واكثروا من العناية بالعلم والصناعة ، اهتموا كل الاهتمام بالعلوم العلمية ، فالعصر عصر العلم ، والثقافة السائدة هي ثقافة علمية .. والأدب والفلسفة من البضائع التي أصبحت قليلة القيمة في وقتنا الحاضر وستكون أقل قيمة في المستقبل » .

وعندنا في الجزائر على وجه أخص تكاد هذه النزعة إلى العلوم الطبيعية والتكنولوجية تصبح تعبيراً عن عقدة نفسية أكثر منها اختياراً فكرياً مدروساً ، فالرياضيات الحديثة ، والآليات الفنية ، والكيمياء البترولية ، تكاد تغمر كل أنواع الدراسات الأخرى في الثانويات والتعليم العالي بجملتهما ، بحيث تسربت الرياضيات حتى إلى كلية الآداب وأصبح دارس علم النفس لا يستطيع أن ينال شهادة الليسانس إلا إذا كان بارعاً في الرياضيات . وأذكر أنني شخصياً ظللت أشارك في الاجتماعات التي لا تتوقف منذ فجر الاستقلال إلى اليوم للنظر في اصلاح

التعليم وتخليص خيوطه الدقيقة من أشواك النظم الاستعمارية العتيقة . وكانت كل جهودي في هذه الاجتماعات مركزة على التحذير من خطر هذا الاندفاع إلى العلوم التقنية على جساب العلوم الانسانية ، ولكن يجب أن أعترف بأنني لم أنجح في الحد من هذا الاندفاع الذي يغمر زملائي الآخرين . وكان من نتيجة ذلك أننا في الجزائر قد نعد اليوم في طليعة البلدان النامية من حيث النهضة الصناعية الثقيلة والخفيفة على السواء ولكننا على التأكيد نعد في آخر القافلة من حيث الانتاج الثقافي العام . ويظهر فقرنا هذا فيما تنتجه مطابعنا من كتب وصحف . وأكبر أزمة نعانيها في هذا المجال تتمثل في أفلامنا السينمائية التي أصبحت بسرعة تزاحم الأفلام العالمية في تقنية الاخراج ، ولكنها ما تزال تعاني نقصاً فادحاً من حيث الحوار ومحتواه الأدبي والثقافي . وليس ببعيد أن يزداد هذا الخلل عندنا استفحالاً في السنوات القادمة إذا بقينا مصرين على الولوع بالتقنيات . ذلك أن كل شيء أصبح متلاحماً مع كل شيء . ومن الخطأ الظن بأن نجاح الأمريكان مثلاً في الصناعة قد تم على حساب ثقافتهم الأدبية والاجتماعية . ويكفي أن نلقي نظرة على بعض مؤلفاتهم في الميادين الاجتماعية لكي ندرك زيف نظرتنا في أن رقيهم قد تم بالعلوم الصناعية وحدها على حساب العلوم الانسانية والاجتماعية . ويذكر الأستاذ الخشاب في كتابه « علم الاجتماع ومدارسه » أنه نشأ عندهم نضج ورقي مستمران في البحوث الاجتماعية ، واهتموا خصوصاً بالأبحاث الريفية والمدنية . وقضية الهجرة من الأرياف ، وتكاثر المدن الصناعية . وتعقد العلاقات الاجتماعية ، وتغير مستويات المعيشة بتغير الظروف الاقتصادية وبمشكلة عدد السكان والمواصلات والجرائم وانحلال الروابط الأسرية وانخفاض المعايير الأخلاقية ومستويات الذوق العام ، كما اهتموا ببحث أصول الثقافات وانتشارها بسبب ما عرفته أمريكا أكثر من غيرها من أنواع الهجرة الخارجية . ودراسات العادات الشعبية وأساليب التفكير المتنوعة ، وتأثير التقدم العلمي على السلوك الاجتماعي والفردي وتأثير الأحوال المادية والمعنوية على حياة المجتمع . كما اهتموا أخيراً بتحسين مناهج البحث نفسها في الميادين الاجتماعية لتحل محل المناهج القديمة

برموز لها خاصياتها الرياضية حتى يمكن دراسة الظواهر الاجتماعية بالدقة نفسها التي تدرس بها الرياضيات ويعرف هذا المنهج عندهم بمنهج قياس الظواهر الاجتماعية » .

ولا تقل عناية العلماء السوفيات عن زملائهم الأمريكان في هذه البحوث الاجتماعية . أما في الصين التي تطمح إن لم تصبح بعد ، قوة عالمية عملاقة ، فاننا نعرف سلسلة الثورات الثقافية التي تكاد تحدث عندهم في كل عشر سنوات ، وهم يطمحون اليوم إلى تقديم طراز جديد من الدراسات الانسانية لم تعرفه أوروبا وأمريكا ولا حتى الماركسية التقليدية . إذ هم يحاولون أن يجعلوا قيمة التقدم الآني فيما تقدمه من تكامل للتقاليد الحضارية العريقة . وقد اعتبرت الصحافة الأوروبية هذه المحاولة في أول الأمر ضرباً من الجنون . ولكنهم عادوا فعدلوا عن هذا الحكم .

ويمكن تلخيص الموقف الحديث عندهم من قضية العلاقة بين الانسان والتقنية فيما يلي : ان معيار الانسان المنتج ليس فيما يظهره من مهارة تقنية أو علمية ، بل فيما يقدمه للشعب من خدمة . ان هناك مراجعة كاملة في سلم القيم ، تتمثل في السؤال الآتي : هل قيمة السلاح تفوق قيمة الجندي . أم العكس ؟ والجواب عندهم واضح ، وبناء عليه فان قيمة الانسان تفوق قيمة التقنية . ويعد هذا الجواب أساساً من الأسس الكبرى في الثورة الثقافية الجارية الآن في الصين.ولكن هذا الحكم عندهم لا يقف هنا ، إذ هو قد يوحي بتفضيل الثقافة النظرية الأدبية على الثقافة العلمية التقنية . لذلك يضيفون إليه أساساً آخر ، وهو الالحاح على الثقافة العملية وأفضليتها على الثقافة النظرية . بل يعتبرون من الخطر الاهتمام بالثقافة النظرية لذاتها ، والتي لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمصلحة الاجتماعية ، وهو موقف يتعارض تعارضاً مطلقاً مع موقف أرسطو وما أورثه في ثقافات البحر الأبيض المتوسط من ولوع بالنظري على حساب العملي . ولكنه ـ أي الموقف الصيني ـ يلتقي مع الموقف العملي في البراغماتية ، الأمريكية والحركة الماركسية . ويبدو أن الصينيين قد

بالغوا . كما تبالغ كل نزعة جديدة . في تفضيل الثقافة العملية على الثقافة النظرية إلى درجة تفضيل ثقافة العامل المحتك بالتجربة المادية على ثقافة المهندس الذي استمد ثقافته التقنية من الكتب . وهم أخيراً يتهمون فنييهم الذين نعتمد نحن على أمثالهم في رقينا الصناعي . بأنهم استمدوا تقنيتهم من الكتب الأجنبية وكانوا مقلدين وعالة . في حين يستمد العامل معرفته من التجربة المحلية المباشرة . وما يخشى على هذا الفكر الصيني الحديث هو أن يؤدي إذا نزل إلى الطبقات الشعبية . إلى نزعة معادية لثقافة الكتاب.ولكن المهم في الأمر هو أنه إذا كان موقف المنطق الغربي المتوارث عن أرسطو هو منطق المعرفة فان المنطق الصيني الحديث هو منطق العمل . وإذا كان الاتجاه الغربي اتجاهاً علمياً فان الاتجاه الصيني هو اتجاه تقني في النهاية . وإذا كان الفكر الغربي يحلل ويبحث في الأسباب والعلل . فان الفكر الصيني هو فكر النشاط العملي . واذن فالعمال هم العلماء .

أما ما يهمنا نحن من هذا الموقف الصيني . مثله مثل المنهج الأمريكي والماركسي فهو المجهود الفكري الذي بذل ويبذل باستمرار وتزايد في المجال الانساني . والذي لم تستطع التقنيات المتقدمة في هذه البلدان جميعها أن تغطي عليه مهما نعتوا اعتباطاً وزيفاً . بأنهم أمم صناعية ومهما بهرتنا نحن بالخصوص نتائج العلوم التقنية وحدها لأنها تصدر إلينا وتغزونا في عقر دارنا . ونغفل عن الرقي الانساني الذي عليه هؤلاء القوم جميعاً في بلادهم والذي لا يسترعي انتباهنا في الغالب والذي هو نتيجة عنايتهم التي لا تقل ـ كما رأينا ـ عن عنايتهم بالرقي الآلي والتكنولوجي . ان انبهارنا بعنايتهم بالعلوم التقنية وغفلتنا عن عنايتهم بتقدمهم الاجتماعي والانساني بلغ من الزيف بل من السذاجة أن أصبح لا يقل عن سذاجة الأطفال : حدثني والدي أنه كان يسير يوماً في بعض الطريق ، وأمامه طفلان صغيران خرجا من المدرسة إلى بيتهما ، وكانا ، وهما يسيران أمامه يتحدثان بالفرنسية ، فقال لهما : لماذا لا تتكلمان بالعربية . قال الوالد فسكت أحدهما وأجابني الثاني بقوله : « روح يا شيخ في حالك . اننا نتكلم باللغة التي نصعد بها إلى القمر » ! أعتقد أن جواب هذا الطفل يعبر ببراءة عن سذاجتنا نحن الكبار في كل أنحاء الوطن

العربي فيما يتعلق بوسائل الرقي التي يجب ان نستعملها . انه انصراف كلي ومطلق إلى العناية بالتقنية وحدها ، واهمال للوسائل المعنوية في تكوين الانسان سياسياً واجتماعياً وأدبياً .

ولكن في مقابل هذا الزيف عندنا يوجد زيف آخر ، وهو ان ما عندنا من عناية بوسائل التكوين الاجتماعي للانسان العربي ما تزال فاقدة لعنصر العلم والثقافة العلمية والروح العلمية . وأبرز ميدان يظهر فيه هذا النوع الآخر من الزيف ، بل الخطأ والسطحية ، يظهر أكثر ما يظهر في التكوين الديني . إذ ما يزال رجال الدين عندنا يعتبرون ثقافتهم تتمتع باكتفاء ذاتي ليسوا في حاجة معه إلى التزود بالثقافة العلمية والاجتماعية الحديثة . ويلتحق بهذا الصنف من مثقفينا الاجتماعيين . الجمهور الأكبر من الأدباء الذين يكتفون بثقافة لغوية في الغالب . وقد كان في امكان هذين الصنفين من المثقفين في الوطن العربي . وهم ألصق الناس بجمهور الشعب العربي ، أن يساهموا في رفع مستواه الثقافي المتدهور ، لو تزودوا بثقافة علمية واجتماعية حديثة ، وحاولوا أن يحتكوا فكرياً بواقع أمتهم الاجتماعي الخام !

وقد رأينا في المؤتمرات العديدة التي تجري في أنحاء الوطن العربي شرقاً وغرباً ، كلقاءات التعرف على الفكر الاسلامي عندنا في الجزائر وكمؤتمرات رجال الفكر والأدباء العرب هنا وهناك من المشرق فلا ترتقي في أغلبها إلى قمم فكرية تفحص منها فحصاً علمياً ما يتخبط فيه المجتمع العربي من ضبابيات فكرية وحشو ثقافي وتأخر في أسلوب التعامل يدعو إلى الرثاء ، ومن خلط في مفاهيمه الحياتية وتصادم في أذواقه المتنافرة وفقدان لكل هدف أو طموح ، وذبذبة في القيم الأخلاقية والتربية المدنية وعقم في التكوين السياسي والنضج الاجتماعي .

ولكن المثقف العربي نفسه إذا كانت تتوفر فيه صفة الثقافة على نحو من الأنحاء ، فان صفة العروبة في ثقافته هي التي تعز فيه وتندر . اننا إذا توجهنا إليهم في مختلف أنحاء الوطن العربي فاننا سنجد أحدهم يحمل مفاهيم أمريكية للثقافة الاجتماعية ، والآخر يحمل طابعاً فرنسياً والثالث ماركسياً سوفياتياً والرابع

ماوياً ، والخامس سلفياً دينياً والسادس خرافياً مشعوذاً والثامن لفضياً سفسطائياً الخ .. يتكلمون كلهم بلغة الضاد ولكن هذا كل ما يجمعهم من عناصر الثقافة . وكل منهم قد يكون له عذره في اتجاهه ومحتوى ثقافته لأنه تلقاها تلقياً ولم يخلقها خلقاً . ولكن هذا جدير بأن يجعلنا نتساءل على الأقل : أين هي الحقيقة وأين هو الزيف في هذه الثقافة ؟

لعل هذا التساؤل هو الذي خلق اليوم عدداً لا بأس به من جيلنا الجديد في المشرق العربي وفي المغرب ، ممن بدؤوا يشعرون بالحاجة إلى بذل مجهود فكري نعول فيه على أنفسنا لأننا تجاوزنا مرحلة الاعتماد على الآخرين والنقل الآلي لمفاهيمهم ومناهجهم ومحاولة الصاقها تعسفاً واعتباطاً بوقائعنا التي تأباها . ذلك أننا رغم تأخرنا ورغم ما قيل عنا لسنا شعباً بدائياً غفلاً من كل علامة ، أو مستعداً لأن يقبل كل التناقضات المتناحرة بل ننتمي إلى نمط من أنماط الحضارة طبع جزءاً هاماً من تاريخ الانسانية بطابع خاص ، وتراثنا مهما تجاوزته الأحداث والثقافات المعاصرة ، ما يزال يحتفظ بقوة على أن ينبعث إلى الحياة من جديد . وفي تراثنا الثقافي سواء منه المكتوب في عصور حضارتنا ، أو الحي الماثل في حياتنا الاجتماعية من عادات وقوانين وعقائد وتقاليد وفنون وآداب ـ ان في كل ذلك لثروة زاخرة بالامكانيات ولكنها ظلت مخزونة كثروتنا البترولية بدون استغلال بحيث يستطيع أبناء الأمة العربية اليوم إذا تفطنوا لكنوزهم الثقافية بأنواعها ، أن يستخرجوا منها مناهج خاصة بهم وقادرة على خدمة مجتمعهم والنهوض به نهضة ثقافية في الميادين الاجتماعية بأنواعها لا تقل عن تراث غيرنا من وارثي الحضارات الكبرى ولكن هذا التراث المكتوب منه والحي على السواء يتطلب جهداً علمياً هادفاً وجرأة على التحرر من عادات عصور الانحطاط الفكرية ، ومن عادات الاستلاب الحديثة معاً . ويشرفني أن يكون عدد من أبناء المشرق الفحول قد سبقوا أبناء المغرب إلى الدعوة إلى هذا المنهج المستقل المتمثل في التتلمذ من جديد على العالم العربي الأصيل في هذا المجال الاجتماعي ، وهو عبد الرحمن بن خلدون وفي مقدمة هؤلاء الداعين الأفاضل أذكر الدكتور علي الوردي في كتابه القيم

« منطق ابن خلدون » . ولكنني أريد فقط أن أضيف إلى دعوته التي أشاركه فيها معتبراً أنها الشارة أو الخطوة الأولى التي نخطوها في سبيل تحررنا الثقافي ـ أريد أن أضيف أمرين : الأول ان منهج ابن خلدون في الثقافة الاجتماعية هو المنهج العلمي الذي أرسى قواعده ومتن أصوله على مر العصور جميع عباقرة الانسانية من أرسطو إلى جون ديوي أو ماركس . وان ابن خلدون إذا تميز عن هؤلاء جميعاً بشيء فهو بالنسبة إلينا أقربهم اهتداء إلى تحليل أوضاعنا ، اوأكثرهم جدوى لما نطمح إليه من عناية أصيلة مستقلة بدراسة شؤون مجتمعنا . واذن فما يدعونا إلى التتلمذ عليه ليس هو انتساب إلى جنسنا والتعصب له بل روحه العلمية الجريئة الواضحة .

والأمر الثاني هو أن ابن خلدون نفسه قد تحرر من تحكم العادات الفكرية ، التي سار عليها أسلافه في الثقافة الاجتماعية ، وتحرر في الوقت نفسه من التقليد اليوناني التجريدي الذي ولع به الكثيرمنهم . وهو من ثم يعتبر إن شئنا سندنا الأكبر فيما ننزع إليه اليوم من التحرر من نفس العبوديتين الفكريتين اللتين نعانيهما في عصرنا الحاضر أيضاً : عبودية أسلافنا بمناهجهم الخطابية السطحية ، وعبودية من بهرونا في العصر الحاضر بتقنياتهم الآلية وبقوالبهم الفكرية التي لا تنطبق تماماً على وقائع حياتنا الاجتماعية .

وأخيراً لأننا بهذا المنهج العربي الأصيل والعلمي المستقيم سنجد حقاً معيار الحقيقة والزيف في حياتنا الاجتماعية كلها وعلى وجه أخص في ثقافتنا الاجتماعية ان ابن خلدون بالرغم من كل ما اتهمه به فريق من الجيل الماضي من مثقفينا ، وفي مقدمتهم طه حسين وعبد الله عنان ـ يبقى هو الابن البار لأمته العربية التي لم يزيف لها حقيقتها ، وانما عمد إلى تشريحها بأمانة ، وجرأة وسجاعة ، كان يجب أن تصبح هي المدرسة الفكرية الأولى عند مثقفينا في العناية بشؤون أمتهم ، بحيث لو كان هذا الرجل عند أمة أخرى من الأمم الأوروبية التي تحترم تراثها وتبني عليه الجديدالمستمر . لاتخذت من اثاره أول وثيقة تدرس في جامعاتها في شؤون

الاجتماع ، ومع ذلك فابن خلدون ليس هو كل ما نملك ، كحقل خصب للدراسة والبحث بل يوجد إلى جانبه شعبنا العربي نفسه الذي لا تقل مادته الخام غزارة للدراسة والبحث عن تراث ابن خلدون المكتوب وكلا المنبعين مترابطان عضوياً ، إذ ليس تراث ابن خلدون المكتوب غير تراث الشعب العربي نفسه معقلنا ومدروسا .

إن نهضتنا الحديثة قد تجاوز عمرها نصف قرن من الزمن ، وهي مدة استطاع فيها الاتحاد السوفياتي أن يقفز من مجتمع متأخر إلى دولة عظمى ، واستطاعت أمريكا في ضعف هذه المدة أن تكون معجزة القرن العشرين ، واستطاعت الصين في أقل من نصف هذه المدة أن تحتل مكانتها بينهما . والسبب الأساسي في نظري انه كان لهم فلاسقة اجتماعيون انكبوا على دراسة أوضاعهم وتشريحها علمياً ، إلى جانب علمائهم الطبيعيين والتقنيين ، وانصرفنا نحن طيلة هذه المدة إلى الثقافة اللفظية والفخر والهجاء الجاهلي ، والجدل الكلامي ، فبقينا حيث نحن في حقيقتنا ، وإن تغير زيفنا تغيراً كبيراً ، وتزيفت نظرتنا إلى واقعنا تزييفاً أخطر !

ولئن وجدنا عند ابن خلدون شيئاً يخلصنا من هذا الزيف المضاعف ، واقعاً وفكراً ، فهو حكمه علينا باننا نميل إلى البسائط من الأمور . وترك المجتمع ينبت ويتكاثر ويعيد أمسه في يومه ، هو أمر سهل . أما تنظيمه واقامة هذا التنظيم على أسس الفكر والدرس ، فهو الأمر الصعب وقد تهربنا منه كثيراً ولكن لا مناص لنا من مجابهته اليوم أو غداً .

لقد عشنا طيلة فترتنا الحضارية الحديثة بعادات الأموات من أسلافنا ، إلى جانب ثقافة الأطفال من محدثينا . وهكذا كان زيفنا مضاعفاً .

والخلاص من هذا الزيف المضاعف في حياتنا وفكرنا هو بذل المجهود الفكري الذي تهربنا منه لحد الآن في المجال الاجتماعي ، بذل مجهود في فهم واقعنا علمياً قبل أن نعمد إلى تغييره عملياً .

لقد حكم ابن خلدون على الفرابي في الشرق بأنه أضل السبيل لأنه درس

المجتمع كما يجب أن يكون قبل أن يفهمه كما هو كائن . وحكم على ابن رشد بنفس الضلال لأنه درس المجتمع العربي بقوالب أرسطو الفكرية. ولكن كلا المنهجين الضالين الزائفين ما يزالان مسيطرين على عنايتنا الثقافية بالمجتمع إلى اليوم بأشكال أخرى .

البحث عن الحقيقة

كان في نيتي أن أنقطع مدة عن الكتابة ، لا لأستريح أنا بل لأريح القراء بعض الشيء من انتقاداتي التي تبدو للبعض أنني أبالغ فيها ، وأنني لا أرى إلا الجانب الأسود من أوضاعنا .

كذلك كان بودي أن لا أشارك في هذا الطوفان من الكلام الذي غمر صحافتنا وإذاعتنا في المشرق والمغرب عن هزيمة ١٩٦٧ . لأنني لا أعتقد أن الناس سيقرؤون كل ما يكتب لهم وينشر عليهم ويذاع فيهم . ولأن هذا الطوفان من الكلام دل مرة أخرى على أن كل طاقتنا نفرغها في الكلام . ولا نبقي شيئاً منها للعمل الصامت . ومنذ القديم قسم الجاحظ الأمم فأعطى التفكير لليونان والحكمة للهند وأعطى للعرب الفصاحة .

والفصاحة عندنا اليوم هو الكلام المرسل على عواهنه . الكلام الذي لا يتثبت ولا يبحث الماضي ولا يتطلع إلى المستقبل . وإنما هو مقصور على اللحظة الحاضرة . والذي يعبر عن سخط أو فرحة أو ألم . كلام لا يعبر عن فكر ولا يبحث عن واقع وإنما هو يهذي بعاطفة أطفال أو بدائيين .

وفي العصر الحديث قسم أحد المفكرين مواهب الأمم على نحو ما فعل الجاحظ في القديم فقال : ان الانكليز يبحثون الواقع ، والفرنسيين يبحثون الفكر ، وأود أن أضيف إليه أن العرب يبحثون عن الكلام .

كل هذه الأسباب جعلتني أرغب في الاحتجاب مدة عن القراء . يضاف إلى كل هذه الأسباب أنني أحترز مما أكتبه تحت تأثير الانفعال ، لأنني ككل العرب أخواني أكتب بالعاطفة أكثر مما أكتب بالعقل الهادئ . والعاطفة نفسها حبلها لا يوصلك إلى آخر المطاف .

ولكن كل هذه الأسباب لم تقنع أخواني في أسرة « المجاهد » وقالوا : لا يجوز أن يتخلف منا أحد عن المعركة .

فقلت حسناً ! ولكنني سأكون أكثر قساوة في هذه الظروف مما كنت في الظروف العادية . محاولاً ما استطعت أن لا أكون ساخطاً .

قرأت ما استطعت قراءته مما كتب عن « النكسة » وسمعت كما سمع غيري ما يقال هنا وهناك عن أسباب هذه « النكسة » . ولست أرى لحد الآن لماذا سمينا هذه الوضعية بالنكسة كما لو كنا قد شفينا من المرض ، ولكن جاءت هذه الحادثة اللعينة فأردتنا إلى حالة المرض التي كنا فيها منذ سنوات أو منذ قرون . ومن هنا يبدأ التضليل . ولكن لندع هذا الآن .

فيما يتعلق بالأسباب قيل ان أسبابها عسكرية أي ان القوات الاسرائيلية ومعاونيها من الأميركان والانكليز كانت أكثر قوة جوية من العرب .

وقيل ان أسبابها سياسية دولية بمعنى أن حلفاء اسرائيل كانوا أكثر جرأة في اعانتها من حلفاء العرب .

وقيل ان الأسباب تقنية وان اسرائيل ـ بمعاونة الأميركان ـ استطاعت أن تعرقل آلات الاتصال فيما بين القوات العربية وتضللها .

وقيل أيضاً : ان الأسباب خلقية ، وان خيانات كثيرة اكتشفت في بعض القوات العربية ، وان أصحابها كانوا يتعاونون مع العدو منذ وقت طويل أو قصير .

وتهكم الناس خارج البلاد العربية ما شاء لهم التهكم ، وأرخوا العنان لأنفسهم طيلة أيام في « تمريغ الشرف العربي بالوحل » كما قال بومدين.وقال هؤلاء المتهكمون : ان العرب ما زالوا بدوا وظنوا أن شجاعتهم الفردية تساوي شجاعة الغرب الجماعية المنسقة المنظمة وترجحها في الميزان . بل قالوا عنا ان العربي كان ينتظر الدبابة الاسرائيلية حتى تصل إليه ويتوقع أن ينزل منها الجندي الاسرائيلي ليتبارز معه بالسكين أو بالعصا .. إلى آخر مئات وآلاف النكت التي تهكم بها علينا الغرب في هذه النكسة والتي ستبقى سجلاً لأجيالنا القادمة يكتشفون فيها ما لا يشرفهم كثيراً أن ينتسبوا إلى أمتهم .

وكل هذه الأسباب وكل هذا التهكم ، فيه ـ كما يقول التعبير الفرنسي ـ ما يؤكل وما يشرب ، وفيه الصحيح وفيه الزائف والغث والسمين .

ولكننا عندما نحاول أن نجمع هذه الأسباب ونبحث لها عن جذور وأصل نبتت منه يمكننا أن نجد هذا الأصل في سبب ـ أقول رئيسي ـ لا سبب وحيد ، لأنه لا وجود لظاهرة أو حادثة ترجع إلى سبب واحد . هذا السبب الرئيسي هو أننا لا نريد أن نبحث عن الحقيقة . لا أقصد البحث عن حقيقة هذا الذي نسميه اليوم « نكسة » والذي كنا نسميه قبل اليوم « النكبة » ، وإنما أقصد أن البحث عن الحقيقة ليس في طبعنا ، واننا نتأذى منه ولا نريد أن نحوم حوله . والبحث عن الحقيقة ـ في كل شيء ـ هو الذي قاد أوربا والغرب والعالم المتحضر إلى بسط سيطرتها على الكون الأرضي والانتقال بعده إلى العالم العلوي . ومن بين بحثهم عن الحقيقة يبحثون عن حقيقتنا نحن التي لا نريد أن نبحثها بأنفسنا فكانوا أعرف بها منا ، وأدرى بأنفسنا وأوضاعنا من أنفسنا .

ليس من المناسب هنا أن أجعل من هذا الحديث بحثاً فلسفياً . فلا أحد منا ـ

في هذه الظروف ـ يطيق التفلسف أو يسمح لك بأن تتفلسف عليه . لذلك سأعمد فقط إلى بعض الأمثلة والوقائع والشواهد : منذ حوالي سنتين كتبت هنا شيئاً عن فلسطين وذكرت بعض الحقائق ملطفة غير جارحة تتعلق بسلوك بعض الفلسطينيين وكيف باع شبابهم البورجوازي مزارع واسعة للمعمرين اليهود وشرب بها ويسكي في حانة يهودية تقف فيها حسناء يهودية . وكيف تتحول المزرعة من يوم بيعها إلى قلعة محصنة . فوق أرضها ينمو العشب والشجر والخضر . وتحت أرضها دهاليز شحنت بالمتفجرات والأسلحة استعداداً ليوم الاعلان عن ميلاد الدولة اليهودية فجاءني رد متوجع متألم : كيف أقول هذا في اخواني الفلسطينيين ؟ وفات الأخ ـ كما قلت له في تعقيب قصير ـ انني لا أتحدث عن الفلسطينيين ولكنني أتحدث عن عيوبنا نحن التي سجلناها في فلسطين كما سجلنا مثلها من قبل في الأندلس . قال أرسطو : اننا نحب أستاذنا أفلاطون ولكننا نحب الحق أكثر . وقال الغزالي : أعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال .

ونحن اليوم ـ في عصر تأخرنا هذا ـ آخر شيء نفكر فيه هو الحق والحقيقة . ولست أدري متى نقتنع بأنه لا مناص لنا اليوم أو بعد قرن أو ملايين السنين من أن نفضل الحق على الصداقة والقرابة وعلى أبنائنا وأنفسنا . واننا عندما نحقق الانتصار على أنفسنا في هذه القضية عندئذ فقط سنتغلب على ألف اسرائيل .

حقيقة أخرى لا نريد أن نبحثها ولا نريد أن نعترف بها . أو هي نفس الحقيقة في شكل آخر

نريد من الروس أن يحاربوا أميركا من أجلنا . ولا نريد من أنفسنا أن نحارب من أجل أنفسنا . اننا نلقي التبعة على روسيا لأنها لم تكن جريئة في اعانتها لنا كما أعانت أميركا اسرائيل . وسواء كانت المقارنة صحيحة كثيراً أو قليلاً فليست هي التي تهم . المهم أن هذه المقارنة جعلتنا نغفل عن القاء التبعة على أنفسنا . اننا نريد أن تكون روسيا أكثر منا حماساً وتضحية من أجل فلسطين . أن يموت من أجلنا أبناؤها العلماء المنعمون لكي لا يموت أبناؤنا نحن الجهلة المتسولون . ولنا سلاح

بعيد جداً عن الموت . إذا أصبحنا نخشى الموت ولم نعد مثلما قال عنا خالد بن الوليد . بأننا نحب الموت كما يحب غيرنا الحياة . وهذا السلاح هو البترول . نريد أن يضحي من أجلنا الروس بطائراتهم ودباباتهم وأسلحتهم وبناتهم وأبنائهم أيضاً ولا نضحي نحن ببيع البترول لأولئك الذين يشحنونه في طائراتهم ليقتلونا بها .. إن الدراهم الحقيرة التي نلتقطها مما يتساقط من حساب الشركات الأجنبية نريدها أن تكون أعز علينا من أبناء روسيا على دولتهم .

كل هذا يسمى الاعتماد على النفس . وهذا ما لا نريد أن نسمع أحداً يحدثنا عنه أو يثيره في وجوهنا . وكان بومدين هو المسؤول العربي الوحيد الذي أثار شيئاً من هذه الحقيقة .

والغريب أننا نظن أن الروس لا يفكرون في كل هذا وانهم مغفلون . ونتوهم انهم يشعرون بالخزي أمامنا عندما نعاتبهم لمجرد كونهم لا يصارحوننا بهذه الحقائق . ويراعون عواطفنا البورجوازية الرقيقة .

حقيقة أخرى هي بنت الأولى ومتولدة عنها : كلنا نعلم أن أميركا هي التي أعطت السكين لليهود ليطعنونا ونحن نيام . ونقول هذا لنبرر به هزيمتنا المنكرة . وكوننا لم ننهزم أمام اسرائيل بل أمام أميركا .

ولكنا نعلم ونقول أيضاً بأن الأمم المتحدة تتحكم فيها أميركا وانها تشتري فيها الأصوات بالدولارات كما تشتري أوراق اليانصيب . ومع ذلك نجند جيشاً من الديبلوماسيين إلى هذه الهيئة ونريق فيها ماء وجوهنا ونمرغ كرامتنا هناك أيضاً لنحصل على فقرة من لائحة تدين اسرائيل أو « تطلب » منها الانسحاب . بعبارة مختصرة : أمريكا تضربنا في القدس أو غزة ونشتكي إليها في نيويورك . نشتمها في الشرق لأنها خدعتنا ، ونطلب منها في الغرب أن تنصفنا ولا تصفعنا .

كيف نريد من العالم أن يحترمنا أو يؤيدنا أو يشعر بأن لنا قيمة الرجال ؟ !

وكان بومدين أيضاً هو المسؤول العربي الوحيد الذي قال شيئاً من الحقيقة عن

هذه الهزيمة التي كانت تنتظرنا في الأمم المتحدة . لقد كانت أميركا منطقية مع نفسها : تضربنا في غزة ونيويورك معاً ، وكنا أطفالاً نتوقع أنها تمسح هنا دموعنا التي أسالتها هناك . بل نذهب إلى مقابلة الرئيس الأمريكي نفسه ونعتذر إليه عما بدر منا من اتهامه بأنه شارك في العدوان علينا .

اننا ـ ونحن ضحايا أميركا ـ نحرص على صداقتها ، ونريد من روسيا أن تعاديها من أجلنا . ولن تبقى إلا خطوة واحدة نعترف فيها نحن باسرائيل لنتفاوض معها على ثمن الانسحاب ، ونعادي روسيا إذا أعادت علاقاتها الديبلوماسية مع تل أبيب . ومن يدري لعل فينا من يفكر بأن روسيا وقفت معنا ضد اسرائيل لتشتت شملنا وتعوقنا عن تحقيق الحلف الاسلامي .. مثلاً ! ؟ نعم من يدري ؟ ألم يقل لي أحدهم يوماً : « أيها الاشتراكيون . أين حليفتكم روسيا ؟ فقلت : تفطنت لروسيا لأنها لم تعنا ، ولم تتفطن لأميركا وهي تقاتلنا . »

ألم يقل لي ثانيهم : « عندما كان صلاح الدين يحارب باسم الدين انتصر على أوربا كلها ، وأنتم اليوم تحاربون باسم الاشتراكية غلبتكم حفنة من اليهود » . فقلت : « ان البلدان الاشتراكية في المعركة أربعة ، والبلدان غير الاشتراكية فيها سبعة وكلها متحمسة للدين مثلك لا مثل صلاح الدين الأيوبي » .

حقيقة أخرى هنا في الجزائر بالذات : في عنفوان الكارثة أصيب طفل صغير لي بحادث استوجب نقله إلى المستشفى . كان لا بد من اجراء عملية خياطة على جرحه البليغ . فخاطت له الطبيبة جرحه بدون مخدر محلي لأنه لا يوجد عندنا مخدر لمثل هذه العمليات الجراحية . فكان الطفل يصرخ والابرة داخلة خارجة في لحمه الحي فقلت للطبيبة : كيف ؟ نحن مقدمون على حرب تستوجب العمليات الجراحية في كل لحظة ، ولا يوجد عندنا المخدر لمحلي ؟ » فقالت بكل عجرفة : « هذا ليس شغلي ! » وبعد نصف ساعة انقطع التيار الكهربائي وبقي مقطوعاً ساعة إلا ربع الساعة . فقلت للممرض : كيف ؟ ألا يوجد عندكم مولد كهربائي احتياطي تزودون به المستشفى في حالة انقطاع الكهرباء أو غارة جوية ونحن في

حالة حرب ؟ » فأجابني الممرض : « أظن أنه يوجد عندنا مولد . ولكن لا أدري لماذا لم يستخدموه ؟ » .

هذا نوع من استعدادنا للحرب : التيار الكهربائي منقطع عن المستشفى والمخدر لا وجود له .

نوع آخر من استعدادنا : خرجت منذ أيام مع أحد الأصدقاء إلى ضواحي العاصمة في قلب متيجة ، فوجدنا حقول القمح الطري (نحو العشرة حقول أو أكثر) تعالت سنابلها إلى أقصى حد وعانقتها الأشواك ثم أهوت جميعها واتكأت بعضها على بعض دون أن تحصد . وشاهدت قناطير الأعشاب (القرط) قد حصدت بآلة الحصاد وربطت بأسلاك حديدية ولكنها بقيت هنا وهناك ملقاة في الحقل حتى نزلت عليها الأمطار فعفنتها ولم تعد صالحة للاستهلاك .

القمح في أرضنا لا يحصد ونحن نشتري القمح من الخارج بالعملة الصعبة . وأعشاب الحيوانات تتعفن بالأمطار ونحن نشتري الحليب من فرنسا . العمال لا يتصورون أبعاد هذه الخسائر ، وأنا أكتب عنهم وأشعر أنهم غير مسؤولين إلى الحد الذي يبدو لأول وهلة ، وحتى مسؤولوهم غير مسؤولين بقدرمسؤوليتنا نحن المثقفين على هذا الاهمال . ستقول كيف ؟ وما دخلنا نحن في حقول متيجة ؟

دخلنا هو أننا نكتب وننتقد ما شئنا ، ولكن العمال الأميين لا يقرؤون ما نكتب ولا يحسون حتى بوجودنا لأن هناك جداراً يقوم بين اللغة التي نكتب بها وبين اللغة التي يستعملونها في حياتهم . إن لغتنا لغة ارستقراطية فكرية لا يفهمها عمال متيجة ، وعندما نشعر ـ في مثل هذه الظروف التي نعيشها الآن ـ بالحاجة إلى تجنيد الشعب لمعركة من المعارك لا نعرف كيف ندخل إليه ما يجب أن يعلمه من « ثقافتنا » .

في السنة الماضية قام أحد شبابنا الجريئين الشاعرين بمسؤولياتهم فألقى محاضرة في مدرج الجامعة على مسامع « المثقفين » في بلادنا . وقال في هذه المحاضرة :

ان لغتنا صعبة جداً ويجب أن نيسرها للشعب حتى يسهل عليه تعلمها وحتى نستطيع أن نقاوم بها اللغة الفرنسية وروح الفرنسة التي انتشرت في بلادنا بعد الاستقلال . فقامت جماعة من المتحمسين لقدسية اللغة وصاحوا في وجهه : « إن هذا كفر ! إن هذا مس بقوميتنا المقدسة ؟! » ولم يتركوه يتم محاضرته .

وفي الأسبوع الموالي أقيمت محاضرة جديدة عنوانها : العربية سهلة جداً . فأحرزت على اعجاب « المثقفين » في بلادنا ودغدغت النيام ليزدادوا نوماً ولذة أحلام . ولكن الجدار بقي قائماً بين ما نكتبه « بعربيتنا السهلة جداً » وبين الشعب ، وأصبحنا في مثل ظروف اليوم نشعر بالعجز يكبلنا عن تجنيد شعبنا بوعي وإدراك لفهم المعركة وخوضها لا بعاطفته العفوية بل بعقله الواضح المتفهم . وكل شعبنا العربي أمي وكل مثقفيه ينعقون في الاذاعات ويكتبون في الصحف . ولكن الشعب يحاول جهده أن يفهم القليل ويضيع عنه الكثير إن لم يفهم القليل فهماً معكوساً .

اننا لا نستطيع أن نفهم عمالنا في متيجة أو نابلس أو بنغازي بأن الأرض التي لا يخدمونها هي عبارة عن فلسطين أخرى يضيعونها . وأن العالم لا يريد أن يرجع إلينا فلسطين لأنه يزعم أن الستين مليون شجرة التي غرسها اليهود سيأكلها الماعز العربي .

وكل هذا نحن مسؤولون عنه في الدرجة الأولى . لأننا نحب أن تبقى لغتنا محفوظة في المصحف فقط ولا تخرج إلى الحقل ولا تدخل بيت العامل ولا تقترب من المصنع . أي نريد في الحقيقة أن نبقى نحن بعيدين عن الشعب نحمي أنفسنا منه باللغة ونحيطها بسياج من القدسية المصطنعة ومع كل هذا الجمود الذي نحن فيه لا حديث لنا إلا عن « الثورية » ، فهذه الكلمة هي التي تجدها أكثر شيوعاً في كتاباتنا بالمشرق والمغرب في حين أنها لا تحمل شيئاً من معانيها ـ عندما نكتبها ـ إلى ذهن الشعب .

من بين التعاليق التي قرأتها عن هزيمتنا أن من أسبابها كون الجيش الاسرائيلي لا يوجد فيه أمي واحد ، وأن الجيوش العربية مؤلفة في أكثريتها الساحقة من أناس

لا يقرؤون ولا يكتبون .

هنا أيضاً في الجزائر تألم كثير من المثقفين لايقاف استيراد كتب المؤلفين اليهود أو حلفائهم . وقالوا : « ان شؤون الفكر لا علاقة لها بالسياسة » **فقلت** : « إذا سمحتم لي بأن أدخل معكم في حلقة المثقفين فانني أقول باسم الثقافة أن هذه المقاطعة ليست واجبة اليوم فحسب ومن أجل قضية فلسطين ، بل كان يجب أن نبدأ بها منذ اليوم الأول للاستقلال . وأن لا تكون المقاطعة متعلقة بالمؤلفين اليهود فحسب ، بل كل هذا الانتاج المائع ، وهذا الفكر الضبابي التائه ، وهذا الفن الذي لا يؤمن بقيم أخلاقية ولا حتى بجهد فني ، كان يجب أن نهتم بانتاج أوربا في عهدها الزاهر ، من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر وإلى ما قبل الحرب العالمية الثانية .. فقط . أما بعد أن سيطر الأدب الأمريكي الاجرامي ، والموسيقى الأمريكية المسعورة والصحافة الأمريكية التجارية ، وكل القيم المعنوية والخلقية الوضيعة والتي هي من صنع شركات تجارية يهودية أكثر مما هي خلق فكري رفيع ، أما بعد أن سيطر هذا الانتاج الأمريكي اليهودي على الأدب والفن وشؤون الفكر فأحسب أن مقاطعته تتجاوز قضية فلسطين إلى قضية الحياة أو الموت بالنسبة لشعوب هزيلة جسمياً وفكرياً وخلقياً مثل شعوب العالم الثالث كلها .

إن كل الانتاج الفكري والفني الذي تذيعه أميركا ودول الغرب التجارية في شعوبنا الهزيلة المريضة.لا توقظ فينا إلا غريزة التمتع والشهوات الجامحة بمغرياتها التي لا حصر لأنواعها ونحن لا نملك أي حصانة حضارية أو دينية أو خلقية تمكننا من أن نستمتع بميزان ونقبل على الاغراء باعتدال كما تفعل الشعوب المتحضرة ، نحن نندفع إلى كسبها بأي ثمن ، ويصبح الربح هو ديننا ونصل إلى حد خيانة أوطاننا وبيع أسرار بلادنا إلى امرأة جميلة أو بألعاب براقة أو في سهرة راقصة لكي نستمتع بتلك المغريات التي لا تقاوم .

لذلك أود أن لا نقاطع الكتب والأفلام والصحافة الغربية فحسب ، بل لا بد من مقاطعة كل ما نستطيع مقاطعته وفي مقدمتها هذا الطوفان من الأقمشة والملابس

المغرية هي أيضاً . والتي هي ملك لليهود يوجهون بها أذواق الناس كما يريدون ويخلقون أذواقاً ويقتلون أذواقاً كما يشتهون وكما تشتهي ثرواتهم التي تذهب إلى اسرائيل .

إن الذي يزور سوريا يندهش للتقدم الذي بلغته في صناعة الأقمشة . وما تنتجه يكفي البلاد العربية كلها . ولكننا في كل البلاد العربية . وفي مقدمتها الجزائر . نترك أسواقنا مدناً مفتوحة في وجه الأقمشة اليهودية فلا نقاطعها لنستورد أحسن منها وأبخس ثمناً من سوريا .

وفي الكويت كل ما يشرب وما يؤكل يأتي في علب من أميركا . وأسواقنا نحن مكتضة بمشروبات الفواكه فلا تشتريها منا الكويت . نعم هناك مشكلة المواصلات والأسطول التجاري . ولكن رؤوس الأموال العربية النائمة في بنوك لندن وسويسرة كانت تستطيع أن تشتري أكثر من أسطول تجاري تتبادل به الدول العربية بضائعها وتنقل به بترولها إلى أنحاء العالم وتكسب به من الأرباح أضعاف ما تكسبه من بيع البترول في منابعه .

أريد الآن أن أنتقل إلى الوجه الآخر من الحقيقة قلت أن الغرب تهكم بنا وسخر منا وشعر نحونا باحتقار أكثر من أي وقت مضى . والغرب بالنسبة إلينا ـ نحن الجزائريين ـ في هذا الميدان هو فرنسا وصحافتها واذاعاتها المختلفة . وبالرغم من أننا نعرف بأن الصحافة والاذاعة في فرنسا أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية مصابة بداء التجارة ، وانها ـ كما هو الأمر في أميركا ـ عبارة عن أسهم في شركات تباع في الأسواق وتسيطر عليها الأسهم اليهودية بحيث في امكان العرب أنفسهم أن يشتروا صحيفة أو مجلة أو حتى إذاعة ـ أقول بالرغم من هذا لا يجوز للفرنسيين، أن يسخروا من العرب بل يجب أن يذكروا هزيمتهم أمام الألمان ، وأنهم آخر من يحق له أن يسخر من المنهزمين . وإذا جاز لرجل في فرنسا أن يسخر ممن يقبلون الهزائم ، فهذا الرجل هو الجنرال دي غول . ولكن هذا الرجل الذي يعرف الحرب كما يعرف السياسة ويحب فرنسا أكثر مما يحب أميركا واليهود ، ويعرف أن الحرب

سجال : يوم لك ويوم عليك . هذا الرجل وقف وحده في فرنسا وفي الغرب كله موقفاً يشرفه كرجل وكفرنسي . وهو وحده الذي لم يسخر ولم يشمت . وكان يجب على باقي الفرنسيين أن يستفيدوا من وطنيته ومهارته ورجولته .

أما نحن فان بحثنا عن حقيقة أنفسنا بكل شجاعة لا يغطي عن أعيننا الانتصارات العميقة التي تحصلنا عليها في هذه الهزيمة المرة . حتى اننا نؤمن بأن هزائم أخرى لا بد لنا منها لكي نعثر على حقيقتنا كاملة . وعندئذ سيكتشف أعداؤنا أننا لم نمت وأننا نستطيع أن ننتفض فيزول القبر والكفن .

لقد اكتشفنا هنا في الجزائر مثلاً أشياء أثلجت الصدر : لأول مرة يتحدث المثقفون عندنا بالفرنسية عن شيء اسمه الأمة العربية . بحيث لو أردنا أن ندخل إليهم هذه الكلمة في لغتهم لتطلب النقاش حولها شهوراً وسنوات . وهي ليست مسألة تعبير لغوي . بل هي يقظة لوحدة المصير وان ما يربط بين الجزائري المثقف بالفرنسية وبين غيره ليس رابط الثقافة أو لغة الثقافة بل هو الرابط الحضاري والعرقي ورابط المصير .

واكتشفنا أن أولئك الشبان المتهورين في شوارعنا لم يموتوا بالنسبة إلينا كما كنا نظن . بل هم أحياء عند شعبهم يرزقون . لقد كانوا هم الذين يملؤون الصفوف أمام مكاتب التطوع ومراكز جمع الدم . لقد تبدلت كل مساوئ الجزائري إلى حسنات : أصبح تهوره شجاعة . وفظاظته رجولة . واندفاعه الجنوني فداء . وطيشه قوة . وتحولت أنانيته إلى تضامن . وعدم مبالاته إلى عدم اكتراث بالحياة .

قال لي أحد الزملاء من المدرسين السوريين : لو لم تكن هذه المناسبة لبقينا هنا سنوات أخرى دون أن نكتشف الشعب الجزائري .

إن ثورة أول نوفمبر ومحنها الشديدة صيرت أكثر الجزائريين قرباً من الفرنسيين - صيرتهم يكتشفون جزائريتهم . أما كارثة فلسطين فقد صيرتهم يكتشفون عروبتهم . وعرب المشرق مهما تكن الخيانات التي تكشف عنها هذه الكارثة ومهما تكن مرارة

الصدمة التي شعروا بها فان وحدة المشاعر عند الجماهير قد استيقظت بسرعة وقفزت مراحل لا تقطعها في الظروف العادية إلا بعد عشرات من السنين . ووحدة المشاعر الجماهيرية ويقظتها السريعة ووعيها المفاجئ لفاجعة وضعها ستكون هي نهاية عصر الانحطاط الحضاري الذي نعيشه منذ قرون ، وليست نهايته هي نيل هذا البلد أو ذاك لاستقلاله المزيف أو الصحيح .

إن اكتشاف الحقيقة هو بداية الرقي ، ومعركتنا مع الغرب معركة حضارة قبل كل شيء.وطبيعة الحياة وقانون الجدلية في ميدان الحقيقة هو أن يأتي الخير من صميم الشر ، وتنبثق الحياة من أعماق الموت .وتهب اليقظة من خميرة الجمود وكارثة فلسطين ليست إلا حلقة أخرى من سلسلة الكوارث التي ظلت تهز المجتمع العربي منذ عشرات السنين . وليس ببعيد أبداً أن تأتي حلقات أخرى من هذه الهزات . ويجب أن ننظر إليها على انها طبيعية جداً ، وليست « نكسة » مفاجئة ، ولكن الحقيقة الكاملة التي سيتأكد منها الغرب يوماً هي أن العرب يجوعون ويعرون ، ويتسولون الطائرات كما يتسولون الأصوات في الأمم المتحدة ، ويبلغون في عصر انحطاطهم أحط درجات الانحطاط . ولكنهم لا يموتون . يجب أن يعرف الغرب أن العرب سيبعثون حضارتهم من جديد ، وانهم لن يموتوا كما مات اليونان . وإذا كان هذا التجدد هو ما يخشاه الغرب منا فاننا سنصل إليه عن طريق الكوارث نفسها التي ينظمها ضدنا الغرب .

مع التيار

ـ هل أتاك حديث ذلك المستشرق الثائر : « ليفي شتراوس » ؟ انني لن أسوقه لك لأنني أشارك صاحبه فيما يرى ، بل لأبين لك أن الأوربيين مهما بلغوا من الرقي فهم غير راضين عن أنفسهم ، أو ان شئت فهم بسببُ ما بلغوه من الرقي ، ومن تفتح الامكانيات ونهم المعرفة أصبحوا يشعرون بأنهم كانوا يستطيعون أن يمشوا أكثر مما مشوا ، وأنهم أضاعوا كثيراً من الوقت .

ـ ما هي فكرته ؟

ـ قال « ليفي شتراوس » : « انني لا أسمح للاسلام أبداً بأنه كان سبب تأخرنا ، إن حالة المسلمين تصور حالتنا في فرنسا تماماً ، وانني بعد زيارتي للشرق أدركت كم تسير فرنسا في طريق الحياة الاسلامية ، لقد لاحظت عند المسلمين نفس الظاهرة التي عندنا وهي قناعتهم بالثقافة النظرية وتشبعهم بالأفكار الخيالية التي لا تقبل التحقيق واكتفاؤهم بحل المشاكل على الورق واقتناعهم بأنهم إذا وجدوا الحلول في التقارير فانهم يستطيعون بعد ذلك أن يعتبروا أنفسهم قد نجحوا ، اننا واياهم جميعاً قد وضعنا أنفسنا في قصر من الأوراق بنيناه من الشكليات الفقهية

والاصلاحية النظرية ، واعتقدنا أن العالم مصور على شكلها وأن مجتمعاتنا سعيدة بين جدرانها ، واننا بعد ذلك نستطيع أن نتلمس لأنفسنا المعاذير لكل ما يصادفنا من الصعوبات التي تعوقنا عن النجاح العملي ، ولم نتفطن أبداً لكون العالم من حولنا لم يعد يتكون من هذه الأشياء التي نحن بها مفتونون والتي لا حديث لنا إلا عليها .

وكما أن المسلمين بقوا جامدين في تأملهم لمجتمع كان وضعه حقيقياً منذ سبعة قرون ولا يفكرون في حلول لمشاكلهم الحضارية في الوقت الحاضر إلا على الطريقة التي حلوا بها مشاكلهم في ذلك العصر والتي كانت إذ ذاك طريقة فعالة ناجحة ، فكذلك الأمر بالنسبة إلينا تماماً : اننا عاجزون اليوم عن التفكير في حل مشاكلنا خارج النطاق الذي سوينا به هذه المشاكل منذ قرن ونصف عندما كنا نعرف كيف نستجيب لمقتضيات التاريخ (ولو في عهد قصير) : وأقصد به عهد « نابليون » الذي كان أشبه بمحمد آخر وجد في أوربا مع فارق كبير وهو أن محمد الشرق قد نجح حيث فشل محمدنا نحن لأن فرنسا بعد أن قامت بثورة على الطريقة الاسلامية كانت تستطيع أن تنقلها لأوربا بأكملها كما فعل محمد في العالم الاسلامي ـ عادت تتشبث بروح المحافظة على عهد كانت فيه تتمشى في اتجاه التيار التاريخي وتريد أن تجمده في لحظة ذلك العهد ، والتاريخ لا يقف ، انه حركة دائمة إلى الأمام » .

ـ انني لا أدري إذا كنت تريد بحديث « شتراوس » أن تمدحنا أو تذمنا ؟

ـ لا ذم ولا مدح ، لأن المدح وليد الحب ، والذم وليد الكره ، ولسنا هنا في مقام المدح أو الذم كما قال ذلك الاعرابي لعمر : ان هذه أمور تهم النساء ، والرجل هنا يحلل أوضاعاً قد يخطئ فيها أو يصيب ، ولكن الذي يعنيني شخصياً ليس هذا أيضاً : لا الخطأ والصواب ، يهمني أن أعرف ما سميته بنهم المعرفة عند القوم : كلما ازدادوا توغلاً في التقدم أحسوا بأنهم ما زالوا في تأخر مؤسف ،

تماماً كما قالها فيلسوف أثينا : كلما تقدمت في المعرفة أدركت أنني لا أعرف شيئاً ، أو كما قالها الحديث المأثور : اثنان لا يشبعان طالب علم وطالب مال .

ـ أما أنا فانني أرى الرجل هنا لم يقم أي وزن لمجهودات أجداده وأسلاف البشرية كلها وفي ذلك قفز لا يأمن صاحبه العثار ، صحيح أن التاريخ لا ينتظر أحداً ، هو قطار لا يلحقه المتخلف بدقيقة واحدة عن الموعد ولكن ألا تظن هذا القطار الذي تسيره اليوم يد أوربا يسرع أكثر مما ينبغي ، قال مفكر جزائري : « إن المشعل الذي كان ينبغي أن تضيء به أوربا طريق الانسانية قد استعملته فتيلة للحرائق » .

ـ أنت حر في رأيك ، ولست وحدك في هذا الرأي . ولكني ألفت انتباهك من جديد إلى أن ما يهمني في حديث اليوم هو أن الأوربيين يشعرون بأنهم ما زالوا في أول الطريق ، بينما نحن نعتقد ـ مخلصين وهذا هو الخطر ـ أنه يكفي أن نعود إلى الماضي لكي نجد حلولاً لكل مشاكلنا ، وإذا كان هناك ما نؤاخذهم عليه فهو أنهم حملونا نحن مسؤولية ما يزعمونه من تأخر ، فهم يذهبون إلى الزعم بأن « الاسلام قد أسلمهم » لا من الناحية الدينية بل من ناحية أسلوب وطريقة الحياة . وأن الغرب قد ترك نفسه ينجر وراء الشرق ويتشبه به عندما اصطدم به في الحروب الصليبية . ويزعمون بعد كل ذلك أن الاسلام هو المسؤول عن تأخرهم بوجود تناقضات عميقة يقوم عليها ، وهي أنه يمثل أرقى ما وصل إليه التفكير الديني في حين أنه ليس هو أحسن الأديان ،وأنه أصبح بسبب ذلك هو أخطر الأديان الثلاثة الكبرى في العالم : وهي البوذية والمسيحية والاسلام ويعتقدون أخيراً أن هذه الأديان الثلاثة التي جاءت في ظروف متباعدة من التاريخ قد كان كل واحد منها أكثر تأخراً من الذي سبقه ويرون أن هذا هو الأمر العجب في تاريخ الانسانية .

ـ أما أنا فأرى أن العجب في عجبهم ، والتناقض ظاهر في أقوالهم ، فاذا كانوا يؤمنون بأن التاريخ تقدم ، فكيف يرون بأن كل مرحلة فيه متأخرة عن التي سبقتها ؟

ـ في هذه أنت على صواب ، ولكن دعنا الآن من الحديث عن الاسلام

والأديان . اننا بوصفنا مسلمين لا نضع الاسلام إلا في موضع الكمال مهما كانت فكرة غيرنا فيه ، ان ما يهمنا هو أمر المسلمين ووضعهم اليوم وكيف ينظرون إلى هذا الوضع : هل هو تأخر أم توقف فقط ؟ وما هو رأيهم في انطلاقتهم وكيف تكون ؟ هل تكون بالرغم منهم ؟ أم لهم من الشجاعة ما يجعلهم يقومون بها وهم واعون ، يسيرون عن اختيار وحرية ، ولا يدفعهم التيار دفعاً وأنظارهم ملتفتة إلى وراء ؟

هذا هو السؤال !

وقد تقول ما الفائدة من هذا السؤال ؟ اننا سائرون وكفى . « وطريق العربي بين عينيه » كما يقول المثل الشعبي ، وهذا هو الخطر بعينه : اننا سائرون ولكننا لا ندري إلى أين ، اننا سائرون وراضون بهذا السير ، لأن السير لا نبذل فيه جهداً : هناك من يدفعنا . أما التفكير فلا بد أن ينبع من أنفسنا . وهذا هو المتعب ، وهذا ما يخيفنا ، إن تيار الحياة العصرية يدفعنا إلى الانفصال – كل يوم أكثر – عن قاعدتنا الشعبية ، ونحن نقبل ذلك ونراه طبيعياً ، ولكننا نأبى أن نفكر في هذا الدفع ونبحث عما يمكننا من حمل شعبنا معنا فيه ، ان الاشتراكية في الميدان الاقتصادي تستطيع أن تحد من الفروق بين طبقاتنا الاجتماعية ، ولكن ما يبقى علينا نحن أن نفعله هو أن نحد من الفوارق التي تتسع كل يوم أكثر بين طبقاتنا المثقفة والطبقات الشعبية المهملة ، ولكي نتمكن من ذلك ينبغي أن نعيد النظر في كل حياتنا وتراثنا وماضينا وكل الأعباء التي تثقل كاهل شعبنا وتعوقه عن السير مع التيار .

في الغرفة العالمية

ـ حدثني عن رأي أحد المفكرين الجزائريين في أوروبا وكيف أنها صيرت من المشعل الذي في يدها وسيلة للحرائق لا للاضاءة ـ فهل هذا هو كل عيب أوروبا بالنسبة إلينا ؟

ـ كلا . ان هناك عيباً آخر « كانت » تعانيه . وأقول كانت . لأنها تخلصت منه الآن . وهي أنها فهمت من المبادئ المسيحية بأنها تنهى عن الفحشاء أكثر مما تأمر بالخير . وتبغض الظلم أكثر مما تحب العدل . وترهب النار أكثر مما ترغب في الجنة . وتحرم الشر أكثر مما تأمر بالخير .

ـ لم أفهم الفرق بين هذه وتلك . أليس المنع من الفحشاء هو الأمر بالخير ، وعدم الظلم هو العدل ؟

ـ لا . ليسا شيئاً واحداً . بل الفرق بينهما بعيد جداً ، كالفرق بين السلب والإيجاب ، وبين الذكر والأنثى . فعدم الظلمة ليس هو النور . وعدم سرقة الناس شيء والاحسان إليهم شيء آخر . لقد فهمت أوروبا المبادئ المسيحية فهماً سلبياً . فهمتها أنها موانع فقط من المحرمات . وليست أوامر بالواجبات ، الفرق كبير

بين أن لا تخون الوطن وبين أن تضحي من أجله . و ...

ـ شكراً . لا فائدة من زيادة الشرح . لقد فهمت الفرق بينهما . أعني ما تسميه بين السلب والإيجاب . إذن فنحن الذين ما نزال نعاني من هذه السلبية ؟

ـ نعم نحن الذين ما نزال نعاني من هذه السلبية . إذ نحن أيضاً ـ في عصور انحطاطنا وتجمدنا ملنا إلى فهم ديننا هذا النوع من الفهم السلبي . وعصور الانحطاط ما تزال مستمرة عندنا . أعني فينا : في سلوكنا ومفاهيمنا للحياة : لا تسرق ، لا تزن ، لا تظلم . لا تكذب ، لا تتعد على الحرمات . هذه « الموانع » ما تزال في أذهاننا تقوم مقام : حارب السارق . قاوم الظلم . رد على الكاذب والجمه . حافظ على حرمات من رأيت حرماته في خطر . ونحن لن ننتقل من عصر الانحطاط إلى عصر النهضة الحقيقية حتى تتغير « صيغة » المفاهيم في أذهاننا . أي تنتقل من صيغة السلب إلى صيغة الإيجاب . تنتقل من ترك أنفسنا نموت جوعاً وصبراً على الفقر وجدب الأرض إلى صيغة الهجوم على الطبيعة حتى نخرج منها حباً ونباتاً . والهجوم اليوم على الطبيعة معروف . انه يبدأ بمعرفة قوانينها وتقليد تلك القوانين . أي معرفة السلاح واستعماله . بعبارة أخرى : بدلاً من أن أنتظر المطر ينزل من السماء لا أدري متى . يجب أن أبحث عنه في أعماق الأرض بيدي . أي أنتقل من « الانتظار السلبي » إلى « التعب الإيجابي » .

ـ ولكني كنت أظن أننا انتقلنا بعد من هذه المرحلة إلى تلك . أليس هذا رأيك ؟

ـ كلا . لم ننتقل بعد . ولكننا اليوم في مرحلة ارهاص لها فقط : في مرحلة الحيرة والانتباه إلى حالتنا . في مرحلة تمزق نفسي نعانيه : تمزق بين التفاتنا إلى الماضي وتوجهنا إلى المستقبل . مرحلة معاناة العقد والانتفاضات العاطفية . وكلها علائم يقظة . وأسمح لنفسي أن أزعم لك أن كل ما تراه في أنحاء العالم العربي من علائم النهضة هي في الواقع علامة على شيء واحد وهو أن جسمنا حي . أما فكرنا فما يزال في غيبوبته .

ـ حتى ثورتنا هذه التي نعيش ذكراها هذه الأيام ؟

ـ نعم حتى ثورتنا . هي دليل على أن جسمنا حي لم يمت . انها انتفاضة فقط . انتفاضة عاطفية رائعة . وبقي عليها الآن أن تصبح يقظة فكرية منظمة حتى نستطيع ـ بدون تجاوز ـ أن نسميها ثورة .

ـ انني مندهش حقاً مما تقول . ولولا معرفتي بك معرفة سنين لشككت في عواطفك الوطنية .

ـ نعم . كما شككت في عواطفي الدينية . ولكن هذا لا يهم . أعني رأيك في أو رأيي فيك . ان المسألة تتعدى شخصي وشخصك . المسألة تهم عالماً أصبحنا نعيش « فيه » لا بالقرب منه . أصبحنا لا نستطيع أن نمنع جارنا القوي من أن يأكلنا إذا لم يكن لنا سلاح قوي ندافع به عن أنفسنا ، والأبواب أصبحت لا وجود لها بيننا . كل أحد يستطيع أن يلج غرفتك إذا كنت نائماً . لا بل ان العالم أصبح غرفة واحدة .

ـ انك اليوم مندفع جداً ويبدو لي أن كثرة التدخين قد أثارت أعصابك بدلاً من أن تهدئها . كيف أصبحنا في خطر ونحن لم يمض علينا بضع سنوات منذ أن طردنا العدو من أرضنا ؟

ـ اننا لا نتكلم على موجة واحدة . ان خطر الاحتلال العسكري قد انتهى . ولكن ليس معنى ذلك أن كل خطر قد انتهى . ان أساليب الحياة في الكفاح لا تنتهي ولا تقف . كل أمة سبقتك اليوم في ميدان ما هي خطر عليك في ذلك الميدان . فلاح القموح في كندا أصبح خطراً على فلاحك في سطيف . ومزارع الخضر في فرنسا أصبح خطراً على مزارع متيجة . ومنتج الألبان في هولاندة أصبح خطراً على الراعي عندنا في الصحراء . كل هؤلاء عندنا مهددون بالبطالة من جراء نشاط أولئك وعلمهم وتقدمهم . فهل فهمت ما أقول ؟

ـ نعم . فهمت حتى ما تريد أن تقول . ولكن ..

ـ نعم . ولكن ، دائماً فيها ولكن ..

ـ أقصد أن المشكلة إذن مشكلة تعليم وكفى .

ـ هي إن شئت مشكلة تعليم . ولكنها ليست تعليماً وكفى . انها مسألة وقت أيضاً . ومشكلة مفاهيم على وجه أخص .

ـ نعم مسألة وقت : يجب أن ننتظر حتى يشمل التعليم بلادنا وينهض بها من أقصاها إلى أقصاها . وليس لنا مفر من هذا الانتظار .

ـ هنا نفترق . أنا لا أستطيع أن أسمع كلمة الانتظار . انها تأكلني أكلاً .

إن التعليم نفسه يمكن أن يستغرق سنوات قليلة ويمكن أن يمتد إلى الأبد . يمكن أن ننفقه في تعلم ما يصلح لليوم وللغد . كما يمكن أن ننفقه في تعلم تاريخ الأمجاد والبطولات مثلاً . انك لا تنسى أبداً ـ كما حدثتني بنفسك يوماً ـ انك قضيت سبع سنوات في دراسة نواقض الوضوء والفرق بين الماء الذي يصلح للوضوء والذي لا يصلح . وهذا أيضاً تعليم .

ـ كلا . لا تستشهد بذلك . فانه عهد انقضى .

ـ انقضى عهد ذلك التعليم نفسه . أما نوعه فما يزال . ألا تعرف أن طلابنا في الثانويات يقضون الساعات الطويلة في شرح مفردات الشعر الجاهلي لأشياء لا توجد حتى في محيطهم ؟ وأن السبب في ذلك يا صاحبي هو تعلقنا برواسب الثقافة النظرية وعدم تفطننا بعد إلى مفهوم التعليم الصحيح الذي تقوم عليه النهضة الحقيقية . وان المسألة إذن ليست مسألة تعليم وكفى . أي إيجاد المدارس والمعلمين . بل هي قبل كل شيء في إيجاد عقلية تفرق بين هذا التعليم وذاك ، وتميز بين هذا المفهوم في الحياة وذاك . هذا المثال البسيط يبين لك اننا لم نبدأ نهضتنا بعد ، لأن مفهومنا للنهضة نفسه وللشروط التي تقوم عليها ما يزال مفهوماً سلبياً . الذين يسكنون

معنا في الغرفة العالمية يرون كل ذلك فينا فيشعرون بالطمأنينة : الطمأنينة على حضارتهم بأنه ما يزال أمامها وقت طويل تستطيع فيه أن تستغلنا .

هل هي مسألة عقد

ـ والآن أرجو أن تسمح لي بأن ألاحظ لك أنك تمثل هنا مشاعر الرجل الذي يعاني عقداً حقيقية .

ـ أنا لم أنكر أبداً انني أعاني عقداً حقيقية . بل اني أتألم منها إذا سمحت أنت لي بهذه الصراحة . وأزيد على ذلك أنه لا يوجد فينا من لا يعاني هذه العقد . سواء شعر بذلك أم لم يشعر . والذي أعتقده أن الذي يعاني العقد أكثر من غيره هو ذلك الذي لا يشعر بها ، أو يحاول أن يخفيها أو يتجاوزها أو يترفع عنها . انه قد ينجح في ذلك بعض الأحيان ولكنه يخفق في أكثر الأحيان . أود أن أسألك : من هو الرجل الواعي الذي لا يشعر بهذه العقد ـ عقد النقص ـ عندما يرى الأوروبيين كيف يعيشون في حياتهم السياسية والاجتماعية والفكرية وفي نهضتهم الاقتصادية ورقيهم الثقافي والفني ويلتفت إلى كل ذلك عندنا ؟

بماذا يشعر إذا لم يشعر بالحسد والألم والغيض ؟

ـ أنا أجيبك بحادثة واحدة على هذا السؤال كمثال : كنت أيام الثورة أتردد أحياناً على باريس . وأتحدث إلى شبابها المثقف . فيسألونني عن سير الثورة

وعن معنويات الشعب وكانت لي فيهم بعض الثقة فلا اخفي عليهم إلا ما يجب اخفاؤه ، وأحدثهم عن معنويات الشعب المرتفعة واندفاع الشباب للتضحية ولكني ألح على المتاعب المادية والخسائر البشرية ، والاضطهاد المسلط على الناس ، بدون تمييز أو استثناء . وكانت مخيلتهم الحارة تكمل لهم تصور ما عجزت أنا عن تصويره من كل ذلك . فتبدو على وجوههم آثار الانفعال المختلفة : من أسف وألم وغضب وتأثر . ولكن أدهشني أحدهم يوماً بأن لم يتمالك عن ابداء سروره بما أحدثهم به . ثم نطق بها فقال : آه ما أسعدكم هناك . قلت : عجباً . أترى ما نحن فيه سعادة ؟ قال : نعم . اسمح لي أن أقول ذلك ، انكم في سعادة لن تشعروا بأنها سعادة إلا بعد وقت طويل . وطبيعي جداً أن لا تشعروا بها الآن . سعادتكم اليوم هي انكم تعيشون بمثل . لا بل انكم تعيشونها ولا تعيشون بها فقط . تتألمون من أجل الحرية والأجيال القادمة والديموقراطية وأحلام المستقبل . أما نحن هنا فاننا نعيش بدون مثل . نعرف أن غدنا سيكون مثل يومنا . ويومنا نحن ضائقون منه متبرمون به . لأنه تافه فقير لا أحلام فيه ولا آمال . نعيش من أجل النجاح في الامتحانات في الجامعة والذهاب إلى المرقص ليلة الأحد والكفاح بعد ذلك من أجل قطعة « البيفتاك » . انا نود من أعماق نفوسنا أن لو كانت لنا قضية عادلة تثير حماسنا ، ونضحي في سبيلها ونتألم من أجلها ولا يقتلنا هذا الملل « والروتين » والسأم وانسداد الأفق والشبع البليد و .. فقاطعته وقلت : يا صاحبي انك اسمعتني قصيدة شعرية رائعة ، ولكننا نحن لسنـــا مستعدين اليوم لسماع الشعر ، فقال : اني أعذركم . ولكن أجيالكم القادمة ستحسدكم كما نحسد نحن اليوم شباب الثورة الفرنسية وأبطـال « الباستيل » وأحلام جان جاك روسو وكفاح « روبيس بيار ».اننا اليوم سعداء ولكننا تافهون أما أنتم فانكم تتألمون فقط ولكنكم لستم أشقياء .

ولم أجد شيئاً أضيفه للشاب الفرنسي فقد كان حماسه أكثر من أن يقبل الزحزحة .

ـ وعلى أي شيء تريد أن تستدل بهذه القصة ؟

ـ أريد أن أستدل بها على أن مسألة العقد هذه ليست من نصيبنا وحدنا . ان هناك من يحسدنا حتى على فقرنا وتأخرنا من تلك الأمم المتقدمة . أذكر أن فتاة سويدية قالت لي يوماً في باريس أيضاً وكان ذلك قبل الثورة : كم أود أن أرى بلادكم وأستمتع بشمسها المحرقة التي تلد الذباب حتى في الشتاء . ثم قالت لي جادة : ألا تعرف أن الذباب لا يسكن إلا مناطق الحضارات الحقيقية ؟ والحق أنني لم أدرك ما إذا كانت الفتاة حالمة إلى هذا الحد أم انها شاذة في نظرتها إلى الحياة . ولكن المؤكد عندي انها كانت مخلصة فيما تقول ، وانها هي أيضاً كانت تعاني من العقد

ـ طيب دعنا الآن من مسألة العقد هذه انها مسألة جانبية .

ولنعد إلى الموضوع اللهم إلا إذا كنت أنت أيضاً شاذاً مثل الفتاة السويدية أو الشاب الفرنسي .

ـ كلا ! لا أذهب مع هذا الطراز من التفكير لأنه ليس لنا حق في هذا اللون من « الترف » الفكري ، ولكني أريد أن أقول أن مأساتنا النفسية ليست قاحلة عاقراً . بل هي خصبة منتجه . اننا جميعاً نشعر اليوم بأننا نواجه تحدياً خطيراً من الأمم الراقية : فاما أن نلحقهم أو ندفن تحت الغبار الذي تثيره أقدامهم الراكضة دائماً إلى الأمام .

ـ الحمد لله ! لقد بدأنا نتقارب ونتحدث بلغة واحدة ، أعني بأفكار متشابهة .

ـ أفكارنا لم تختلف منذ البداية إلا في الظاهر . ولأنك تستعجل الأمور أكثر مما يجب وتشعر بانك وحدك . ناسياً اننا نحمل أثقالاً لا نستطيع أن نتسرع بها أو نسرع على الأقل كما تتمنى .

ـ نعم . أعرف هذه الأثقال وان كنت لا أشعر بها كثيراً . لأنني أعتقد اننا نستطيع أن نستغني عنها .

ـ ها نحن عدنا إلى الاختلاف من جديد . ولكنه أيضاً اختلاف في الظاهر

فقط . أنت تفهم من الأحمال التي تثقلنا هي هذه المعتقدات والعوائد والرواسب الفكرية وتحكم الأموات فينا ـ كما سميت ذلك . وتنسى ـ يا صاحبي في غمرة استعجالك ـ ان كل ذلك ليس أموراً معنوية عائمــة في الفضاء . انها متمثلة في الشعب . انها هي الشعب الذي ترى أن نهضتنا يجب أن تكون له وبه . والشعب لا يستطيع أن يتخلص من هذه الرواسب والمعتقدات والعادات بالسهولة التي تخلصت بها أنت منها . انه لا بد لك أن تجاريه في شيء وتقاوم فيه أشياء حتى يذهب معك إلى حيث تريد . هل نسيت مثلاً : اننا في أيام الثورة لم نكن نخاطبه باسم الوطنية والاستعمار إلا قليلاً . وكنا ندعوه إلى المقاومة باسم الجهاد في أكثر الأحيان ؟ على ماذا يدل هذا ؟ وإلى اليوم ما نزال نقول قدماء المجاهدين . وإذا أمعنت النظر في الموضوع بدت لك ظاهرة هامة : وهي أن كلمة المجاهدين في الغالب تطلق على المناضلين في البادية والأرياف . وكلمة « المناضلين » تطلق في الغالب على المناضلين في المدن . وأنت تدرك ما في كلمة « مجاهد » من معنى ديني وما في كلمة « مناضل » من معنى سياسي . وأغلبية الشعب عندنا من الأرياف وأقليته من المدن . أعني أن المحرك الذي ما يزال يدفع شعبنا هو المحرك الروحي ـ أو إن شئت الديني ـ أكثر من المحرك السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي . هذا هو الشعب كما هو . وكما يجب أن تأخذه معك أو تتركه وتذهب في القطار الأوربي وحدك . وعندئذ لا يكون لسفرك أي معنى .

ـ وإذن ما هو الحل الإيجابي في نظرك ؟ هل نترك الشعب يقودنا بدلاً من أن نقوده لأنه هو الحمل الذي يثقلنا ؟

ـ لا . ليس هذا هو الحل . الحل هو أن لنا قيماً لها قيمتها الحقيقية حتى في نظر الأمم التي تشعر أنت نحوها بعقدة النقص . وهذه القيم ما تزال من ناحية تصلح أن تكون محركاً للشعب يمكننا من السير إلى الأمام بسرعة أكثر من التي نسير بها لو طلبنا منه أن يلقي عن كاهله الأثقال والأحمال . وهذه القيم من ناحية أخرى إذا عدلت وأدخلت عليها الحياة وزالت عنها علائق اليبوسة وبعثت فيها حيوية

الشباب والفطرة السليمة والتنظيم . تستطيع أن تكون معدلاً حتى للحضارة العصرية التي فقدت هذا العنصر ـ عنصر القيم الأخلاقية والروحية . والذي لا تستطيع البشرية أن تستغني عنه وتسعد وأعتقد أن ذلك سيكون في النهاية في صالح الانسانية واغناء ثروتها الحضارية وتنويع جوانب حياتها أكثر مما نفعل لو قلد كل صغير منا الكبير وكل مغلوب الغالب وكل فقير الغني وكل متأخر المتقدم تقليداً سلبيا لا يضيف إليه شيئاً إيجابيــا من عنــده وأذكر أنني قــرأت يومــا لأستاذ جامعي في باريس هذه الفكرة : « إن حالة الاضطراب النفسي الذي يعانيه المسلمون اليوم له دلالة عميقة : انه يدل على أنهم يجتازون مرحلة وعي حقيقي . وعلى أنهم يشعرون في أعماق نفوسهم بضرورة الرد على هذا التحدي الذي يواجههم به العالم الحديث . وذلك لا بواسطة حلول مزيفة تسمح لهم بالالتجاء إلى التقاليد القديمة والتمسك بالماضي تمسكاً عقيماً . ولكن بأن « يخلقوا » هم أيضاً على طريقتهم انسجاماً مع الحضارة المادية التي كشف لهم الغرب عن أسرارها . إن المسلمين يحاولون ـ بشكل واع متثبت ـ أن يوجهوا هذه القوة المادية الهائلة التي خلقتها أوربا في طريق أخلاقي ينقص أوربا اليوم » .

بين الجنون والواقعية

إذن فالنتيجة هي أننا عندما نحافظ على قيمنا الحضارية في نهضتنا انما نعمل على انماء الثروة الانسانية ؟

ـ نعم هكذا يبدو لي . وأعتقد أيضاً أنني لست وحيداً في هذا التفكير .

ـ ولكني ـ الآن ـ لا تهمني الانسانية . بل يهمني مصيرنا نحن . وما هي أقرب الطرق التي توصلنا إلى الخروج في أقرب وقت من هذا الوضع الذي نعيش فيه . والذي أخشاه هو أن يكون الذين لا تهمهم السرعة في هذا الموضوع ـ هم في الواقع ـ ودون أن يشعروا بذلك ـ لا يدركون درجة التقهقر الذي نحن فية . ويحسبون أن العالم سينتظرهم إلى أن يلحقوا الركب ثم يستأنفون السير معاً في قافلة انسانية (بالمعنى العاطفي) تهزج بالأناشيد وتتعانق في جوها الأفراح ، بعبارة أخرى أخشى أن تكونوا تتصورون الحياة تصوراً خيالياً : تتصورونها حلماً تعطره أجنحة الملائكة بروائح خضراء ـ كما يقول الصوفية ـ وليست حرباً يعلوها الغبار وتتصاعد في أرضها رائحة الموتى وأنين المعذبين وصراخ الذين داستهم النعال ولم يشعر بهم أحد .

ـ الله ! الله ! ما هذه الصور الشعرية المفزعة يا أخي ؟

نعم . إن الحياة كفاح ـ كفاح بين القوي والضعيف . والكبير والصغير . ولست أريد أن أذكرك بأنني أعرف نظرية داروين وهوبز ونيتشه واضرابهم . ولكن الكفاح نفسه يتلون ويتشكل ويأخذ عدة طعوم . وأي طعم للحياة بدون هذا الكفاح إلا أن تصبح ملهى للصبيان . وأعتقد أن كفاحنا نحن (المتأخرين) لا يخلو من جمال ولذة وجاذبية وغنى نفسي رائع . لأن المعركة التي نخوضها نفسها تفتح لنا آفاقاً شعرية تبعد بالحياة كل البعد عن الصورة المرعبة التي تتصورها أنت في ذهنك .

ـ طيب . دعنا من هذا الاستطراد . انه يغلب عليه الطابع النظري ونحن نحاول أن نكون عمليين في مناقشاتنا ـ قلت لك إن مسألة الإنسانية لا تهمني . بل يهمني فقط مصير شعب . انني أود أن لو رزقت قدرة على تزويده بأجنحة يطير بها حتى يلتحق بمقدمة القافلة .

ـ هذا هو صميم الموضوع : مسألة الشعب . فأنا عندما أدعوك إلى الترفق في السرعة فليس ذلك لأني أريد أن أحافظ على أوضاع معنوية لي في نفسي شهوة لها . بل لأني أعتقد أن الشعب هو الذي ما يزال مثقلاً بهذه « الثروة » من الاعتبارات المعنوية . ولكننا عندما نقرأ حساباً لهذه الاعتبارات في بحثنا نرمي عصفورين بحجر واحد من ناحية نحافظ على الصالح من ثروتنا الحضارية التي نغني بها ثروة الإنسانية عموماً بالتنوع واختلاف الألوان . ومن ناحية أخرى نستعمل محركاً أقوى لدفع شعبنا . عندما يكون هذا المحرك من الداخل : من الأرض التي عاش عليها الشعب وفيها غرست جذوره . فذلك ادعى لاثارة حماسة من أن « تستورد » له محركاً خارجياً قد يكون أقوى « قوة » في ذاته ولكنه أقل « قدرة » على تسيير شعب لا يعرف استعماله .

ـ (سكوت)

ـ ايه ! مالك ساكتاً . هل يبدو لك هذا أيضاً خيال ؟

ـ لا . ليس في هذا التفكير أي خيال . وهذا هو عيبه الوحيد . انه واقعي أكثر من اللزوم . واقعي إلى درجة الجمود . إلى درجة انه يصلح ذريعة لكل محافظ وكل رجعي . تحت ستاره يستطيع كل متكاسل خامل أن يشدنا إلى الأرض ولا يترك لنا مجالاً للتحرك . كلما رأى واحداً يثور أو يخرج على المألوف تنطلق حنجرته صياحاً بالويل والثبور وعظائم الأمور . ونحن اليوم نعيش في عالم يمشي بسرعة . سرعة مذهلة . لا يترك لنا الوقت حتى للتفكير والتأمل . إن العالم أصبح مجنوناً . فاما أن نعيش « معه » في جنون أو نعيش « تحته » في تعقل ! والتفكير الثوري لا بد له من خيال . خيال جامح شرود . و « طرف طموح » كما يسميه أبو العتاهية . وأعتقد أن كل ما نحن فيه من تأخر سببه أن تاريخنا مليء بهؤلاء العقلاء الحكماء الواقعيين أمثالك . وخال كل الخلو من الثوريين الخياليين المجانين . كان لنا « مجنون » واحد في نظر « العقلاء » في عصره هو محمد عليه السلام . قفز بأمتنا من عالم إلى آخر ومن فصل من فصول التاريخ إلى فصل جديد .. ولكن « العقلاء الواقعيين » من وجوه القوم آنذاك كانوا يعتبرونه مجنوناً وساحراً وطموحاً وخطراً . ومن بعده هو لم تنبت أرضنا حتى نصف مجنون . وان عرفت أحياناً أذكياء نادرين مثل المتنبي وابن رشد وابن خلدون . ولكنهم جاءوا في وقت كان فيه تخدير العقلاء من طرف أمثال الغزالي وابن عرفة قد فشا في الرؤوس وأنام الأعصاب وهي ما تزال .. ولست أنت يا صاحبي إلا تلميذاً صغيراً لهؤلاء العقلاء : تفزعكم الفكرة الثورية وتقشعر جلودكم من القفزة في الهواء . لأنكم تعودتم الصعود المتئد على الدرج إلى الصومعة وجهلتم القفز في الصواريخ لا يربطكم فيها بالأرض درج ولا يشدكم مع السماء منها حبل . وثق انه لا مفر لكم من أحد أمرين : اما الجنون والثورية والقفز في المجهول . أو الكسح والعرج في الرمال العراء . وان التاريخ لن يرحمكم اليوم كما لم يرحم « عقلاء » الأمس . ان خطركم هو انكم تعملون لأجيالكم : لهذا الشعب الذي يعيش اليوم معكم في بيوتكم وشوارعكم ومداشركم الجرداء حتى من الشجر . ولا تفكرون في شعب الغد . شعب الأجيال القادمة وكيف ينبغي أن نهيئ له عدة القفز والسلاح

الذي يتصارع به مع المجانين الخطرين الذين يملؤون العالم . لقد خدعكم ما يقوله عنكم المستشرقون من « حكمة الشرق » وانكم مدرسة للصبر والاناة . يا لها من سخرية ! مدرسة للصبر ! على ماذا ؟ على الخمول والهزال والجهالة والموت والجوع والاضطهاد والقهر والأساطير والبركات وكل ما يتبع ذلك من خلق فاسد متعفن لا يقوله « لكم » المستشرقون ولكنهم يقولونه « عنكم » : اكتساب الرزق بالحيلة ـ لا بالجهد ، واستعمال الذكاء في الخديعة والدسيسة لا في افتكاك أسرار الحياة وفك ألغازها . انهم يعنون « بمدرسة الصبر » مدرسة الكسل : الكسل بكل أنواعه الجسدي والعقلي والاستسلام لأية قوة غامضة ، وانتظار الرحمة من المجهول . من الأموات ، من بركة القبور والمستنقعات العفنة . اني أكرر لك بأنكم لا تدركون حقيقة حالنا ومبلغ ما تدعو إليه من الرثاء . حتى انني أحياناً أحسدكم على هذا الموت الذي لا يؤلمكم منه جرح جسد ولا جرح كرامة ! ولكنكم مع ذلك تعتقدون اننا ما زلنا في الطليعة واننا نستطيع أن نفكر في الانسانية المعذبة في نيويورك وموسكو وباريس وبيرن !

الانفصال عن الشعب

- انك تذكرني هنا بتحليل « جاك بيرك » الذي يقول فيه عنا ما معناه : ان تفكير المسلمين في العصر الحاضر قد طلق الحياة التي يعيشونها . لأن ضميرهم الذي يزدادعذاباً كل يوم أكثر أصبح يتطلب أيضاً أشياء جديدة كل يوم أكثر تسمى الوعي أو الشعور . ومعنى هذا عند المفكر الفرنسي أن حركة الانطلاق قد بدأت سيرها وأن هذه الحركة لا بد لها من أن تكونخلاقة وأن تأتي بشيء جديد للحضارة . أماخصوماتنا التي تقوم بيني وبينك اليوم والتي قامت بين غيرنا قبل اليوم وستظل تقوم في المستقبل فاننا على ما يبدو لي سنجتازها يوما من الأيام وتصبح في حكم الذكريات أو التسجيلات الناطقة عن حركة صامتة تدفعها طبيعة الأشياء نفسها الى الأمام . لأنه مهما اختلفت سبل الأفراد أو الجماعات عندنا وعند غيرنا من الشعوب المتخلفة فان مصبها واحد في النهاية . ولعله لاضير علينا من أن نفترق في الطريق ما دامت كل الطرق ستؤدي الى هدف واحد . وأعتقد أن من طبيعة الأشياء نفسها أن يأخذ كل منا سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي ـ طريق نموه الخاص حتى يصير الى الرجولة الكاملة اذ ليس من الطبيعي أن نكبر كلنا ـ على اختلاف أعمارنا ومستوياتنا في التقدم واختلاف استعداداتنا البيولوجية وعوامل

وراثتنا ومحيطاتنا المختلفة ـ أن نكبر مع كل ذلك على ايقاع رقاص ساعة واحدة .

– اذا فهمتك جيداً فاننا نستطيع اذن أن نترك الأمور الى ماتسميه « طبيعة الأشياء » فانها وحدها ستتكفل بدفعنا الى الأمام وسنصل لا محالة « في يوم من الأيام » إلى مستوى الرجولة . وأن من الفضلات الزائدة أن نحاول نحن التحكم في هذا الدفع أو توجيهه الوجهة التي تتدخل فيها ارادتنا . الأفضل عندك أن تنبت هكذا : على « البعلي » ـ حسب التعبير الشعبي الذكي . لا نحرث الأرض ولا نتعب أنفسنا في حفر الآبار وشق السواقي وتزويد التربة بما تستحق من السماد والأدوية ومواد التسخين حتى تتغلب على الجليد والدود والاهمال . ان الطبيعة وحدها ستتولى كل ذلك.بل لا يبعد اذا ناقشتك طويلاً أن تزعم لي بأن الطبيعة تتقن هذا العمل أحسن منا . ولذلك تأتي ثمار « البعلي » ألذ مذاقاً وأطيب نكهة من الثمرة « المدللة » التي أحطناها من قبل نشأتها بكل عوامل النمو بسرعة وكثرة .

ومع هذا تزعم لي بان تفكيرنا متقارب منذ البداية وأنه لا تفصل بيننا الا الاندفاعات العاطفية عندي والتثبت الرصين عندك ! كلا يا صاحبي !

ان ما يفصل بيننا شيء مهول : شيء لا يتعلق بدقة الحساسية أو رصانة التفكير . ان ما يفصل بيني وبينك هو طبيعة التفكير نفسها ونظرة كل منا الى الحياة والى الماضي والى المستقبل والى الحاضر أيضاً ..

أنت تجرؤ على النظر الى مشكلة تخلفنا بأنها مسألة شعب مثقل بالعوائد والتقاليد لا نستطيع أن ندفعه أو نقوده بسرعة بسبب الأثقال التي يحملها في نفسه وفي فكره ومشاعره وأحاسيسه . وأننا ـ نحن أبناءه المثقفين ـ ينبغي أن نتمهل في سيرنا التطوري حتى لا تنقطع بيننا وبين شعبنا الأسباب وحتى نتمكن من السير معه . أو نمكنه من السير معنا حسب بطئه هو لا حسب سرعتنا نحن التي تخشاها .

– نعم . هكذا أرى . وأي غرابة تراها أنت في ذلك . وأي جرأة ترميني بها في هذا الصدد ؟

ـ الغرابة هو أن ترى تناقضاً بين تقدم الأفراد وتطورهم وانطلاقهم . وبين تخلف جماعات الشعب وبطئهم وتثاقل خطواتهم . والعلاج عندك للمشكلة ليس هو أن نبحث عن طريقة لجعل الشعب يسرع الخطى . وإنما هو أن نبحث كيف نعطل ـ نحن الأفراد المتطوريين ـ خطواتنا حتى لا تبعد الشقة كثيراً بيننا وبين الشعب . وذلك حتى نكون « شعبيين » متواضعين ينقاد لنا الشعب ويسير معنا لأننا نترفق به ـ كما سبق لك أن عبرت في حديث مضى .

والغرابة في تفكيرك هو أنه نجح نجاحاً عظيماً في دفعك إلى اختيار الحل السهل . والحل المنطقي ولكنه الحل الخطير : لا يستطيع ابنك الصغير أن يجري بخطواتك ؟ اذن فامش أنت حسب خطواته . هو كما ترى حل سهل ومنطقي . ولكن لا تغتر .. انه كذلك في الظاهر فقط . أما في الحقيقة وفي نظر التاريخ فانه حل عقيم . بل انه ليس بحل اطلاقاً .ولذلك قادك هذا التفكير في النهاية الى السلبية والاستسلام الى طبيعة الأشياء والاعتماد عليها في القيام مقامنا بالعمل . لعلك لا تتفطن أو لا تشعر « بديناميكية » هذا التفكير وإلى أين قادتك دون وعي منك . . وهنا الخطر ..

إن تطور الأفراد وتقدمهم لا يمكن أن يتناقض مع تخلف الجماعة . بل انه هو المحرك الوحيد الذي يملكه الشعب لكي يسير به إلى الأمام لا إلى الماضي ولا يبقى في مكانه كما هو الآن وكما كان منذ عهد يوغورطا . لأن تطور الأفراد ينعكس على الجماعات وينتقل إليهم بالعدوى وبالارشاد وبالتعليم والمحاكاة والتقليد والمناقشة واحتكاك الأفكار وتجديد العادات والتخلص من الأثقال وطرحها في الأرض بكل احتقار وبدون أسف .

ولكن كل ذلك بشرطين اثنين لا بد لأحدهما من الآخر . ولا بد منهما معاً لانتقال التقدم من الأفراد المتطورين إلى الجماعة المتخلفة .. أحد الشرطين هو أن لا ينفصل هؤلاء الأفراد المتطورون عن الجماعة المتخلفة ولا يأنفوا الاحتكاك بها في ميدان الأفكار ولو انفصلوا عنها في ميدان الحياة المادية . فكانت لهم حياة

أقل عناء ومتاعب من حياة الجماعة المتخلفة بحكم جهلها وقلة استفادتها من ثمار التطور العالمي الذي ينعم به الأفراد المتطورون بل لا بد لهم من أن يعمدوا إلى مناقشة تلك الجماعة وارشادها وخلق الظروف التي تهيئ هذه المناقشة والاحتكاك في ميدان الأفكار بصورة مستمرة لا تعرف الملل والانطفاء .

الشرط الثاني أن يتحلى هؤلاء الأفراد بشجاعة فكرية يجابهون بها مصادمة الجماهير في معتقداتها الفاسدة . وأن لا يقنعوا من ثقافتهم وتطورهم وما يملكونه في أذهانهم من أسباب المعرفة ـ أن لا يقنعوا باستعمال كل ذلك في حياتهم الخاصة وحدها خوفاً من مصادمة الجماهير أو من المتاعب التي لا بد أن تنجر لهم من هذه المصادمة . وهنا لا بد لي من أن أعود إلى الحديث من جديد عن ضرورة وجود « مجانين » ولا أقول حمقى . أعني أناساً « متصوفين » في إيمانهم بأفكارهم وبصلاحيتها لمستقبل أمتهم ولو كانت في الوقت الحاضر لا تروق للأجيال التي يعيشون معها .

إذا كان هؤلاء الأفراد المتطورون على هذا المستوى من الوعي لمسؤوليتهم الفكرية والوطنية والانسانية ـ عندئذ أسميهم بالشعبيين . أعني أننا ـ نحن الأفراد المثقفين المتطورين ـ نكون شعبيين بقدر ما تمكن الشعب من التخلق بأخلاقنا والتفكير بطريقتنا العلمية . لا « بالترفق » به بواسطة السلبية والعواطف الفاترة . اني أعرف كثيراً من الشعبيين على طريقتك يعيشون مع الشعب في بؤسه وحرمانه وجهالته وظلامه ، ولكنهم لا يفيدونه بشيء من الضوء القليل الذي في رؤوسهم لأنهم يتملقون أخطاءه البريئة ولا يريدون مصادمته في معتقداته القاتلة . وأعرف أيضاً من تبدو عليهم آثار النعمة المادية والترف الفكري ولا يخطر على بالك من مظهرهم أنهم يفكرون في الشعب . ومع ذلك فكل نشاطهم الفكري ودراساتهم وأبحاثهم ومناقشاتهم في المجالس هي عبارة عن حرب تنهك أعصابهم وتسمم وجودهم في كل مكان . ولا يتذوقون لحياتهم الهادئة طعماً ولا معنى . لأن حياة الشعب المتأخرة وعجزهم عن تغيير حالته بالسرعة التي يحلمون بها ـ كل ذلك يحول بينهم وبين التلذذ بما هم فيه من نعيم يفصلهم ظاهرياً عن حياة الشعب وفي

نظري هؤلاء هم الشعبيون . الرجل المثقف الشعبي هو الذي يسخر ثقافته في خدمة الشعب ولو صدمه . وليس هو الذي يتظاهر بالتواضع الكاذب أمام الشعب وقلبه نائم لا يعرف الألم الذي يعيشه الشعب وفكره مطمئن لا تقلقه الحيرة والتساؤل والبحث

المثقفون الشعبيون هم الذين كلما ازدادت ثقافتهم عمقاً وازدادت حساسيتهم انسانية . وكلماازداد فهمهم للثقافة والتطور بعداً عن السطحية والقشور كلما تنبهوا - أكثر - إلى أن محيط الشعب هو الجو الوحيد الذي تظهر فيه عبقريتهم وتنضج تجاربهم وتتنفس فيه رئتهم الفكرية الواسعة . وهذا سواء كان المثقف عالماً في الطبيعة والطب أو في القانون والدين أو الفلسفة والأدب أو حتى في ميدان اللغة والفن . تصور أن كل هذه الميادين يوجد لدينا فيها « مجانين » يؤمنون بالفكر وبالشعب . ويؤمنون بقدرة تفاعلهما معاً وتدفعهم حمية ذلك الإيمان دوماً إلى الابتكار والعمل والبحث والحيرة وعدم الاستسلام للصعوبات . وباختصار تكون لهم نفسية جديدة خلاقة .

تصور هذا النوع من المثقفين فانك ستجد أن مشكلتنا الحقيقية هي في فقدانهم هم وليست في عجز الشعب عن السير بخطاهم ولا في ضرورة الترفق به لأنه مثقل برواسب تأخره . كلا يا صاحبي ! لا تلق المسؤولية على الشعب بل على أمثالك وهم في بلادنا مع الأسف كثيرون !

الهوة .. بيننا وبينهم

ـ انني لا أنفعل ولا أتأثر لهذه الحملة التي تقوم بها ، لأني أعلم أنك فيها مجرد ضحية : ضحية استهواء الحياة العصرية لفكرك الناشئ الملتهب ، ولاخلاصك الساذج لبلادك وشعبك وأخيراً « لتشبعك » بما رميتك به يوماً وما اعترفت به أنت نفسك من عقد أمام هذا البهرج الذي يخطف الأبصار والذي تقدمه لنا الحياة العصرية بآلاتها ومصانعها وأضوائها وفنونها الاجرامية المتقنة المحبوكة ونسائها وألعابها الرياضية و ...

ـ دعني أعنك على سرد هذه المعطوفات فأقول : ... وعلومها وجامعاتها وفنونها وفلاسفتها واحترامها لحرية الانسان ـ فيها على الأقل ـ ودساتيرها المشرقة وقوانينها التي تحترمها وأخلاقها الإيجابية الخلاقة . نعم كل هذا يبهرني وأقف أمامه معجباً لا أتمالك عن الاعتقاد بأنه شيء يستحق أن ينعت بالتقديس . لأن الانسان لم يسبق له في تاريخه الذي لا نعرف له بداية ولا نهاية ـ ان عرف هذه الجنة الزاخرة بكل ألوان عبقريته الكامنة . ولأن ما وصلت إليه الحضارة الحديثة من تفتح في العلم والمعرفة لم يستطع أي فيلسوف في التاريخ أن يتخيله أو يحلم به . إن إنسان اليوم هو الانسان الكامل بقدر ما يستطيع الإنسان أن يحققه من كمال .

واني لا آسف إلا على شيء واحد وهو أن نرحل عن هذا العالم ـ أنا وأياك ـ قبل أن نرى أمتنا تنعم بهذه الجنة مثل الانسانية الأخرى الراقية .

ـ ألم أقل لك أن خيالك جامح لا يهدأ له جناح : حتى ذكرك لعناصر هذه الحضارة تقتصر فيه على جوانبها الإيجابية الناضجة ولا تلمح بكلمة إلى جوانبها السلبية التي يشتكي منها ـ ويعترف بها ـ أبناؤها أنفسهم .

ـ نعم ، أفعل ذلك عمداً . لأنكم أنتم ـ أقصد أنت وأمثالك ـ لا تذكرون الحضارة الحديثة إلا في معرض مسوائها . وكأنكم تسلون أنفسكم وتعوضون بذلك عن شعوركم بالحرمان منها . وكأنكم تقولون لأنفسكم : لا داعي لأن نأسف لتأخرنا وحرماننا من التقدم . ماذا استفاد منه أصحابه إلا المتاعب والأمراض العصبية والاجهاد الفكري وفقدان الراحة وقضاء الحياة في دوامة سريعة لا يشعر فيها الانسان بحياته كيف انقضت ؟ وتنسون بهذه المخادعة لأنفسكم ان كل حضارة لا بد فيها من مساوئ بقدر ما يكون فيها من محاسن ، وتنسون بالخصوص أن حضارة القرن العشرين محاسنها أكثر بكثير من مساوئها . بل انني أخشى أن يكون أمركم أدهى من ذلك وأمر . أخشى أن يكون نفوركم من الحضارة الحديثة سببه هو عجزكم عن هضمها وتحمل أعبائها ومسؤولياتها ، وفراركم مما تقتضيه هذه الحضارة من يقظة فكرية مستمرة ، وأفكاركم أنتم تعودت الهدوء والفراغ وصمت الصحراء وحوافر الماشية .فهي تتضايق من دوي المحركات وسرعة الخطى والاطلاع ـ في يوم واحد ـ على ما لم يكن يطلع عليه أجدادكم طيلة عام من أسرار ومعلومات واكتشافات يومية ، انكم فريق من المثقفين يتعبكم الخلق والابتكار والفهم فتؤثرون أن توكلوا أمر تصرفاتكم في الحياة إلى « الاتباع » ووضع الحافر على الحافر بدل السير وحدكم والمحافظة على توازن خطاكم بأنفسكم . ان ما أخشاه أن تكونوا أنتم الذين أوحيتم لبعض مفكري الغرب بما يعتقدونه من أن العقل الشرقي عقل كسول وقلبه قلب بكاء وعينه عين دموع . وان المعري كان أعمى فقضى حياته يندب حظ الانسانية بأشعاره . وأن « هوميروس »

كان أعمى مثله ولكنه خلف ـ في أشعاره ـ نماذج للروح البطولية والابتسام والتفاؤل والاندفاع لعناق الحياة . لقد قالوا عنا هذا التعريف الغريب : الشرقي شعلة في القلب وعجز في اليد . وإذا كنت لا تشعر بوخزة من شوكة هذا التعريف ـ ولو كان باطلاً ـ فاسمح لي بأن أهنيك على راحة ضميرك ، الميت .

ـ نعم أعترف لك بأن هذا التعريف لا يخزني بشوكه ولا يطير النوم عن جفني لأني أعرف أن هذا الحكم صادر عن تعصب أعمى لا أعيره أية قيمة ..

ـ .. وهكذا تكون قد استرحت من كل مسؤولية في محاولة الرد على هذه التهمة رداً بالعمل والنهوض لا بالقول والاسترخاء . وهنا أحكم عليك وعلى كل من تمثلهم بتثاؤبك أنكم لا تقرأون حتى ما يقال عنا .

ـ فهل تتفضل أنت علي بشيء مما كتبوه أو قالوه عنا ـ هؤلاء الذين تخشاهم وتتصيد أقوالهم وتجعلها مقياساً لرقينا نحن أو تأخرنا وأنت ترتجف هلعاً مما يقولونه عنا من سوء وتنشرح وتتهلل أساريرك فرحاً لما يقولونه من اطراء . هؤلاء يا سيدي ماذا قالوا عنا من سوء ؟

ـ أرجوك أولاً أن لا تخدع نفسك بكلمة « قالوا عنا وقالوا فينا » وأنت تتصور أن هذا القول هو من نوع الاغتياب وأكل لحوم الناس ، أو انه من نوع حديث الجارة لجارتها عن جارتها الثانية . كلا . اننا لا نزعجهم ولا نضايق حياتهم إلى حد أنهم يعجزون عن مجابهتنا بالحقيقة فيعمدوا إلى الغيبة فينا والنميمة ، وانما الذي يقولونه عنا هو من نوع الدراسة والبحث : يريدون أن يتوصلوا إلى فهم حقيقتنا كما يدرسون ظواهر الطبيعة أو طبقات الأرض أو تقلبات الجو وحياة الجراثيم . كل شيء عندهم خاضع للدراسة والبحث . لقد تجاوزوا مرحلة الغيبة والنميمة . وهم يدرسوننا ليتمكنوا من استغلالنا على « أفضل » وجه من وجوه الاستغلال ، وهذا الاستغلال الناجح لا يتوصلون إليه إلا إذا لم يخطئوا في دراستهم . وأنت عندما تصدر حكمك عليهم من الوهلة الأولى بأن أحكامهم فينا أحكام تعصبية

فانك لا تضر حكمهم فينا بل تضر نفسك فقط لأن هذا الوهم الخاطئ الكسول يحرمك حتى من الاطلاع على ما يفكر فيه نحوك من يريد أن يتصيدك وينقض عليك وأنت في غفلة من تحركاته الأفعوية الخطيرة .

فإذا كنت أنت تنظر إلى نفسك على أنك تحمل وراءك حضارة « بهرت العالم » وانك اليوم تستطيع أن تعيد تلك الحضارة المنقرضة إلى الوجود مرة أخرى بنفس وسائلها القديمة وتغني بها ثروة الانسانية إلى آخره .. فانهم هم يدرسونك – وألح على كلمة يدرسون – من زاوية الفواصل التي تفصل بيننا وبينهم ويبحثون أولاً في أسباب هذه الفواصل ومقدار هذه الهوة ، ويرون أن كل رغبتنا في الالتحاق بهم لا تكفي في قطع المسافة التي تفصلنا عنهم في ميدان التطور : هم يرون أن نقطة انطلاقنا اليوم نحو المستقبل ضعيفة جداً من ناحية الموارد الاقتصادية لأن ثرواتنا الوطنية منخفضة جداً إذا قيست بثرواتهم هم المستغلة المنظمة . ويرون أن النسبة بين مواردنا الاقتصادية الضعيفة وازدياد عدد السكان أي عدد الأفواه التي تفتح كل يوم أكثر طالبة الخبز – هي نسبة مخيفة تجعلنا عاجزين باستمرار عن تقريب هذه النسبة نظراً لكون انتاجنا في المواليد – أي المستهلكين – انتاج يدعو إلى الاعجاب .. ولكن انتاجنا للمواد التي تستهلكها تلك المواليد انتاج لا قيمة له ، إننا نلد وندفع إلى الشارع ولا نربط أي علاقة بين انتاجنا في البشر وانتاجنا لما يستهلكه البشر . أو إن شئت بعبارة أخرى نشاطنا الجنسي أكثر بكثير من نشاطها الذهني والاقتصادي . هذه نقطة أولى من دراستهم لوضعنا .

النقطة الثانية : مسألة القانون ، نعم القانون لا تتعجب ، الأوروبيون يرون أن الجزء الأكبر من نجاحهم الحضاري يعود إلى احترامهم للقانون ، حكومة وشعباً ، والقانون في كل الميادين : القانون في البحوث العلمية والقانون في السياسة ، والقانون في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بكل فروعها وجوانبها . ويرون أننا نحن ، مسألة القانون هذه ليست عندنا إلا لفظة ميتة لا نعرف قيمتها أو هي حيلة تستعملها الحكومات لاستغلال شعوبها وتستعملها الشعوب لسرقة حكوماتها : القانون عندهم

أداة لبناء الدولة والاقتصاد وتنظيم حياة الشعب . وهو عندنا أداة تخريب وعبث واحتيال .

النقطة الثالثة : ان هذه الشعوب الجديدة أو النامية أو المتخلفة جاءت نهضتها في وقت غير مناسب لها : أوروبا استطاعت أن تنهض بسرعة في الميدان الاقتصادي على الخصوص لأنها استطاعت أن تجعل من مستعمراتها أسواقاً لمنتوجاتها الصناعية وتجعل منها في الوقت نفسه مورداً للمواد الأولية بأسعار لا نقول رخيصة فحسب بل بأسعار رمزية ! أما اليوم فان هذه الشعوب النامية لا تملك هذه الوسيلة المزدوجة . فهي تستخرج موادها الأولية والمنجمية مثلاً بأثمان باهضة لأن الخبراء الذين تستخدمهم يطلبون أجرة مرتفعة ولأنها لا تستطيع أن تستغل عمالها كما كان يفعل معهم المستعمر . ثم هي عندما تنتج مصنوعات ما لا تستطيع أن تنافس بها مصنوعات الدول الراقية في الأسواق العالمية ولا يستطيع شعبها وحده أن يستهلك كل منتوجاتها الصناعية لضعف مقدرته الشرائية من ناحية ولأن المصنوعات لا تكون مربحة إلا إذا أنتجت بكميات ضخمة تزيد على الحاجة المحلية .

هذا يا صاحبي نوع من دراستهم لأحوالنا . أقدمه لك كمثل فقط حتى تعلم أن المسألة أبعد ما تكون عن الغيبة والنميمة وبقية الدوافع البدائية . وانما هي أجل قيمة من ذلك وأخطر شأناً !

ـ وأنت ـ طبعاً ـ تصدق كل هذه « الدراسات » كما لو أنزلت من حكيم حميد ؟ وتصديقك لها يعني أننا ستبقى دائماً في المؤخرة ويبقون هم دائماً في المقدمة . ألا ترى كيف ارتدت ثورتك إلى استسلام ؟ أما أنا فإني لا أصدق هذه « الدراسات» وأراها نوعاً ذكياً من التخدير قد تنطلي على المعجبين منا بكل ما في الغرب . ولكنه لا ينطلي على المؤمنين منا بشعبهم وبامكانياتنا الخلاقة .

الشكل والمضمون

ـ أرجو أن تعترف اليوم باندفاعك الشاب . والذي أتمناه لك هو أن لا تتراخى إرادتك الحادة هذه مع مرور الزمن وأن تحافظ على حماسك هذا عندما يصطدم بالصعاب في ميدان التطبيق . وأن لا ترتد إلى الوراء ملتجئاً لما يسميه الفاشلون « اليأس » عندما تنحل إرادتهم بعد الحماس المنهك وتجذبهم الأرض إلى القعود فيستجيبون لها . وأنهم قاموا بكل واجبهم ولكن « الظروف » خانتهم ولم يجدوا تشجيعاً من الناس . أنبهك إلى هذا الخطر الذي يتهدد أمثالك من المتحمسين لأني رأيته كثيراً في حياتي الطويلة وتجاربي المتعددة .

ـ هل تتفضل علي ببعض الأمثلة من هذه التجارب ؟

ـ أعتقد انك لست في حاجة لأن أذكر لك أمثلة على المشاريع الكثيرة التي تفشل في حياتنا لأنها خلقت من مخيلات ضخمة ونشأت كبيرة ثم أخذت ـ بعد ولادتها مباشرة ـ تنكمش وتذوب حتى تنقرض . إن حياتك المليئة بالنظريات لم تسمح لك بأن تلتفت حولك إلى ما يجري في ميدان الواقع وفي تاريخ بلادك نفسه ـ ولا أذهب بك بعيداً . انك نسيت طبعاً كيف نشأت عندنا الحركة الوطنية في الجزائر .

تنسى انها قرنت ميلادها مباشرة بلفظة الاستقلال : الاستقلال في عهد كان فيه الجزائريون لا يتصورون انه توجد دولة أخرى في العالم غير فرنسا . وأذكر أن أحد قادتنا الوطنيين ـ استشهد في الثورة رحمه الله ـ عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية وغزت القوات الهتلرية فرنسا في ظرف أسبوع . وجاء دور بريطانيا العظمى ، فسأل أحد الحاضرين هذا المسؤول في الحركة الوطنية :

« كم من يوم ستدوم مقاومة بريطانيا للغزو الالماني ؟ » فأجابه المسؤول : « إن مقاومة بريطانيا لن تقاس بالأيام بل بالشهور إن لم يكن بالسنوات » وتعجبنا كلنا لهذا الجواب . ونطق أحدنا : « وهل ان بريطانيا أعظم من فرنسا ؟ » فأجابه المسؤول بهذا التعبير الذي أتذكره : « فرنسا ـ يا أخي ـ ليست إلا إدارة من إدارات بريطانيا » . فازداد تعجبنا لهذا التأكيد . ولو لم تكن ثقتنا كبيرة في جدية المسؤول وحسن اطلاعه لشككنا في قوله وعددناه من قبيل الدعاية الكاذبة . اننا ـ قبل الحرب العالمية الثانية فقط ـ لم نكن نتصور انه توجد دولة في العالم أعظم من فرنسا . وكانت هذه هي حال تسعة وتسعين في المائة من أفراد الشعب . ومع ذلك تأتينا الحركة الوطنية في هذه الحال « فتزعم » لنا بأنه يجب أن ننظم أنفسنا ونتهيأ لافتكاك استقلالنا بالقوة من فرنسا . تصور موقف الشعب . بل موقف المثقفين من أبنائه . كان رد الفعل بطبيعة الحال هو أن رموا هؤلاء الوطنيين بالجنون . وأذكر أن كلمة « الجنون » هذه كانت شائعة إذ ذاك في أحاديث الناس وعلى السنة المثقفين جميعاً ـ سواء كانت ثقافتهم عربية أو فرنسية . أما الذين كانوا إذذاك يعتبرون « سياسيين » وأذكياء جداً فلم يكونوا يترددون بأن يتهموا هؤلاء الوطنيين بالخيانة وبالتواطئ مع الاستعمار حتى يدفعوا بالشعب إلى ارتكاب حوادث عنف تتخذها الإدارة الاستعمارية ذريعة للضرب على أيدي خيرة أبنائه من السياسيين « الحقيقيين » غير المجانين . وأذكر أنني سألت أحدهم يوماً عن رأيه فيما إذا كان يرى ناحية واحدة إيجابية في موقف الوطنيين ، فأجابني ـ وأعتقد أنه كان مخلصاً في جوابه ـ بأنه لو وجد ناحية واحدة إيجابية إلى جانب تسع نواحي سلبية في موقف الوطنيين لما تردد في الانضمام إليهم . ولكن المأساة هو أنه لا يجد في هذا

الموقف شيئاً من المنطق أو العقل أو المصلحة أو الهدف أو حتى الاخلاص . ثم زاد قائلاً : ـ وأذكر هذه الكلمة جيداً ـ : إن حالتنا اليوم لا تستدعي منا أن نطمح إلى الاستقلال . بل أن نتحصل من فرنسا على شيء واحد : وهو أن لا تعتبرنا ماعزاً أو دجاجاً . واننا من جنس البشر فقط . نعم : فقط ، فأنت ترى إذن انه كان لنا « مجانين » في تاريخنا القريب . مجانين . لا حمقى لأن جنونهم أنتج الثورة . وتاريخنا هذا نفعل اليوم كل شيء لندوسه تحت أقدامنا ولا نرعى له أية حرمة كما لو لم يكن بضعة منا . لا أحد يذكره بخير . وكما لو كانت حياتنا مليئة بالأمجاد والمفاخر إلى حد أننا لا نعبأ بهذه الفترات التاريخية منها : التاريخية حقيقة . والعجيب اليوم انك ـ أنت مثلاً ـ بدلاً من أن تذكر هذا « الجنون » الذي تعجب به عند غيرك وتنساه عند قومك ـ بدلاً من ذلك أراك تركض إلى الأمام ـ وهذا شيء حسن ـ ولكنك لا تعرف إلى أين أنت قاصد . وأعتقد انك لن تسأل نفسك يوماً إلى أين تقصد حتى تأكل منك السنون وتنال من أقدامك حفر الطريق وتنقطع رئتك عن التنفس .

ـ دعني من تعابيرك الشعرية انها جميلة ولكن هذا لا يهمني . بل يهمني أكثر لو حدثتني عن السبب الذي جعلنا ـ أقول جعلنا لأني لست وحدي في ذلك ـ ننسى تاريخنا هذا ولا نعجب به ولا نتخذه محركاً لنا اليوم فيما نحن فيه من قعود وانتكاس . إن المسألة في نظري تستحق الدرس . ولا أعرف شيئاً أضر بنا ـ نحن العرب ـ كما أضر بنا الاكتفاء بالاشارة إلى الأشياء مجرد إشارة . كما فعلت أنت الآن وكما اتهمنا الجاحظ منذ القديم . إننا لا نتعمق . درس الأشياء وإنما نلمح إليها . نقع عليها كما تقع الطير ثم نطير من جديد إلى مسألة أخرى قبل أن نفهم الأولى ونشبعها أو نشبع منها درساً وتحقيقاً ، معتمدين في ذلك كله على ما سماه ذلك المفكر الجاحظ العينين والفكر معاً ـ « بالبديهة العربية » .

ـ أعترف انـك تطلب مني هنـا أمـراً ليس بالهين . انـه يستحق بحثاً يتجاوز نطاق هذا الحديث . ولكني أعتقد أن من أهم أسباب هذا النسيان ـ أعني نسيان أنفسنا ـ : إن وقت ذكره لم يحن بعد . واننا ما زلنا نلهث من فرط الجري ،

وان الجراح لم تبرد بعد ـ كما يقول التعبير الشعبي ـ حتى نتفطن إلى أوجاعها . وأعتقد أن ذلك سيأتي . سيأتي عندما يتوفر له أهله . إن بلادنا أنتجت لحد الآن من « صنعوا » التاريخ . وبقي الآن أن تنتج من يكتبون ذلك التاريخ . والمشكلة في نظري ليست في أن نكتب التاريخ بل كيف نعرضه . ان هناك مشكلة غريبة نعانيها . وهي مشكلة العرض : اننا قادرون على الانتاج . ولكننا ما زلنا عاجزين عن عرض انتاجنا . ننتج كثيراً من المواد الزراعية ولكننا لا نعرف كيف نعرضها في الأسواق الوطنية أو العالمية . وعندما نريد أن « نحسن » العرض نعمد إلى التزييف والغش . لأننا لا نفرق بعد بين المحافظة على الحقيقة ذاتها وعرضها في ثوب جميل ومظهر جذاب ، وبين تزييف الحقيقة في ذاتها وعرضها في ثوب مفضوح . وهذا ما جعل أمثالك لا يهتمون ببضاعتهم الوطنية وانتاجهم القومي ـ سواء كان مادياً أو معنوياً ـ لأن بضاعتنا اما أن تكون منفرة في شكلها واما أن تكون مزورة في حقيقتها . وقل هذا في فنونها الشعبية ، وتاريخنا الاجتماعي وأزيائنا الوطنية وأدويتنا الطبية التقليدية وثقافتنا وآدابنا وتقاليدنا في الألعاب الرياضية وأنظمتنا الاقتصادية . كل ذلك يحتاج لا محالة إلى تنظيم جديد ولكنه يحتاج بالخصوص ـ في هذا التنظيم ـ إلى طريقة في العرض والتنسيق الجميل مع المحافظة على الأصول وعلى الأصالة .

ـ أعتقد أنك تبسط المشكلة أكثر مما ينبغي . انها تتجاوز العرض الخارجي إلى الصميم

ـ أنا لا أستطيع أن أفرق بين العرض أو المظهر الخارجي وبين الصميم والموضوع : لا أستطيع أن أفرق بين الفكرة والتعبير عنها ، ولا بين القماش ولونه . أو إن شئت لغة أرسطو : لا أتصور أن الهيولي يمكن أن تنفصل عن الصورة أو هذه عن تلك . إن الشيء الجميل في شكله لا بد أن يكون سليماً في موضوعه . لأن السلامة والأصالة من أركان الجمال كله شكلاً وموضوعاً وبيت الشعر أو القصيدة لا تستطيع أن تعجب بمعناها فقط دون لفظها أو بلفظها دون معناها مهما تفنن النقاد في هذا التفريق والتمييز . وهذا ما يصدق على كل فروع الحياة :

المرأة الجميلة في ذوقنا العصري اليوم ليست هي التي وهبت جمالاً طبيعياً وان أهملته ولم تحافظ عليه . بل هي التي تملك الجمال الطبيعي وتملك إلى جانبه ذوقاً جمالياً في عرضه وتنسيقه والمحافظة عليه . إننا نؤلف الكتب ونتعب في تأليفها ونحبر المقالات ونتنتجها ولكننا لا نعرف بعد فن الاخراج فلا يتفطن الناس إلى قيمة مجهودنا .

والشعب المقتدر ليس هو الذي يقوم بثورة رائعة فحسب بل إلى جانب ذلك يحافظ على قيمها ويعرف كيف يستفيد من تضحياته فيها . ومن الخطأ في نظري أن نعتبر مسألة العرض هذه مسألة جانبية عرضية تتناول المظهر وتهمل الصور . انها ذات خطورة بالغة في النجاح . وهي من ثم لا تقل صعوبة ودقة عن الموضوع نفسه بل هي تتطلب من المهارة والتدريب قدر ما يتطلبه انتاج الموضوع نفسه . وتتطلب بالخصوص وقتاً ومراناً لا بد منهما . وهذا ما لا يريد أن يفهمه المستعجلون أمثالك . إن كتابة القصة تتطلب وقتاً أقصر من اخراجها في فيلم سينمائي فأين الموضوع هنا وأين العرض والاخراج ؟ إن الموضوع مندمج في الشكل كاللحمة مع سداها . وصنع الثورة أكثر ثمناً من كتابتها واخراجها . ولكن اخراجها وعرضها يتطلب دقة ومراناً أكثر من صنعها . وخلودها مدين لصنعها ولعرضها معاً .

ـ والنتيجة من كل هذا ؟

ـ النتيجة : لا يجوز لنا أن نرمي ببضاعتنا في التراب لأننا لم نحسن عرضها واخراجها . وإذا كنت في حاجة إلى أمثلة أخرى فإلى حديثنا القادم .

امكانيات جديدة

ـ وعدتك في الحديث الماضي انني سأذكر لك أمثلة أخرى من ميدان آخر فهل تراك ما تزال على رغبتك في أن تطرقها ؟

ـ الواقع انني لا أدري كيف أجيبك على هذا السؤال . وأخشى إن أنا زعمت لك بأنني لست في حاجة إلى كثرة الأمثلة ـ أن يزيد ذلك في ظنك بأن كل أفكاري نظرية ولا أريد أن أمحصها على محك الواقع أو أقربها من هيكله .

ـ لقد صدقت في حدسك وفي توقعك لسوء ظني في طريقتك . انني في الواقع أرجع تصوراتي لكل نقائصك إلى عيب واحد ، وهو التشبع بالنظريات ـ النظرية ـ إن صح التعبير ، وظنك بأن المشكلة تنحل من أساسها إذا نحن وجدنا لها الحل بواسطة شطحات فكرية بارعة و تفصيلية ـ ذهنية مجردة ، حتى إذا ألبسناها لهيكل الواقع تبين انها جرارة فضفاضة أو منحسرة مبتورة . مشكلتكم أنتم ـ جماعة الشباب ـ هي أنكم تريدون أن تلبسونا أثواباً جاهزة خيطت في أمكنة أخرى لأنكم مستعجلون . ونحن ـ الأسن منكم ـ نريد أن نخيط ثيابنا بأيدينا وعلى قدر أجسادنا نفصلها ، انه ليس لكم وقت للانتظار . أما نحن فنعتقد

أن هذا الانتظار يسير بنا أسرع.وقد سبق لي في أحاديث ماضية أن شرحت فكرتي هذه ولكني أعود إليها من حين لآخر على سبيل الذكرى التي تنفع بعض المؤمنين : المؤمنين بعبقرية الشعوب . والمؤمنين بأنفسهم .

ـ لا . أنت واهم . أنا لا أرغب في كثرة الأمثلة ـ لأني أعتقد فقط أنني أستطيع أن أفهم بالمعادلات الرياضية المجردة . وإذا أردت أن تقول لي ـ خمسة ـ يكفي أن تتلفظ بالرقم ولا تحتاج لأن ترفع يدك مفتوحة في وجهي مبيناً لي أصابعك الغليظة ! وهذا معنى السرعة في نظرنا . وهو روح عصرنا وسر نجاحه . ولكن لا بأس لنترفق بكم معشر المتخلفين ذهنياً . انه لا مناص لنا من ذلك . تفضل . ما هي أمثلتك الجديدة ؟

ـ ذكرت لي في حديث مضى أن الأوروبيين ـ يدرسوننا ـ كما يدرسون عناصر الكيمياء وطبقات الجو وخلية الحياة في الجراثيم الدقيقة ، ثم ذكرت انهم زعموا أو خرجوا من هذه الدراسة البارعة بأننا ـ نحن الشعوب المتخلفة ومن ضمنهم العرب طبعاً ـ قد فاتهم الوقت ولن يستطيعوا اللحاق بالقافلة وخاصة في الميدان الاقتصادي والصناعي . لأننا أتينا إلى الوليمة متأخرين عن الوقت ولم يبق في الصحون ما يؤكل ولا في الكؤوس ما يشرب : ليس لنا مستعمرات نأخذ منها المواد الخام بأثمان زهيدة ونبيع فيها مصنوعاتنا بأثمان مربحة وانه قد حكم علينا بالفقر إلى الأبد لأن الطريقة التي أثرى بها الأوروبيون لم يعد في إمكاننا نحن أن نستعملها . وهذا ـ في نظري ـ ضيق في التفكير يقع فيه حتى الذين يخضعون كل شيء للدرس لكي لا يقعوا في الخطأ وضيق الفكر . هذا ضيق في الفكر في نظري لأننا ـ ولا أرى مانعاً من استعمال هذه الكلمة ـ نؤمن برحمة الله ، وبأنه قسم الأرزاق على البشر ـ شعوباً وأفراداً ـ بقدر ذكائهم وإيمانهم بالحياة وتنظيمهم لشؤونهم . وللتاريخ ـ في الميدان الاقتصادي وثروات الشعوب ـ فترات بارزة كاكتشاف النار أو الفتح العربي أو اكتشاف القارة الأمريكية أو عصر الحديد والبخار . ومن هذه الفترات البارزة ثروة البترول أو ما يسمونه

بالذهب الأسود . وليس من اختصاصي أن أتحدث عن هذه المادة من الناحية الفنية أو حتى الاقتصادية في صميمها . فذلك ميدان يتجاوزني بكثير . ولكني سأشير منه إلى الناحية الحضارية إن شئت . أو ما يعود على نهوضنا منه بعون : لعلك تعرف أنه في سنة ١٩٢٠ كان رصيد البلاد العربية من احتياطي هذه المادة ٢٠ في المائة . وانه أصبح اليوم يمثل ٨٥ في المائة من احتياطي العالم . فهل لهذه الأرقام مغزى في ذهنك ؟

ـ الأرقام لا تهمني بقدر ما يهمني أن أعرف استثمارها لفائدة من ؟ إن لنا امرأة رائعة الجمال . جمالاً طبيعياً كما جاء في بعض أمثلتك الماضية . ولكنه جمال مهمل . أو يستغله غيرنا والأمر واحد . والبترول لا قيمة له إذا لم يتدخل فيه الفكر ـ أعني فكرنا نحن وإذا لم يعرف أصحابه كيف يستثمرونه بأنفسهم وكيف يصنعون الآلات التي تستهلكه . والطاقة لقلب الظروف الجغرافية في تجفيف المستنقعات ومد شبكة من السدود وإقامة غابات من مصانع الكهرباء . أما ثروتنا على ما هي عليه اليوم فاني أفضل ان لو بقيت مخزونة تحت التراب إلى أن يأتي جيل آخر من شعبنا يستثمرها على أن يستثمرها غيرنا اليوم . انني لا أدري بماذا تفتخر هنا ! انه لا فرق في نظري بين أن تفتخر بثروة لك يستثمرها غيرك وبين افتخارك بالقصور التي بناها أجدادك في غرناطة ! ليس لك من الاثنين شيء في يدك : أحدهما يملكه التاريخ . والآخر تملكه أوروبا .

ـ رويدك يا أخي . انك تجهد نفسك في « خلع » باب مفتوح كما يقول التعبير الفرنسي . أنا لا أفتخر بمادة البترول . بل أريد أن أقول لك بأن امكانية الثروة الاقتصادية التي فاتتنا لأننا لا نملك مستعمرات كما كان لأوروبا في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ـ هذه الامكانية نستطيع أن نعوضها بامكانية أخرى فاتت أصحابك الذين حكموا علينا بالفقر إلى الأبد . وأريد أن أنتشلك من هوة القلق على مصيرنا ومن أوحال التشاؤم التي تتخبط فيها رجلاك . وأريد أخيراً أن أزعم لك بأن هذه الامكانية عندما يصبح استغلالها بأيدينا ـ ـ وهذا سيأتي حتماً ـ ستكون لنا مصدر طاقة لم يكن يحلم بها أصحاب العصر

الحديدي أو عصر البخار ، وانها ستمكننا من مضاعفة امكانيات أخرى هي الآن معطلة لأن محركها يتوقف على استثمار البترول بأيدينا ، المهم هو أن ـ المادة ـ موجودة اولاً ، واننا أخذنا ندرك قيمتها بالنسبة لتصورنا ثانياً . وان المرأة الجميلة بدأت تشعر بجمالها وهذه هي بداية السير . أما السير الحقيقي عندما يبلغ عنفوانه فهو اليوم الذي يتدخل فيه ـ فكرنا ـ نحن في استعمال المادة ولا نقتصر على تدخل أيدي عمالنا وحدها . انك مصيب تماماً في قولك بأن قيمة الثر وة هي في قيمة استخدامها وليست في قيمة امتلاكها ، وتعجبني هنا كلمة لعالم فرنسي من علماء الاقتصاد يقول فيها : (بين حجم الحاجيات وحجم الأدوات المستعملة لارضاء تلك الحاجيات لا بد أن يدخل الفكر والعمل وإرادة الجماهير التي في امكانها أن تحد من كمية ما تحتاجه أو تنميتها ومضاعفتها) وإيماني أنا هو أن ذلك سيأتي لا محالة ، وموعد قر به أو بعده يتوقف على اخلاص الحكومات في هذه الشعو ب ، كما أوافقك تماماً على أن الثر وات الاقتصادية تقف حيث تقف معارفنا ـ كما قال عالم آخر ، وأضاف : « اننا نستطيع أن نقول بأن التقدم الفني وتحول العلاقات في القوى الاقتصادية على وجه الأرض قد سمح للمسلمين بأن يتأكدوا بأنهم هم أيضاً يملكون ثروات طبيعية هائلة ، وتيقظهم لهذه الناحية جاء في وقت تعززت فيه بنمو عظيم في عدد سكانهم ، وهذه العوامل مجتمعة ستساهم بدون شك في يقظة المسلمين الكبرى. ولكن التطور الفني وتطور الأجهزة الاجتماعية والاقتصادية عندهم أدى خدمة كبيرة لوضعيتهم من ناحية أخرى وهي أن هذا التطور أوجد عندهم امكانيات فعالة في خلق أنظمة جديدة لم يكن يحلم بها رجال الاقتصاد عندنا في القرن التاسع عشر ، ثم ان انقسام العالم إلى معسكرين متباينين في التجارب الحضارية والأنظمة الاقتصادية جعلهما يتنافسان ، وهذا التنافس بينهما كون منطقة حرة تقوم فيها الشعوب الناشئة بتجاربها الخلاقة في اختيار الأنظمة التي تراها صالحة لتطويرها وتنمية ثروتها ، لأنه كلما وجد نظامان متباينان الا وأتاحا المجال لتكوين خلق جديد ، ولأن الضغط الخانق الذي كانت تسلطه الدول الغربية على هذه الشعوب وتريد أن تسيرها في ركاب تجاربها الخاصة ـ هذا الضغط قد زال اليوم وخلف مكانه لتجارب جديدة تنسجم مع عبقرية هذه

الشعوب . ومكنها من حرية الاختيار لا بين هذين النوعين المتنافسين فحسب . ولكن بين تجارب أخرى ما تزال في طور الاحتمال » .

هذا ولا أريد أن أطيل عليك في سرد هذا التحليل . فالمهم أنه هو أيضاً نوع آخر من الدراسة لوضعنا . ولكنها تفتح أمامنا آفاق الأمل واسعة . وتشعرنا بوزننا المتعاظم . ولا يبقى إلا أن نؤمن نحن بأننا قادرون على ما قدر عليه غيرنا . وبأن لا شيء يبرر تشاؤمنا من مستقبلنا . كما لا يوجد شيء - في نظري - يبرر سخطنا على ماضينا . والمسألة عندي مسألة إيمان . أي هي مسألة معنوية تضاف إلى امكانياتنا المادية فيتكون الهيكل الحي بروحه وجسمه . ويتكون بالخصوص - وهذا ما يهمني هنا - هيكلنا بشخصيته . ولا أعتقد أنني متخلف ذهنياً إذا قلت لك ان الألبسة الجاهزة أصبح لا بد منها . ولكن ينبغي أن نخيطها هنا من وحي ذوقنا وحرارة طقسنا وطبيعة أرضنا .

حول التفاؤل

ـ أنا أيضاً لا أريد أن أسد منافذ ريح التفاؤل أمامنا . ولكن إذا فهمنا التفاؤل فهمه الإيجابي .

ـ ماذا تقصد بالتفاؤل الإيجابي ؟ انك أكثرت علينا من كلمة الإيجاب هذه في مواضع مختلفة حتى لم نعد نعرف معناها بالضبط .

ـ نعم في التفاؤل أيضاً إيجاب وسلب . أحببت أم كرهت : السلب هو أن التفاؤل تعتمد عليه هو بدرجة تسعين في المائة ، وتعتمد على نفسك بقدر عشرة في المائة ، والتفاؤل الإيجابي يجعلك تعكس النسبة . التفاؤل الإيجابي يبعث على النشاط ويشجعك على العمل . والسلبي يبعث فيك روح التواكل والاعتماد على القوى الميتافيزيكية . ومن هذا الفارق دخل تيار الاختلاط في أذهاننا بين التفاؤل السلبي والإيجابي وأصبحنا لا نميز بينهما بوضوح . ولهذا قال فينا أحد العلماء الأوروبيين المتخصصين في دراستنا : « تتميز نفسية المسلمين لحد الآن بأنهم يعتمدون على علامة الشيء لكي تنتج لهم الشيء نفسه ،ولا يعتمدون على الشيء في انتاج علامته . وتغلب عليهم الرغبة في « الحصول » على الشيء . لا الرغبة في « فعل » الشيء . ومن هنا

نشأت عندهم ظاهرة غريبة وهي أنهم يؤكدون حصولهم على الشيء أولاً . ثم ينتقلون إلى تحقيقه بعد ذلك . أي انهم يؤكدون حصوله سياسياً في الدرجة الأولى ثم ينتقلون إلى البحث عن تحقيقه اجتماعياً واقتصادياً في المرحلة الثانية . وبعبارة أخرى هم يحصلون على ما يريدون الحصول عليه . ثم يحققونه كما لو كان تحقيقه في المرحلة الثانية ضرباً من التبرير أو الاقتناع بأنهم يستحقونه فعلاً .

ـ أعترف لك بأني أجد شيئاً من الصعوبة والالتواء في هذا التحليل .

ـ طبيعي جداً أن تجد صعوبة في الفهم . لأن المسألة عندما تخرج من العموميات البسيطة إلى الدقائق العلمية يبدأ عقلك « المتفائل » الحالم في الشعور بالتعب . ولكن لا بأس . ألم تقل لنا بأن الأب ينبغي أن يسير على قدر خطوات ابنه ؟ بعبارة منبسطة : نحن عندما ننظر إلى الحياة لا نرى من جوانبها في الوهلة الأولى إلاّ جانب « الحقوق » التي ينبغي أن نتحصل عليها . ثم بعد ذلك نشعر بشيء من وخز الضمير يجعلنا نبحث عن « الواجبات » التي تبرر في نظرنا تلك الحقوق التي تحصلنا عليها .

ـ وأي غرابة في هذا المنطق ؟

ـ الغرابة في أنه كان ينبغي أن نعكس القضية حتى تسمى منطقاً صحيحاً : نقوم « بواجباتنا » أولاً . ثم نستخرج منها ما نستأهله من حقوق بعد ذلك . وإذا كنت لا تفهم إلا بالأمثال فاليك شيئاً منها : بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية اجتمع رؤساء الشركات وعمال المصانع في ألمانيا المنهزمة ليتشاوروا في كيفية النهوض من الكبوة : كانت الديار والمصانع معاً خرائب مكدسة . وكان موضوع تشاورهم : هل يبدؤون في اعادة المصانع قبل ديار السكن . أم يبنون مساكنهم لتأوي أطفالهم من البرد أولاً ، ثم يلتفتون بعد ذلك إلى المصانع التي تتطلب وقتاً أكثر وامكانيات أوسع لا قبل لهم بها . وبعد مناقشة طويلة استقر رأيهم على ماذا في نظرك ؟

ـ طبعاً على الاسراع ببناء المساكن أولاً .

ـ ولماذا « طبعاً » هذه . انها « طبعاً » في نفسيتك .. العربية الجزائرية الاسلامية الثورية الاشتراكية إلى آخر الأغنية .. أما عند هؤلاء الذين علمهم « كانط » منطقاً آخر وكون فيهم « نيتشه » مفهوماً جديداً للقوة ـ فان « طبعاً » هذه كانت عندهم على العكس : لقد قرروا أن يبدأوا أولاً ببناء المصانع . ثم بعد ذلك يبنون مساكنهم . لأن بناء المصنع يدخل الأموال التي يبني بها المسكن . أما المسكن فيستهلك فقط ولا مداخيل فيه . انهم سارعوا إلى القيام « بالواجب » أولاً ثم يطالبون بالحقوق بعد ذلك . بعبارة العالم الفرنسي : أوجدوا الشيء أولاً ثم بحثوا له عن علامته . الشيء هو المصنع . وعلامته التي هي الرخاء تأتي بعد ذلك . أما نحن فاننا نسرع إلى الرخاء ، إلى المسكن الجميل فنحتله أولاً ولا ندفع حتى اجرة كرائه . ثم بعد مضي سنوات يبدأ ضميرنا في الاستيقاظ ونتذكر ان لنا واجبات كان ينبغي ـ والله ـ أن نقوم بها . ذلك هو مفهوم الالمان للوطنية الاشتراكية . وهذا هو مفهومنا للاشتراكية الثورية . أرجوك أن تجيبني على هذا السؤال : هل رأيت في حياتك شخصاً منا احتدمت في نفسه معركة بين « الحق » و « الواجب » فقدم واجباته على حقوقه ؟ ولكن لماذا أضع لك هذا السؤال . اننا لم ندخل بعد في الطور الذي يقف فيه ضميرنا حائراً بين الحقوق والواجبات ، بين الغريزة البدائية والعقل الناضج . هذه المعركة لم نعرفها بعد . لأنه كلما قدمت لنا الحياة مجموعة من الواجبات وأخرى من الحقوق تكدسنا كلنا نتزاحم على الحقوق ويدوس بعضنا بعضاً لاغتنامها أما الواجبات فتبقى هناك مرمية على التراب لا أحد يتفطن لوجودها . ولكن لا أدري لماذا خرجنا على الموضوع . اغفر لي هذا الاستطراد .

ـ نعم . ان الأفضل أن نعود إلى الموضوع . أما معركة الحقوق والواجبات فلي فيها معك كلام آخر سيأتي وقته . وسأبين لك انك هنا أيضاً على جانب كبير من الشطط .

موضوعنا هو التفاؤل أليس كذلك .

ـ أفضل أن أقول : مفهوم التفاؤل . لأن كل الأشياء عندنا في حاجة إلى تصحيح في مفاهيمها .

ـ صحيح . مفهوم التفاؤل : ان له حسب رأيك مفهومين ، أو جانبين . ومفهومنا نحن له هو الجانب السلبي فهل تعزو هذه السلبية إلى طبيعة فينا أو إلى ظروف تاريخية طارئة .

ـ إن الحديث عن الأسباب في هذه المواضيع ليس سهلاً ، فالنظريات فيها مختلفة . والنوايا التي تفسر هذه الأسباب هي أيضاً مختلفة : المتعصبون من الأوروبيين يرون انها أسباب في طبيعتنا . واننا كنا دائماً كذلك . وسنبقى إلى الأبد على هذه الحال . وهذا رأي لا أميل كثيراً إلى اعتناقه . وهناك من يعزون الأسباب إلى ظروف تاريخية أو جغرافية مناخية وفي مقدمتهم ابن خلدون . وأنا لم أجد فيما قرأت قديماً وحديثاً من حلل طبيعتنا السلبية هذه وأعادها إلى أسبابها العلمية كما فعل ابن خلدون . فرأيه هو أن طبيعتنا البدوية ـ أي ظروفنا الجغرافية كما نسميها اليوم ـ جعلتنا لا نفعل شيئاً لإنبات الثمرة وانضاجها . وانما ننتظر غيرنا أن يفعل ذلك ثم « نسطو » على الثمرة ونغير عليها اغارة لنلتهمها . إن ظروفنا الجغرافية جعلتنا نتصور أن الرزق ليس ثمرة السواعد والذكاء . وإنما هو تحت « ظلال السيوف » كما يصرح بذلك تعبيرنا العربي المشهور . أو تعبير أجدادنا الجاهليين . وابن خلدون هنا يؤكد أن الإسلام قد تمكن من صرفنا عن هذه النفسية حيناً من الدهر فقط . ثم عدنا إليها بعد أن فقد الدين سلطانه الروحي والقانوني على أنفسنا وتصرفاتنا . لأن الدين تمكن في ظرف ما من أن يغير ظروفنا التاريخية . أما ظروفنا الجغرافية التي كان يجب أن نغيرها نحن لا الدين فانها بقيت على حالها أو تكاد . ولست أستطيع أن أنقل لك هنا آراء الرجل بحذافيرها فهي موزعة هنا وهناك في مقدمته الغنية الطافحة .

ـ لقد سرني انك استشهدت هنا بابن خلدون ولم تأت بنظريات خارجية . وبهذه المناسبة أسألك . كم منكم ـ معشر الشباب ـ من حاول أن يفهم مشاكلنا

الاجتماعية والأخلاقية على ضوء تحليلات ابن خلدون . لا على ضوء أفكار الأوروبيين . انكم تعلمون كل شيء عن هؤلاء الأوروبيين . ولا تكادون تعرفون من ابن خلدون غير اسمه .

ـ والذنب هنا أيضاً لا يقع علينا نحن الشباب . بل عليكم أنتم : ان رجال الفكر الأوروبيين لا ينبغ منهم شخص الا ويأتي بعده من « يخدم » أفكاره ويهذب آراءه ويضعها في اطار جديد يتجدد مع ذوق العصر وطبيعته ومناهجه . فيستطيع أبناء كل عصر أن يستفيدوا من أفكاره ويستسيغوا آراءه في ثوبها الملائم لذوقهم . أما نبغاؤنا نحن فلا نعرف إلا الافتخار بأسمائهم لا بأعمالهم لأننا نجهلها . وابن خلدون كان يمكن أن تتشكل المعلومات الثمينة التي جاءت في مقدمته في مئات من الأشكال والصور تتطور فيها « خدمتها » بتطور العصور والأذواق . فكيف تريد من شبابنا في عصر السرعة الذي يعيشه أن ينفق سنين من حياته في قراءة ابن خلدون وغربلة آرائه وأخذ ما يهمه منها وتركه ما لا يهمه ؟ إن هذا أيضاً جانب آخر من جوانب السلبية ونفسية النهب : نعيش بالافتخار بابن خلدون ونشن غارة على اسمه دون أن نخـدم علمه حتى يتلاءم مـع الفائدة التي تتطلبها حاجة العصر وظروفه . أم انني هنا أيضاً أتجنى عليكم ؟ !

الزهرة المُصليّة

ـ كم أود أن أعرف إذا كان هناك شيء يعجبك في حياتنا ؟

ـ إذا كنت تبحث عما يعجب فذلك أمر آخر . أما أنا فأبحث عن المفيد في حياتنا

ـ إذن تريد أن تصير كأنكليز : لا أصدقاء لهم . بل مصالح .

ـ أود أن نكون مثلهم . ولكنني واثق بأننا لن نستطيع . ان الانكليز لم يأتوا إلى هذه الحياة كما يشتهون أن يأتوا . وانما هم ثمرة عوامل جغرافية وتاريخية واقتصادية معينة جعلتهم على ما هم عليه . وغيرهم من الأمم كذلك . ونحن أيضاً لا نشذ عن القاعدة .

ولكن إذا كنت تريد شيئاً يعجبك وينفخ بطنك بالهواء لا بالغذاء ، وبالشعر لا بالخبزِ فاليك هذه الأمثلة ، ولعلها تصادف منك قبولاً حسناً في شهر رمضان بالخصوص ، كتب عنا « بونوا ميشان » في كتاب سماه « ربيع عربي » هذا الوصف الجميل : « أكثر من أربعمائة مليون مسلم منبثين في مختلف أنحاء الأرض يتوجهون بجباههم في كل يوم خمس مرات إلى مكة المكرمة ، انهم

يشكلون نطاقاً هائلاً . زهرة كبيرة كل ورقة من أوراقها هي عبارة عن انسان حي . يسجدون للأرض . ثم ينهضون . ثم ينحنون من جديد ، ولو كان النظر يستطيع أن يلمحهم في مجموعهم وهم يؤدون هذه الحركة لكان منظر زهرة كبيرة متعددة الألوان والأوراق تنغلق وتنفتح في حركة متناسقة وإيقاع منسجم . يا لها من زهرة عجيبة تحتضن عدة قارات من العالم . تنغلق ليلاً . ولكنها تتفتح عند كل مطلع شمس استجابة لنداء المؤذن . زهرة كل ورقة من أوراقها ملتصقة في منبتها بالوراقات الأخرى . والمنبت هو قلب ذو لون أسود رائع السواد . هو الكعبة المكرمة . »

ـ يا لروعة الوصف . وشمول النظرة . لماذا لا نهتدي نحن إلى النظر لأنفسنا هذه النظرة التي تبعث فينا الحماس والشعور بقيمنا في العالم ؟

ـ نعم . كان يمكن أن يكون هذا المنظر باعثاً على القوة والحماس والشعور بالعظمة . ولكن ..

ـ ولكن ماذا أيضاً .

ـ ولكن لو لم نكن زهرة . زهرة لا حول لها ولا قوة يدوسها الطفل فلا توجعه حتى بأشواكها . أصارحك يا أخي أن هذا الوصف يجعلني أتهم صاحبه بأنه يحتقرنا عن غير قصد . انه قد يكون معجباً بنا عندما يشعر بالحاجة إلى التفسح والاستجمام . ولكنه عندما يكون في حاجة إلى الانتاج الفكري أو الاقتصادي فثق انه لا يتوجه إلينا نحن ليبحث عن ذلك . إن كل ما يلفت نظر الكاتب ونظر أمثاله إلينا هو قوة العدد وترابط العاطفة الدينية الأولية عندنا . أعني العاطفة التي لم تتطور إلى علاقات اجتماعية وسياسية وعلمية . وثق أن هذا الترابط لو حقق تطوره في هذه الميادين الثلاثة لما وجد الكاتب سبيلاً إلى تشبيهنا بالزهرة المصلية ، ولوجد تشبيهاً آخر ينطبق على مجموع حالتنا في غير حالة الصلاة أيضاً . وإليك مثلاً آخر : كتب عنا « لوي ماسينيون » من مدة قريبة ـ سنة ١٩٥٥ ـ يقول : [إن بحوث علم السكان تبين أن المسلمين يمتازون بتزايد عدد السكان . وإن هذا

التزايد يتركز في أعمار الشباب أكثر من غيرهم . شباب في عنفوان الأمل . شباب صمم أن لا يترك نفسه فريسة الاستغلال إلى الأبد ، وهو يعرف انه سيصل في يوم من الأيام إلى هدفه إذا عرف كيف يعمل بعناء واصرار ـ مثل غيره من شباب الأمم الأوروبية وحتى مثل شباب اسرائيل ـ على استغلال خيرات بلاده الطبيعية ، وعرف كيف يستثمر مواقعه الجغرافية الهائلة .]

ـ وأي شيء لا يعجبك في هذا الرأي أيضاً ؟

ـ لا يعجبني فيه كونه لم يعطني شيئاً جديداً . انه يعلق كل نجاحنا على « إذا » . وإذا هذه هي المشكلة التي نعانيها ونحاول أن نجد لها حلاً منذ عشرات السنين دون جدوى : إذا عرف شبابنا كيف يعمل بعناد واصرار على غرار شباب أوروبا وشباب اسرائيل .. لو عرف لانتهت المشكلة .

ـ ولكن ألا تعتقد ان هذا التزايد في عدد سكاننا المطعم بالشباب من شأنه أن يكسبنا حيوية أكثر في طريقة حياتنا وأسلوب عملنا . وانه يرفع من درجة وعينا بقيمتنا وشعورنا بمسؤوليتنا ؟ اننا ما زلنا نتخبط في صعوبات شديدة . ولكنها على ما أعتقد صعوبات مؤقتة . بل آخذه في الزوال . ثم ان هذه الظاهرة من شأنها كذلك أن تدخل تحولاً لا شك فيه على نظمنا الاجتماعية والاقتصادية . وأعتقد أخيراً أن لا أحد اليوم ـ سواء منا أو من الأمم الأخرى ـ ما زال يتصور أن مسلم اليوم هو مسلم الأمس الذي يقيد يديه ورجليه وفكره بعقيدة « المكتوب » . ولا أحد اليوم يتصور أن الإنسان العربي هو ذلك المخلوق الذي يمتاز بطابع العجز عن بذل أي مجهود لتغيير مصيره .

اني لا أعتقد أن منظر « الزهرة المصلية » ينتهي عند كونه منظراً شعرياً . أعتقد انه يتجاوزه إلى ميادين نفسية واجتماعية واقتصادية . وبالتالي سياسية . وينعكس على مجموع حياتنا ومصيرنا وحضارتنا . وقد لاحظ أحد الكتاب الأوروبيين أن تحولنا البشري لن يقف عند تحول عددنا . بل لا بد أن يتعداه إلى تحول نظرتنا إلى الأشياء . ولاحظ عالم آخر « ان هذا التحول لا يتم إلا بمعركة

عظمى تتلاقح فيها الأفكار وتتصادم فيها النظريات والمصالح سواء بين العرب وغيرهم . أو بين شباب العرب والأجيال المسيطرة عليهم من أمتهم . انهم أصبحوا يشعرون بضرورة استخدام فكرة العدد والحساب . »

ـ نعم . العدد والحساب . عدد العاطلين وحساب الامكانيات المهدورة .

ـ ولم لا ؟ انك تتهكم . ولكنك مخطئ . لقد كان شعبنا كله من العاطلين لا يعملون شيئاً . ومع ذلك لا نهتم باحصائهم . لأن العطالة والبطالة كنا نحسبها شيئاً طبيعياً . أما اليوم فاننا انتقلنا إلى مرحلة أخرى : هي أننا أصبحنا ندرك بأن البطالة ليست شيئاً طبيعياً . وانها علامة مرض يجب أن يعالج . وهذه في نظري مرحلة كبيرة قطعناها . ألم يقل أحد أصحابك من الأوروبيين أن الحساب هو بحد ذاته صناعة ؟ وانه يعلم صاحبه التفكير في الأسباب أو بكلمة مختصرة التفكير العلمي الذي ينبئ بالتغير

ـ كل هذا صحيح ولكنك كعادتك تهمل النقطة الرئيسية من بحثك : إن الحساب إذا دخل المصنع أو المتجر أو الإدارة كان عامل توضيح للأمور وبلورة للوضع . وهو من ثم يصلح أن يكون أساساً للتخطيط في المستقبل . ولكن كل ذلك على شرط أن يكون حساباً صحيحاً غير مغلوط . والغلط يدخل إلى الحساب من بابين : من الاهمال والكسل . ومن عدم الشعور بالمسؤولية وعدم تقدير أهمية الحساب وخطره . وهو عندما يكون مغلوطاً يصبح نكبة يفتح المجال للتغليط المنتشر على مستوى الوطن كله . إن وراء عملية الحساب والعدد يجب أن يكون هناك ضمير . يقدر قيمة الخسائر التي تنجر عن الحساب المغلوط . إن استعمال الحساب الخاطئ أفدح من عدم استعماله بتاتا . وانظر من حولك إلى ما يجري في بلادنا جزء من ممتلكاتنا مهمل بدون حساب واحصاء على الاطلاق . وجزء آخر مدغول حسابه لا ثقة في عدده . والنتيجة في كلا الجزئين خسارة مستمرة ومتساوية . إن الحساب يا صاحبي فن وصنعة . ووراء الفن يجب أن تكون هناك موهبة نفسية متجردة حازمة إن الحساب عندنا اليوم . مثل انحناءات « الزهرة التي تصلي » حركات تدفعها العادة أكثر مما تبعثها الفكرة

العاقلة أو الشعور الحي . ماذا يفيدنا أن نعرف ان عدد الأسرة في المستشفى هو كذا . ولكن الطبيب متغيب عنه دون أن يحاسبه ضميره أو يعاقبه أحد. وأي فائدة في ضبط عدد التلاميذ في القسم إذا كان المعلم عاجزاً عن تنظيم حياة أبنائه في البيت فضلاً عن تنظيم حياة العشرات من أبناء الآخرين . ان الانخداع بهذه الظواهر هو الذي أخشاه على المثقفين البسطاء يسرعون إلى الاعجاب بالشيء لأنهم ينظرون إليه من الناحية التي تريحهم ويتجنبون البحث فيه من الناحية التي تؤلمهم . وأنا رجل يهمني أن أبحث عما لا « يمشي » من قطع الآلة . أما ما يقوم منها بوظيفته فانني لا أضيع وقتي في تأمله والاعجاب به ونظم الشعر في محاسنه . إن الزهرة التي تصلي منظرها أخاذ رائع . وهو منظر تستطيع أن تراه حتى في روسيا . لقد رأيت المسيحيين في بولونيا الشيوعية يكادون يسجدون في أوحال الشتاء وثلوجه عندما يمر أمام بيوتهم راهب الكنيسة . أعني أن الشعور الديني متحكم في كل أمة على تفاوت في درجة تطورها . ولكن ما يجب أن نراه نحن من وراء حركات الزهرة وهي تصلي – هو المرض والتواكل والأوساخ والأخلاق المنحلة والفقر والبطالة والعجز وكل ما يكمن في تلك الورقات المتعبة من أسقام وهي تصلي . انني لا أوافق الفيلسوف الانكليزي « برتراند راسل » على قوله بأن الدين مسألة وقت . سينتهي عندما تنتهي المشاكل الاجتماعية في الشعوب . فالدين يرضي مشاكلنا الاجتماعية والنفسية على السواء . والحضارة تستطيع أن تحل مشاكلنا الاجتماعية ولكنها لا تزيد إلا في استفحال مشاكلنا النفسية . ومع ذلك لا أعتقد من ناحية أخرى أن الزهرة تستطيع أن تعيش ويحترم جانبها وتأمن غوائل الحياة بمجرد الصلاة !

القهر الاجتماعي

يحكى أن عمر بن الخطاب بعث بأحد قضاته إلى عمالة من العمالات التي عينه فيها وخرج معه لتوديعه فقال له ما معناه : « لا تحكم لأحد الخصمين جاءك يشكو وقد فقئت عينه حتى ترى الخصم الثاني لعل عينيه الاثنتين قد فقئتا » هذه قصة تعرفها .

ـ نعم أعرفها .

ـ وتعرف أيضاً أن ابن خلدون رمى العرب بتهم كثيرة منها انهم لا يميلون إلى العمل وانهم مخربون للحضارات الخ . وتعرف أيضاً أنه قال عنهم بأنهم سليمو الطباع ، كرام الأخلاق .

ـ هذه أيضاً أعرفها . ولكني لا أعرف المناسبة التي تذكر بها هاتين القصتين وما محلهما في حديثنا ؟

ـ المناسبة هي أن الرجال الأذكياء حقاً يريدون دائماً أن يعرفوا الحقيقة من وجهين ولا يقتصرون على وجه واحد لأنهم يريدون دائماً أن لا يخطئوا في أحكامهم . ومصدر الخطأ دائماً ـ كما تعرف أو لا تعرف ـ هو النظر إلى الحقيقة من وجه

واحد : من الوجه الذي يلذ لك ان ترى من خلاله الحقيقة . واهمال الوجه الذي يسوؤك أن تعرفها منه .

ـ لم أفهم بعد إلى أين تريد أن تصل .

ـ قبل أن أجيبك أريد أن تجيبني أنت : هل أنت من الفريق الأول أو من الثاني ؟ لا أريد أن تخادعني إن المسألة يترتب عليها شيء خطير . وأخشى عليك أن تندم إذا لم تجبني بحقيقة موقفك .

ـ أستطيع أن أزعم لك بكل ثقة في نفسي بأني لا أخشى أبداً أن أنظر إلى الحقيقة من وجهين مختلفين لأني أومن فعلاً بأن النظر من وجهة واحدة هي رغبة صبيان .

ـ إذن لنتحدث . قرأت لك أفكار الذين ينظرون إلينا من وجهة كوننا نحن المسلمين نؤلف زهرة كبيرة ذات أوراق زاهية الألوان متفتحة في مختلف القارات . وان هذه الزهرة عندما تصلي في صبحها ومسائها تسحر الألباب وتأخذ بالأبصار . وهذه زاوية نظر منها إلينا فريق من الباحثين الأوروبيين ، ولكنها نظرة ـ كما ترى من التشبيه نفسه ـ أقرب إلى الشعر منها إلى الدراسة .

ـ آه تريد أن تقول أن هناك نظرة أخرى إلى أوضاعنا هي إلى التحليل والدراسة أقرب منها إلى النظرة الشعرية ؟ تفضل اني أستمع إليك بكل هدوء .

ـ بالضبط . لقد أدركت مقصدي وانني لمسرور اليوم بأن أجدك على جانب من صفاء الفكر لم تعودني عليه في الماضي . وهذه طبعاً من نفحات رمضان كما ستقول لي ، ولكن هذه مسألة أخرى . نعم يا صاحبي : النظرة الأخرى تقول : إن العربي أو المسلم على وجه العموم لا يحمل فكرة « المفيد » في الحياة . لأن طبيعة أرضه القاحلة جعلته لا يطلب الرزق من الأرض ، لأنه ليس عندها شيء تعطيه اياه ـ بل يطلبه من الحيوان الذي يعيش معه في هذه الأرض . ومن هنا جاءت طبيعته الحربية الناهبة ، ومن هنا كان العرب أو المسلمون يؤلفون عالماً

من الذرات الفردية المشتتة لا تتلاصق فيما بينها ولا تتعاون ولا تعرف قيمة لمعنى الترابط المستقر في الأرض الصالحة بل تعيش بالتفاخر والكرم والشعر والخيل .

ـ كما قال المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ـ أكرمك الله . بالضبط .

ـ ولكن هذا شيء نعرفه . أهذا كل ما في جعبتك اليوم ؟

ـ لا . تعرفه اجمالاً . ولكنك لا تذهب في تحليله إلى النهاية ولا إلى استقصاء نتائجه حتى الثمالة . إن هذه النقطة الهامة التي تجعلها أنت مسألة لا تستحق النظر كثيراً ، تقولها ثم تمضي إلى سرير النوم ، يأخذ منها الأوروبيون ـ كعادتهم ـ منطلقاً في بحث دقيق فيه كثير من الصواب وإن كان لا يخلو من أخطاء فادحة . ويستنتجون منه أحكاماً في منتهى الخطورة . انهم يعتبرون أن هذه الحقيقة لا تقف عند حدود اتهامنا بالكسل والعزوف عن العمل المنظم والميل إلى النهب فقط . بل تعدوا ذلك إلى القول بأن القرآن حاول أن يشجعنا ، على العمل والاثراء المعنوي والمادي على السواء بواسطة حرية التملك الاقتصادي وتوسيع الثروة الثقافية ولكننا مع ذلك لم نكون وسطاً بشرياً وجواً اجتماعياً يساعد على تطور شخصية الفرد وانماء مواهبه ومكاسبه المعنوية والمادية . ولم نحقق الحرية الكافية للأفراد حتى يخلقوا أشياء من العدم فنفرح بها ونقابلها بالتشجيع . وانما نعاملهم بما يمكن أن يسمى بغريزة التحطيم والقهر وقتل المواهب .

هذا في حين يذهب آخرون منهم (وأعترف بأن نظرتهم لا تخلو من ضيق وعدم تعمق في فهم الاسلام) يذهبون إلى أن الاسلام نفسه قد ساعد على قهر الفرد ، وأصابته بالانكماش وعدم التفتح . ويقولون بأن المسيحية التي ترى بأن المسيح ابن الله جعلت الرجل المسيحي يشعر بأن هناك قرابة « عائلية » بينه وبين الله .

أما المسلم فقد علمه دينه بأن الله بعيد كل البعد عن البشر وأنه ـ أي المسلم ـ لا يستطيع أن يتصور في الله أي تسامح معه . كما أصابه بالعجز والتفكير في أن يخلق شيئاً من العدم لأن خلق الأشياء من العدم مقصور على الله وحده ، ومن أراد أن يتشبه به في هذا الخلق يصبح مشركاً لله .

ـ عجباً كنت أتصور أن التشجيع الذي جاء به الاسلام لتنمية الفرد والمجتمع لا يوجد منه شيء في المسيحية .

ـ هو كذلك . وأنا معك في هذا التصور لذلك لا أعبأ كثيراً بهذا الحكم المجازف . ولكن استمع إلى الحكم الثاني : يرون أن الإنسان المسلم قد علمه دينه انه أخ المسلم يواسيه ويعينه وانه له كالعضو في الجسم الواحد . ولكن المسلمين ـ مع ذلك أو بسبب فهمهم لذلك فهماً منحرفاً ـ قد صيروا هذا التعاون أداة رقابة قاتلة . وأصبح كل مسلم في أي مكان وفي أي عصر يشعر أن عين المجتمع تراقبه في كل جزء من أجزاء العالم وأصبح ما يسمى في علم الاجتماع « بالقهر الاجتماعي » يمارس سلطات خانقة على الفرد فلا يترك له أي مجال من الحرية في أي ميدان من ميادين الحياة ، وان هذا ما جعل الانسان المسلم أمام الأوروبيين ـ أو عندما يكون في وسط أوروبي ـ يصرح بأفكار ويأتي بأعمال لا يجرؤ على التصريح بها أو الاتيان بمثلها أمام مواطنين من المسلمين أو في وسطه الذي يعيش فيه . ومن هنا ينتقلون في بحثهم التدريجي إلى نقطة أخرى :
فيرون أن الرجل المسلم كما يخضع للقهر الاجتماعي الذي يخنق حريته ويمنعه من الخلق والابتكار يخضع أيضاً لأجداده فيربط مفهوم تطوره وهو حي يمشي على رجليه ، بمفهوم أناس قيد القبر أرجلهم فلم يعودوا يستطيعون أن يمشوا معه في الحياة أو يفهموها بفهمه . وان استسلامه لمفاهيم أجداده الذين أصبحوا في عالم الآخرة والغيب صيره هو أيضاً يحيا مثلهم في عالم الغيب الذي لا يفهم فلا يعلل الأشياء بأسبابها المنطقية العقلية ولا بالتجربة العملية المفيدة . بل يعللها « بالمكتوب » والمقدر وبان كل ما هو فيه من نعيم ليس مرده إلى نشاطه وذكائه وحيويته بل مرده إلى الحظ السعيد وإلى ما كتب على الجبين قبل الولادة . وإذا عاش في شقاء

فليس المسؤول هو الكسل أو الغباوة أو المخيلة الضيقة . بل المسؤول هو الحظ العاثر والنحس المكتوب على صاحبه قبل أن يأتي إلى هذا العالم .

وهكذا تلاقت هذه العوامل كلها لتجعل من الانسان المسلم انساناً معطلاً لا يعتمد على نفسه ولا يقوى على مواجهة الصعاب . وحتى المتطورون منهم لم ينجوا من هذا العقم الذي أصابهم به القهر الاجتماعي وتحكم الأموات فيهم . فهم أيضاً لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم في خلق مستقبلهم بواسطة نشاطهم الخاص بل يبحثون كلهم عن وظيف في الدولة يعيشون به لأن وظيف الدولة مضمون . أما المكاسب الخاصة فهي في نظرهم مغامرة معرضة للمعاطب والنكسة والاضمحلال . وعندما تناقش هؤلاء الباحثين بأن نسبة التجار مثلاً عندنا تعتبر من أعلى النسب في المجتمع ـ يقولون لك : نعم اننا نعرف أن الرجل العربي منذ القديم رجل تاجر ـ ولكنه كان دائماً تاجراً صغيراً . أما أصحاب الثروات الكبيرة فيفضلون إيداع أموالهم في البنوك الأوروبية أو في الشركات الأجنبية على أن يستخدموها في أوطانهم التي يسيطر عليها القهر الاجتماعي ورقابة العادات الميتة .

ـ ولكن ما رأيك أنت في كل هذه الأحكام والتعليلات والنتائج ؟

ـ رأيي فيها بكل صراحة ودقة (وقد أكون مخطئاً في رأيي) هو أن كل ما وصفونا به من أوصاف هو صحيح لا شبهة فيه ولا تحامل . ولكن ما لا أوافق عليه هو التعليل في بعض النقط :

لا أوافقهم على أن هذه الأوصاف تصدق على الانسان المسلم وحده . بل أميل إلى الاعتقاد بأنها تصدق على كل الشعوب التي لم تخرج بعد من طور البدائية المتوسطة أو التخلف المستفحل . هذه الأوصاف في نظري كما تصدق على الجزائر أو ليبيا المسلمتين تصدق أيضاً على الحبشة المسيحية أو أمريكا اللاتينية وعلى أوروبا نفسها في القرون الوسطى . ان حرية الفرد واحترام كرامته وتخلصه من القهر الاجتماعي وتحكم « مدينة الأموات » فيه رهن بتقدم المجتمع ثقافياً وتطوره اجتماعياً وبتشبع الفرد نفسه بقيمته الشخصية مهما كان الجنس أو الأمة

التي ينتمي إليها الفرد .

ـ ولكنك بهذا تحكم علينا بأننا ما زلنا نعيش في القرون الوسطى .
ـ آ . أما هذا فلا أشك فيه .

مجاهدة النفس ..
في غير رمضان

ـ أنا لا أظن انك تعتقد فعلاً بأننا نعيش في القرون الوسطى أو انك ـ إن صح منك ذلك ـ قد جرفك التيار دون أن تشعر : تيار تحليلات الأوربيين لأوضاعنا وإن كنت تعارضهم في بعض أفكارهم معارضة شكلية أكثر منها حقيقية .

ـ وكيف فهمت مني ذلك يا حضرة .. ؟ ام انك حلمت حلماً حدثك فيه ولي القرية ؟

ـ لا . لم أحلم ولم يحدثني عنك ولي القرية . لأني على درجة لا بأس بها من التطور حتى انني لا أؤمن بالأولياء .

ـ حتى ولو آمن بهم الغزالي ؟
ـ حتى ولو آمن بهم ابن خلدون .
ـ إذن زودني بحجتك على انني أنساق مع تيار التحليلات الأوربية دون أن أشعر .

ـ الأوروبيون ما زالوا إلى اليوم يحللون أوضاعنا على ضوء مفاهيم القرون الوسطى . عفواً انني أسأت التعبير : يحللون أوضاعنا على اعتبار اننا نعيش في القرون الوسطى . أي تتحكم فينا المفاهيم الدينية أكثر مما توجهنا مشاكل الحياة العصرية .

ـ نعم . هذا صحيح . وأنا معهم في ذلك .

ـ ولكن اسمح لي بأن لا أكون معكم في ذلك . وأنت لا تريد مني أن أضرب لك الأمثال . ولكن طبيعة تكويني كمعلم تتغلب علي في أن لا أفهم الأشياء ولا تتوضح في ذهني إلا بضرب الأمثلة .

والمثل هو الآتي :

يقول أحد أصحابك الأوروبيين ما يأتي : « إن الاسلام بحكم كونه عقيدة فلسفية يحمل في طياته بذور التخلي والهروب من الكفاح الذي لم تفتأ نظريات العلوم الطبيعية تؤكده وتطوره باستمرار . وخضوع المسلم لفكرة القدر ولكون كل شيء قد كتب في الأزل ولا بد أن يحصل لكل أحد وللجميع ، خضوعه لهذه الفكرة لا يقضي تماماً على كل اندفاع في الحياة بل يقيد هذا الاندفاع ويحد من سرعته كثيراً . وبما أن الاسلام لا توجد فيه النظرية التي توجد في المسيحية والتي تقول بأن الإنسان مذنب من أصله بسبب خطيئة آدم الأولى وانه لا بد له من أن يكافح نفسه باستمرار ليقضي على آثار هذه الخطيئة التي ورثتها الانسانية من آدم ـ بما أن الاسلام لا توجد فيه هذه النظرية فان المسلمين قد حرموا من الدافع الأصلي الذي يدفعهم إلى الكفاح النفسي والمحاولة المستمرة في أن يتغلب المسلم على ذاته ويتجاوز نفسه دائماً ويخلق من ذاته ونفسه شخصاً جديداً يتجدد مع تجدد الحياة من حوله وتغير العصور ، ويتطور مع تطور التاريخ . انه رجل يريد أن يبقى حيث هو ، لأنه لا يعتقد أن التطور والتغير وليد حركة داخلية تأتي من مقاومته لنفسه ومن مجاهدته لها ومن التغلب على نزعة الركود والبقاء في مكان واحد .

كما انه تعلم شيئاً آخر : وهو انه لا ينتظر من حاضره ولا يعمل فيه إلا ما

يزوده بقوته اليومي فقط . أما رزق الغد فسيأتي به الله في الغد . وليس من الضروري أن يتعب هو نفسه في تحضيره منذ الآن . ومن ثم فهو لا يصنع آلة تصلح له اليوم وغداً . بل يكتفي « بقضاء حاجته » اليوم ، أما فكرة المستقبل فتزعج راحته اليومية . وقد جرت عليه هذه الطبيعة حياة شقاؤها أكثر من سعادتها ، ولكنه يسلي نفسه بأن السعادة ليست من ثمار هذه الأرض . بل هي لا تنبت إلا في الجنة . وان خيرات الحياة الدنيا قد قسمت قسمة ضيزي . أما القسمة العادلة فستكون في الآخرة . وهكذا فقد المسلم كل المبررات والدوافع التي تحرك فيه مغالبة النفس الخانعة ، وتجعله يتغلب على الميل إلى الراحة والكسل فأصبح المسلم يبغض الجهد لأنه لا يميل إلى النضال النفسي الداخلي ، وأصبح ذلك قانوناً ينطبق عليه أكثر من غيره » .

ـ طيب . وما هو الرد الذي هيأته حضرتك لهذا الاتهام الخطير ؟
ـ الرد هو أن هذا تحامل سخيف وجهل مطبق بتعاليم الاسلام .
ـ وكيف كان ذلك ؟ هل تنكر أن هذا الكلام ليس فيه شيء من الصحة ؟

ـ نعم . أنكره بكل احتقار !
ـ لا يا شيخ . لا تتحمس في المناقشة . بل تحمس في العمل فذلك أجدى .

ـ إن هؤلاء الناس ينطبق عليهم ما قاله الغزالي في الفلاسفة من قبل : يستغلون نجاح أفكارهم في بعض الأشياء التي يعرفونها فيتملكهم الغرور . ويعتقدون ـ وتعتقدون أنتم معهم ـ ان ما يقولونه في أشياء أخرى يجهلونها يصادف نفس النجاح. إن تهمة الاسلام هذه بأنه خلق في المسلمين فكرة التخلي عن الجهد النفسي ومغالبة الميل فيها إلى الكسل والراحة دليل على انهم يجهلون أعظم التعاليم النبوية في هذا الباب . انك تعرف قصة عودة المسلمين من احدى الغزوات . وكان معهم الرسول فقال لهم : الآن رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . فقالوا وما الجهاد الأكبر ؟ فقال هو مغالبة النفس . ألم يعلم الرسول أمته في هذه المناسبة بأن كل ما عانوه من تعب « مادي » أو جسمي في الحرب، لا يعد شيئاً إذا قيس بالتعب

المعنوي الذي يعيشه الإنسان في الحياة العادية وهو يغالب نفسه ويتصارع معها في مشاكل الحياة لأن تعب الجهاد تعب ساعة أو يوم أو أسبوع أو شهر أو أكثر أو أقل . أما تعب مجاهدة النفس فلا ينقطع إلا بانقطاع التنفس .

وهم لم يقرأوا شيئاً من تاريخنا . دخل عمر المسجد فوجد أحد المسلمين يصلي ، وعاد في وقت آخر فوجده في نفس المكان . ودخل في اليوم الثاني والثالث فكان يجد الرجل في نفس المكان يتعبد ويصلي . فسأله : انك دائماً تتعبد في هذا المكان فمن يعولك وينفق عليك ؟ فقال الرجل : أخي يا أمير المؤمنين . فقال عمر : إذن اعلم أن أخاك سيدخل الجنة قبلك . ومعنى ذلك بعبارة أخرى : أن العمل في هذه الحياة يفتح باب الجنة قبل أن يفتحه عمل الآخرة ومعناه أن الاسلام علم المسلمين أن ثمرة السعادة تغرس شجرتها هنا في هذه الأرض . وأن أغصانها لا تنبت تلك الثمرة إلا إذا كانت عروقها ضاربة في ترابنا هذا ومسقية بتعبنا وعرقنا .

ولا أستطيع أن أتوسع لك في سرد هذه الشواهد التي تدل كلها على ان الأوروبيين يحللون أوضاعنا عن جهل مخجل ، ولا أدري كيف يسمحون لأنفسهم بأن يفعلوا ذلك ويسموا بحثهم علمياً . وتنخدعون أنتم بنجاحهم في صنع الآلات ، فتظنون أن الأفكار التي جعلتهم ينجحون فيها دليل على انهم لا يخطئون في غيرها من الميادين .

ـ يا سلام . وأنت تظن أنك الآن قد قضيت على تحليلاتهم بهذه « الشواهد » اللامعة ؟

ـ عجباً . وهل بقي عندك أنت شك في ذلك ؟

ـ نعم عندي بعض الشك إذا سمحت : انك تستشهد بتعاليم « نظرية » قالها الرسول أو عمر بن الخطاب . ولكنك لا تلتفت إلى واقعنا لتبحث مدى ما حققته تلك التعاليم من تغيير في أوضاعنا النفسية والعملية . انك لا تستطيع أن تنكر أبداً بأننا لا نبذل أي جهد في مقاومة أنفسنا ، واننا نستسلم للراحة أكثر مما نندفع إلى النشاط . واننا نعيش بالطمأنينة القاتلة أكثر مما نحيابالقلق الخلاق .

وأن هناك تباعداً هائلاً بين تلك التعاليم والشواهد النظرية وبين واقعنا العملي . وهؤلاء الأوربيون ـ يا صاحبي ـ قد نجحوا تماماً في تحليل أوضاعنا الواقعية التي نحن عليها بالفعل . وإن أخطأوا في نسبة السبب في ذلك إلى تعاليم الاسلام . وخطؤهم هنا ينبغي أن لا يصرفنا عن نجاحهم هناك وما ينبغي أن يلفت نظرنا في أفكارهم هو الجانب الذي يصور حياتنا العملية وليس خطأهم في تفسير هذه الظاهرة ونسبة سببها

ان الخطر عندنا لا يأتينا من « تهجم » الأوربيين علينا كما تتصور . بل يأتينا من اقناع أنفسنا بأننا بخير ما دامت تعاليم ديننا ـ بوصفها تعاليم نظرية ـ راقية لا ينقصها شيء وانها سبقت عصرها بكثير من حيث سلامة اتجاهها وسمو مبادئها . وكان هذا الاقتناع عندنا يقوم مقام تحقيق تلك المبادئ . ولا نتفطن في أغلب الأحيان إلى أن مبادئنا شيء وواقعنا شيء آخر . واننا نتحدث عن مبادئنا أكثر مما نهتم بواقعنا . ثم نطلب من الأوربيين أن يفعلوا معنا ذلك عندما يحللون أوضاعنا . وهم أناس عمليون يحللون الواقع أولاً ثم يبحثون عن عوامله النظرية ثانياً . وتحليل الواقع مبدأ علمي . أما البحث عن الأسباب النظرية فمبدأ فلسفي .

إننا ما زلنا نعتقد ان مجاهدة النفس هو منعها من الشهوات في شهر رمضان وليست هي مقاومة الكسل النفسي طيلة العمر . والفرق بين الاثنين هو الفرق بيننا وبين أوروبا .

الحل البارع ...
والحل المفيد

ـ لم أتصور بعد بوضوح ، كيف أن واقعنا شيء والتعاليم التي تسميها « نظرية » في ديننا شيء آخر . فهل تتفضل بازعاج نفسك وتضرب لي أمثلة على ذلك ؟

ـ أولاً أطلب منك أن تعدل تعبيرك هذا : « التعاليم التي أسميها نظرية » . فأنا لم أسمها نظرية إلا بعد أن صيرناها نحن نظرية بحتة . أما هي في ذاتها فأعترف أنها حاولت أن تكون عملية إلى أقصى حدود المحاولة التي نطيقها نحن البشر . حتى أن القرآن صور لنا الجنة في صور حسية نكاد نلمسها لمساً . وجعل عملنا الذي نقوم به في هذه الحياة من أجل الدخول إلى الجنة عملية تجارية : نفعل الخير في هذه الحياة لنحصل على الجزاء المادي في الآخرة . وأعترف أيضاً أن ذلك متناسب تماماً مع طبيعة البشر : اننا لا نفعل شيئاً ولا نتقنه ـ بالخصوص ـ إلا إذا كانت لنا فيه منفعة ملموسة . ولعل هذا التصوير الناجح الذي نجده في القرآن لخيرات الجنة هو الذي جعل المؤمنين الأولين يتسابقون إلى الاستشهاد ويغبط الأحياء منهم الأموات حتى أصبح قادتهم يهددون القياصرة والملوك بقولهم : « اننا أتيناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ! وهذه نتيجة حية من

نتائج تلك التعاليم « العملية » التي جاء بها الاسلام . وأظنك لست في حاجة لأن أسرد لك التاريخ ، وكيف تحجرت فيما بعد ــ تلك التعاليم العملية وأصبحت « قواعد » صيرت المسلمين ــ كما يقول الشيخ باديس ــ « قواعد » من النساء .

هذه ــ إذن ــ ملاحظة على الهامش . أما المثل فهو الآتي : لا نذهب بعيداً . أنا وأنت الآن نبحث في هذه الأحاديث أوضاعنا الفاسدة ونحاول أن نرجعها إلى أسبابها ، ونفتح أمامها مخارج إلى آفاق متفتحة . أليس هذا هو غرضنا ؟

ــ نعم .

ــ ولكن ألم تشعر بأننا نفعل ذلك بعقلية نظرية بحتة ؟ أعني اننا « نتحدث » ولا « نحلل » . نتحدث عن مبادئ عامة أو ذكريات في التاريخ أو نستشهد بتصرف فلان أو قولة فلتان . ولكننا قليلاً ما نحلل أوضاعنا القائمة أو نربط ظواهرها الاجتماعية بأسبابها النفسية كما يفعل الأوروبيون : نتهم تجارنا مثلاً بأنهم يغتنمون فرصة رمضان أو جائحة سنوية ليحتكروا المواد ويرفعوا في أسعارها ، وكذلك يفعل الصناع وغيرهم . ثم نقف عند هذا الحد .

أما الأوربيون فيتناولون هذه الظاهرة بتحليل من نوع آخر ويطلقون عليها ــ في علم الاقتصاد ــ مصطلحاً خاصاً يسمونه « بالقيمة الذاتية » .

ــ ما معنى هذا المصطلح الغريب ؟
ــ معناه أن الأوربيين يحددون أسعار بضائعهم تحديداً « موضوعياً » . ونحن نحددها تحديداً « ذاتياً » .

ــ لم أفهم بعد .

ــ أعرف انك لا تفهم مصطلحات القرن العشرين : التاجر أو الصانع أو المنتج على العموم في أوربا يحدد أسعار بضاعته بعد أن يقوم بعملية حسابية مضبوطة تتناول ثمن الشيء وهو مادة خام ، قبل أن يصنعه ، ثم أجرة العمل الذي

أنفقه في تحويله إلى بضاعة مصنوعة ، ثم يضع هامشاً للربح تتمشى مساحته مع التكاليف العامة أي أنه يحدد ثمن التكاليف العامة ثم يضيف إليه ما يناسبه من ربح ، ثم يضع ثمنه عليه كحق من حقوقه المشروعة لا ينازعه فيه أحد ، وسواء اشتريته منه أنت أم غيرك فالثمن لا يتغير ، ولا ينزل أو ينخفض بحسب الوجه الذي يشتري

وهذا ما يسمى بالتحديد الموضوعي : يتناول موضوع الثمن لاحالة من يشتري البضاعة .

أما عندنا نحن فالأمر يختلف عن ذلك . التاجر أو الصانع قل أن يعرف بالضبط ثمن التكاليف التي ينفقها على الشيء وماذا كانت هذه التكاليف قبل أن يصنعه وبعد أن يهيئه للبيع أو قبل أن يشتريه وبعد أن يعرضه بدوره على المشتري . وتأتي مرحلة البيع فتبدأ المعركة بين البائع والمشتري : معركة المساومة التي لا حد لها والتي لا يعرف فيها المشتري أبداً إذا كان البائع قد غشه في الثمن أم لا . كما لا يعرف البائع أبداً هل حقق هامشاً من الربح يتمشى تماماً مع التكاليف أم أن الثمن الذي باع به بضاعته ليس فيه هامش ربح على الاطلاق وانما هو باعه « برأسماله » أو دونه بقليل أو كثير .

يقول عنا علماء الاقتصاد الأوربيون أن تاجرنا أو صانعنا يحدد سعر بضاعته لا حسب تكاليفها المضبوطة ، بل حسب وجه المشتري الذي يقصده : إن كان وجه مغفل لا يعرف الأسعار فالثمن يرتفع بصورة آلية إلى حد مخيف . وإن كان وجهاً تبدو عليه علائم الفطنة والتجربة كان الثمن ـ بعد المساومة طبعاً ـ منخفضاً إلى حد مدهش وهذا هو التحديد الذاتي : لا يتناول الشيء نفسه بل يتلون حسب حالة المشتري . وهكذا أصبحت كل عملية تجارية ـ عظيمة كانت أم صغيرة ـ تجري في أسواقنا هي في الواقع عملية مراهنة أو قمار أو سرقة أو اختلاس أو كلمة أخرى من كلمات التحايل والكذب ، ولكنها ليست عملية تجارية طبيعية يعرف فيها البائع ثمن تكاليفه وهامش ربحه ، ويعرف المشتري انه سواء اشتراها من هذا

التاجر أو ذاك ، وسواء كان التاجر مصلياً أو خماراً فذلك لا دخل له في التجارة أو الصناعة ، والمشتري إذن مطمئن على انه لم يخدع فيها . وإذا أنت قمت بعملية احصائية لوقتنا الذي نضيعه ـ باعة ومشترين ـ في المساومة والتحايل والاصطياد تدرك مبلغ الخسارة التي نتعرض لها في استنزاف أوقاتنا وأعمارنا في هذه العملية التافهة . ولكننا لا نشعر بذلك لأن الوقت عندنا من رمل وليس من ذهب .

إلا أن فداحة الخطب تسري إلى ميدان آخر وهو أن تكرار هذه العمليات في حياتنا عدة مرات في اليوم ومشاركة كل الطبقات والفئات الاجتماعية فيها من أطفال ونساء ورجال وشباب ـ يجعلها تنتقل من المحيط الخارجي إلى المحيط النفسي ! الداخلي ، وترسخ فينا بحكم التكرار وتتخذ طابعاً من العمق والتأصل حتى تصبح عادية لا تلفت الأنظار ، وتتسرب إلى مختلف مجالات حياتنا النفسية فتصبح أخلاقاً يتعامل بها الأب مع أبنائه والزوجة مع زوجها والطالب مع معلمه والشعب مع الحكومة والحكومة مع الشعب . ويصبح مجتمعاً يعيش بالشذوذ ولكنه يراه طبيعياً ، وهذا ما يسمى بالمجتمع المتفسخ : لا من الناحية الأخلاقية فحسب بل من ناحية التكوين ذاته . تتفسخ الألوان في نظرنا ويصيبنا ما يسمى في علم النفس ـ بعمى الألوان ـ فلا نفرق بين الأبيض والأسود ، ولا بين الربح المشروع والسرقة المقنعة ، ويختلط الذكاء بالحيلة ، والعجرفة بالشجاعة والخبث بالدبلوماسية والجشع بالطموح ، والغرور بالحيوية ، والفوضى بالنشاط ، والتدجيل بالتدين ، والبلاهة بالاخلاص ، وتنطمس معالم الأشياء والقيم ويستوي الماء والخشب ، والحب والمنفعة ، والفن والتجارة ، والعلم والمكر ، والطبيعي والمفتعل ، وتتداخل الحدود بين الأخوة والمراوغة ، والحق والتسلط ، ويصبح الواجب هو براعة الفرار منه ..

ـ وأخيراً هل ستقف عند حد في سرد هذه السلسلة ، وما هو الحل ؟

ـ نعم . سأقف . الأحسن أن أقف . أما الحل فهو سهل : لماذا نزعج أنفسنا بالحديث عن هذه المآسي ونحن في شهر رمضان الكريم ومقبلون على عيده

الكريم أيضاً ؟ أليس من الأفضل أن نعود إلى طبيعتنا : طبيعتنا السمحة المتسامحة ونعدل عن محاسبة أنفسنا بهذه الطريقة المؤلمة التي يعاملنا بها أولئك الأوربيون الكفار ؟ إن الحل الذي أعرف أنك ترغب فيه تجده في هذه القصة : سأل معلم تلميذه في عملية حسابية على الشكل الآتي : خرج شيخ أعمى في ليلة مظلمة تراكمت فيها الثلوج . فكان يضع عصاه في الثلج وهو يمشي فتغيس ربع متر . وطول العصا متر واحد . فكم يبقى من العصا خارج الثلج ؟ فبقي الطفل ساكتاً . فقال له المعلم : تكلم . فيم تفكر ؟ فقال التلميذ : « انني أفكر لماذا خرج هذا الشيخ الملعون في هذه الليلة الملعونة حتى أوقعنا في هذه المشكلة ! »

ـ يا له من شيطان بارع هذا التلميذ !

ـ بالضبط انك تعجب ببراعته وحيلته في التهرب من الحل أما حل المشكلة الحسابية فقد نسيته . انك ترغب في الحل « البارع » لا في الحل « المفيد » . وهذا ما يجعلك ـ دون أن تشعر ـ تلجأ في حل مشاكلنا إلى التعاليم النظرية غافلاً عن الحل المفيد .

نحو آراء أخرى

ـ انك تحدثني دائماً عن تحليلات الأوربيين لأوضاعنا ولا تشير بشيء إلى ما يكون قد قام به الباحثون العرب أو المسلمون عامة إلى هذه الأوضاع . ولا تستشهد بأقوالهم وأفكارهم ، ولا تحكم على هذه الأفكار إذا كانت صحيحة أو خاطئة .

ـ الواقع انك أبطأت كثيراً في إيراد هذه الملاحظة . لقد كنت أتوقعها منك قبل اليوم . أما الآن فلا أستغربها بل أستغرب أن جاءت متأخرة إلى هذا الحد .

ـ فهل معنى هذا ان لم يعد لي حق فيها ؟

ـ لا بل معناه فقط أن الواجب يقضي عليك أنت أن تزودنا بهذه التحليلات إذا كانت موجودة عند باحثينا . لأنها تكون مدونة في كتب باللغة العربية وأنت تحسنها كما أحسنها أو أكثر ، وليس لك فيها العذر الذي لك في اللغات الأجنبية التي تجهلها ، والتي جعلني جهلك بها أستشهد لك بأفكار أصحابها في شؤوننا .

ـ حقاً . انك مصيب في هذه الملاحظة وكان يجب علي أنا أن أتزود بأفكار باحثينا المسلمين والعرب وأقابلك بها كلما جابهتني بأفكار الأوربيين .

ـ اعترافك بالتقصير في هذه النقطة أيضاً متخلف عن أوانه . ككل شيء يأتي منك ومن أمثالك ومن طبقتك : طبقة انصاف المثقفين . وأنا أصارحك بأنني لهذا السبب بالضبط أعتبر شركم أفدح من شر الأميين المطلقين .

ـ وكيف ؟

ـ لأن الأمي المطلق يعترف بجهله وعندما تعلمه شيئاً يأخذه منك بدون عقدة . أما انصاف الأميين ، أو إن شئت انصاف المثقفين ـ فتكبر عليهم نفوسهم وتمنعهم كبرياؤهم من أن يتعلموا من الآخرين ، ويرون ذلك سبة في « علمهم » المزيف .

ـ أعتقد أن صراحتك هذه ـ أيضاً ـ فيها شيء من الكبرياء : كبرياء العلماء « الكبار » أمثالك . ولعل هذه الكبرياء هي التي تجعلنا نحن أشباه المثقفين نقابلها بكبرياء مثلها ، ونرد التحية بأحسن منها .

ـ هنا أنا أيضاً يجب أن أعترف بغرورنا . إن كل من شعر منا بأنه متفوق على صاحبه في ميدان من ميادين الثقافة إلا وحاول أن يظهر هذا التفوق لا رغبة في تعليم غيره بما يعرف . بل حرصاً على اظهار عضلاته الفكرية الناتئة . ولقد شعرت بهذا أكثر من مرة كلما اجتمعت بقوم من طبقتنا ، وكان الحديث يدور في موضوع ، فلا تشعر إلا وأحد الحاضرين قد حاول أن يخرج به إلى موضوع آخر يجد فيه هو ما يقول ان ضاقت به سبل القول في الموضوع الأول .

ـ وإلى أي شيء ترجع هذا العيب ؟

ـ سببه في رأيي هو أننا ما زلنا « جياع » ثقافة . أو « أثرياء حرب » في الميدان الثقافي . لم نتلق ثقافتنا جيلاً عن جيل يتقدم بالتدريج . بل فتحنا أعيننا في مجتمع « اقطاعي » من الناحية الفكرية : طبقة أجنبية فيه مثقفة ، وطبقة وطنية جاهلة ، فحملنا التيار الأجنبي إلى العالم الراقي وتركنا أمتنا في العالم المتخلف . ونحن اليوم نزهو عليها بعلمنا وثقافتنا كما يزهو عليها « أغنياء آخر ساعة » بسياراتهم اللامعة وتبذيرهم السخيف . اننا متخمون بثقافة القرن العشرين في

مجتمع يعيش بين حضارتين ـ كما يقول مفكر جزائري ـ احداهما تركها وراءه والأخرى لم يلحقها أمامه .

ـ الآن وقد اعترفت بنقائصك مثلما عيرتني بنقائصي ، لا بأس أن نعود إلى الموضوع . وهو رأي مفكرينا نحن في أوضاعنا . ورأيك أنت في آرائهم هذه .

ـ انني لا أستطيع أن أدعي لك بأنني محيط بكل ما كتبه مفكرونا الاصلاحيون في شؤوننا . فأنت تعرف الشيخ باديس جيداً . وأعتقد أنك قرأت كثيراً للشيخ محمد عبده مثلاً ، ولكنك وقفت عند ذلك الحد . وظننت أن الحياة قد وقفت لأنك من المؤمنين بأن الأوائل لم يتركوا شيئاً للأواخر .ـ هذا صحيح . ولذلك أعترف لك بأنني قليل القراءة منشغل بمشاكل الحياة ..

ـ ولأنك تعتقد أن القراءة تضيع وقتك ولا تعينك على حل مشاكل الحياة . في حين أن القراءة في عصرنا هي أساس حل المشاكل في جميع ميادين الحياة : لا تتقن الزراعة إلا بقراءة كتبها ـ وكذلك التجارة والنقل ، والميكانيك ، وتربية الدواجن ، وتعليم الأطفال ، وعلاج المرضى ، ووضع الحوامل ، والتزين في الحفلات ، والألعاب الرياضية ، والطبخ ، ورعاية الأزهار ، والاصلاح الديني ، والفلسفة ، والوقاية الصحية ، وصيد السمك ، وبناء المساكن واقامة السدود . وصناعة الجلد ، واستخراج البترول ، والعزف على آلات الطرب . وكل شيء . ولعل الآية التي تقول « ما فرطنا في الكتاب من شيء » صحيحة من هذه الوجهة أيضاً . أليس كذلك ؟

ـ اسمح لي بأن أتحرز بعض الشيء في هذا اللون من التفسير .

ـ طيب . دعنا من التفسير أعرف أن شجاعتك بميزان . لأنك « بورجوازي فكر » لا ثقة لك كبيرة في قوتك الفكرية حتى تغامر بها في المسالك الوعرة . ورصيدك من الثقافة محدود ، وتخشى أن يرميك « أحدهم » بالكفر فلا تجد ما تقول .

ـ كلا لم تصب السبب بالضبط . الواقع أنني أشعر بأننا أقل حرية اجتماعية وفكرية من قبل . كان رجال الدين عندنا في عهد الاستعمار أكثر تقدمية مما هم اليوم . بل هم أصبحوا محافظين بقدر ما كانوا ثوريين أو مصلحين . وأشعر أنني أصبت بعدوى فادحة في هذا الميدان وإن كنت لا أعرف ما سبب هذه الظاهرة .

ـ أسبابها عميقة يا صاحبي ومتشعبة جداً . ولكن أبرزها في نظري ، هو فقدان رجل . وهو الشيخ باديس . كان يمثل كل أفكارنا الاصلاحية والثورية الاجتماعية ولا يجرؤ واحد منكم أن يعارضه لأن شخصيته كانت طاغية وعلمه كان علماً صحيحاً ، وعفته الخلقية كانت أضخم من أن تحاولوا المساس بها فكان يهيمن بظله التقدمي على كل الآفاق الاصلاحية . ويحقق الانسجام الكامل بين كل النزعات الثقافية ، أما الآن فقد اختفى ظله الجبار ، وبقيتم أنتم لا تعرفون من وسائل الدفاع عن المجتمع والدين والثقافة واللغة ـ إلا المحافظة على ما هو موجود دون أي زيادة أو نقص . لا تتقدمون ولا تتأخرون . ولما كانت الحياة في تقدم ، فان من يبقى على هامشها واقفاً . يبدو كأنه يتأخر . تماماً كما في القطار . إن ماء النهر قليل حولكم . وأحسن وسيلة في نظركم للمحافظة عليه هو أن تمنعوا جريانه وتسدوا منافذه حتى لا يضيع . وأنتم لا تعرفون أن وقوفه في بركة آسنة أخطر من ضياعه في البحر : إذا ضاع تخسره هو فقط . أما إذا أصبح آسناً عفناً فانك تجني منه كل يوم محصولاً رهيباً من الأمراض والأوبئة .

ـ لعل هذا صحيح . ولكن ألا ترى أننا لم ندخل الموضوع بعد ؟

ـ نعم . لم ندخل الموضوع بعد . وأراك مستعجلاً كأن ما نحن فيه من حديث ليس بموضوع . أو هو إضاعة للوقت . الموضوع باختصار هو أن أقرأ أنا وأخبرك أنت بما قرأت . لأنني ليست لي مشاغل في الحياة . المشاغل من نصيبك أنت فقط . ولكنني سأفعل يا سيدي . انني أشعر أن ذلك هو واجبي الوحيد إن كان لي واجب وحيد في الحياة . إن هذا هو العطاء الوحيد الذي لا أستطيع أن أبخل به عليك . لأنه هو كل ما أملك . سأحدثك في مجالسنا القادمة عن آراء أخرى .

وستكون هذه المرة آراء لمفكرينا نحن . ولكنها ستكون في نفس الموضوع ، ومن نفس المستوى إن شاء الله . وسيتبين لك أن ما يقوله عنا الأوربيون لا يختلف كثيراً عما يقوله عنا مفكرونا نحن ، على شرط أن يكونوا قريبين من مستواهم في الثقافة والجرأة والبعد عن التزلف ، واحتقار الحلول السهلة « البارعة » والبحث عن الحلول العملية المفيدة . أو على الأقل توجيه الأفكار إلى الحلول العملية المفيدة بواسطة المقارنات والتحليلات المتزنة . وبواسطة الترفع عن العقد البغيضة . فإلى حديثنا القادم .

مفهوم الحكم ..
عندنا وعندهم

ـ يا أخي . ألا ترى أننا أسرفنا في الحديث عن مشاكل عامة تتعلق بكل الأوطان والشعوب العربية مشرقاً ومغرباً . أو إن شئت هي مشاكل من « الصميم » ولكنها لا تتناول هذا الموضوع بالذات أو ذاك ، أو هذه المشكلة أو تلك بالتحديد . وإذا كنت معي على وفاق في هذه الملاحظة فانني أود أن نغتنم فرصة استعراض آراء المفكرين العرب والمسلمين لنحدد فيها قضايا بعينها ومشاكل مضبوطة لا نضيع كثيراً في تحليل أسبابها بل نقتصر على وصف أعراضها حتى نعرف معالمها ونحدد ملامحها ونحصرها في نطاق مرضي معين .

ـ الواقع أنه آن لي أن أشعر بمللك من الحديث في « الصميم » لأنه يترك لك مجالاً للعمل الفكري الشخصي الذي تفهم به قضايا معينة أو جزئية من قضايانا الخاصة على ضوء الحديث عن مشاكل الصميم . ولكنك تأبى أن تبذل أي جهد شخصي ، وتريد أن يكون هذا الحديث بيننا فيه الفكرة الأساسية وفيه الشرح الممل ، وفيه الأمثلة المحسوسة . وكل ذلك حرصاً منك على توفير الراحة المطلقة لفكرك المكدود المتعب : المتعب من الراحة . انك لا تعرف أن الراحة المستطيلة

تتعب أكثر من التعب المتواصل . ولكن لنستجب للطلب .

تجري هذه الأيام ـ بل منذ عدة أسابيع ـ أحاديث كثيرة عن مشكلة أصبحت عالمية وانسانية في آن واحد . وهي ما يسمى بقضية السيد بن بركة . وحديث الناس ينحصر في هذا السؤال أو هذا التعجب : حكومة أجنبية تبحث عن الحقيقة في هذه المأساة . وحكومة المواطن الذي تتعلق به هذه المأساة لا تبذل معها أي اعانة أو جهد لاكتشاف هذه الحقيقة . بل هي تتصرف كما لو كانت تريد أن تغمرها .

ونحن هنا لا يهمنا أن نتتبع هذه القضية . فذلك من عمل الصحافة السياسية بل يهمنا أن نبحث هذه المشكلة بوصفها « ظاهرة » : ظاهرة حضارية أو اجتماعية تكشف عن طبيعتنا أو تصورنا للحكم والنفوذ ، وطبيعة الأوربيين أو تصورهم للحكم والنفوذ . لأننا إذا كشفنا النقاب عن هذه الطبيعة أو هذا التصور أو هذا المفهوم ، لا يبقى لنا تعجب من الاختلاف القائم الآن في تصرف الحكومتين ـ الأجنبية والوطنية ـ في هذه المأساة وفي غيرها أو ما يماثلها مما يجري دائماً في الأوطان العربية فنجده عندئذ طبيعياً لا يثير العجب . وانما أثار العجب هذه المرة لتقابله مع موقف دولة أوربية في نفس المأساة يختلف عن موقف الدولة الوطنية ، فكان التعارض واضحاً والاختلاف شديداً تميز بفضله مفهوم الحكم وتصوره عندنا وعند الأوربيين .

ـ هذا شيء جميل . إذن سيكون موضوعنا (على ضوء هذه المقدمــة أو هذه المناسبة) هو مفهوم الحكم عندنا وعند الأوربيين ؟

ـ لقد فهمت وحدك . انك تشجعني بهذا الاستعداد وهذا « التجلي » العجيب . ولا تنس أنني سأحدثك (في هذا الموضوع كما اتفقنا) عن آراء مفكرينا نحن . وقد اخترت لك في هذا الحديث رجلاً لا يمكن أن تتهمه (كما قد تتهم الأوربيين) بالتعصب لأفكار أوربا أو الشعور بالنقص نحو أنفسنا . انه عالم محترم ، ومثقف بأوسع معاني الكلمة ، وذو خلق وطني واجتماعي وسياسي يصلح به أن يكون إماماً

يحتذى في معبد الوطنية والانسانية والاخلاص . وأظنك على الأقل تسمع باسمه وهو المرحوم أحمد أمين . وسترى كيف كتب عن قضية ابن بركة في الصميم قبل أن تقع !

ـ صحيح هذا رجل لا يمكن أن يشك أحد في قيمته العلمية والخلقية . ولكن هل هو أيضاً ممن يمكن أن تجد عنده آراء تؤيد نظرية العلماء الأوربيين فينا ؟ ان هذا أمر عجيب .

ـ عجيب عندك فقط . لأنك تسمع به وبكتبه المشهورة . ولا تلتفت إلى كتبه الأخرى . ولأنك لا تقرأ إلا ما ينبهك الناس إليه . ولأن الوسط الذي تعيش فيه لم ينبهك ولم يتنبه هو بنفسه لقيمة الكتب ، لأنه هو بدوره ينتظر من ينبهه ، وعندما يجد من ينبهه يود (كما تفعل أنت الآن) أن « نقص » عليه ما نقرأ . كما نقص على الأطفال .. ولكن (مرة أخرى) لنعد إلى الموضوع ، يقول المرحوم أحمد أمين : « الغربيون يفهمون أن الحكومة هيئة تمثلهم وترعى مصالحهم . وهم يكرهون السلطان المطلق ويعدونه نقمة كبرى يجب أن تزال . أما في الشرق فقد توالى عليهم الظلم والاستبداد ، ولم يصادفهم رجال أقوياء يصرخون ضد الظلم ويوقفون الظالم عند حده ، فجرأ الحكام عليهم إذ رأوا سكوتهم عما لحقهم ، بل ومقابلة الشعب ظلم الحكام بمديحهم والدعاء لهم باعلاء شأنهم ... والحكومة في أوربا تعلم الشعب وتقيه شر الجهل والمرض والفاقة . بينما هي في الشرق ترى أن تلك الأمور كلها ليست واجباً عليها بل ان فعلت ذلك فتفضل منها . وفي الغرب لا توجد إلا سلطة واحدة هي سلطة الدولة . أما في الشرق فيوجد إلى جانب سلطة الدولة سلطة الأفراد المحظوظين والطبقات والهيئات ذات الامتيازات كطبقة الأغنياء ورجال الدين . وبذلك تحول الفلاح في الغرب من عبد ذليل إلى انسان مواطن بفضل القانون الذي يطبق على الرفيع والوضيع . بينما في الشرق لم يوضع القانون ليطبق على الأغنياء والوجهاء ، فهم فوق القانون وفوق الضرائب . وبينما كان الغربيون يعيشون في الاستبداد ثم تطوروا نحو الديموقراطية نجد المسلمين بدؤوا حياتهم السياسية بالديموقراطية ثم رجعوا القهقراء نحو الاستبداد . كان

الخليفة يخضع للكتاب والسنة فأصبح « إماماً » يأمر فيطاع ، وأصبح الحكام لا يفكرون في مواطنين لهم عليهم حقوق ، ولكن في رعية تستغل لشهواتهم .. وعندما احتك الشرق بالغرب وحدث تطور عند الشرق من جراء ذلك شمل هذا التطور فئة من المثقفين لقراءتهم الكتب الحديثة أو سفرهم إلى أوربا أو كثرة احتكاكهم بالأجانب بأي شكل . أما طبقة الفلاحين والعمال وهم أغلبية الشعوب فلم يتغيروا كثيراً عن حالهم في أقدم العصور ... قال أبو بكر عندما تولى الخلافة : (اني وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموا اعوجاجي) . وهذا يرينا مدى الديموقراطية التي بدأ بها المسلمون حياتهم السياسية .. ثم سيطر عليهم حكام استبدوا بهم وسلبوا أموالهم ونكلوا بهم ، ورجال الدين يدعون لهم على المنابر ويلقبونهم بالملوك الصالحين . والفنانون والأدباء لا عمل لهم إلا النفاق والملق والاستجداء ، فانخلعت بذلك قلوب الناس أمام الخلفاء والأمراء والولاة ، وانتقل ذلك إلى من هم أدنى منهم ، فرئيس المصلحة مستبد بمرؤوسيه ، والمدير على من دونه من الحكام ، والحكام الصغار مستبدون بالفلاحين ، والضباط على الجند والجند على الشعب . وهكذا كل واحد مستبد به من فوقه ، وهو مستبد على من دونه فكل واحد ينتقم لاستبداد الأعلى بالاستبداد على الأدنى » .

هذه يا صاحبي جملة ملاحظات مختصرة جمعتها لك من أحمد أمين تتعلق بموضوع معين وهو مشكلة الحكم عندنا وعند الأوربيين ، وعلى ضوئها تستطيع أن تفهم قضية الزعيم المغربي هذه الأيام ، وتضعها في وضعها من هذا الاطار ، فلا تجدها قد خرجت عن « العرف » أو شذت عن مفهوم الحكم عندنا .

وأنا أحب أن ألفت نظرك بالخصوص إلى نقطتين في هذه الأفكار : الأولى أن المسلمين بدأوا حياتهم بالديموقراطية ثم تدهوروا إلى النظام الاستبدادي والأوربيون بدأوه بالاستبداد وتطوروا به إلى النظام الديموقراطي . فنحن نسير بعكس التطور ونضيق به ذرعاً ونحن من ثم لا نستأهل النظم التي أتانا بها الاسلام . انها فوق مستوانا وأبعد من استعدادنا . ولقد تحدثت طويلاً عن هذا الموضوع

في أول مقال من هذه السلسلة في « المعركة بين الشهوة والقانون » فلا داعي لأن أطيل فيه هنا .

والنقطة الثانية هي أننا لم نجد « رجالاً أقوياء يوقفون الظالم عند حده » كما يقول احمد أمين ، وأننا جميعاً ـ رجال الدين والأدب والفن ـ لا عمل لنا إلا تملق هؤلاء الحكام والتزلف إليهم وانتظار الخبزة المرة من أكفهم النجسة . فنحن إذن المسؤولون عن تخدير الشعب وعدم مقاومته للظلم والاستبداد . أما في أوربا فانك تجد هذه الفئات من المثقفين كانوا دائماً في طليعة الكفاح ومقاومة الاستبداد ، وكانوا دائماً يفعلون ذلك عن وعي داخلي برسالتهم نحو الشعب ، وليس عن دوافع بعيدة عن المثل العليا . انك لا تكاد تجد في تاريخ أوربا الطويل فئات أو شخصيات مثقفة تقاوم الحكم القائم لكي تتولاه مكانه أو تضع نفسها في خدمة أغراض أخرى أنانية متسترة ـ من المثل العليا ـ بشعاراتها فقط . ولذلك كان المثقفون الأوربيون ينجحون في النضال السياسي أعني تنجح القضايا التي يعملون من أجلها ، ونجدها عندنا نحن تبرز بسرعة كالفقاقيع ثم تنطفئ بسرعة أيضاً ولا يكتب لها البقاء . لأننا لا نعمل لا لله ولا للمثل العليا . في حين يعمل المثقف الأوربي لله إذا كان متديناً . أو لمثله الأعلى إذا كان ملحداً . وهو في كل الحالين ناجح لأنه في كلا الحالين لا يعمل لنفسه ، ولأنه قد تجاوز مطامعه الصغيرة عندما اكتشف مطامح الانسانية الكبرى ، ولأن شهوته الخاصة ذابت في محيط المثل العليا التي يعيش فيها عيشة النبل والمعرفة .

الثقافة عندهم وعندنا

الثقافة عندهم ... وعندنا .

ـ أظنك سمعت بالصاروخ الذي غزا القمر ؟

ـ وكيف لا . ولكن هل سيكون موضوع حديثنا اليوم هذا القمر ؟

ـ انه حديث البشرية الواعية يا صاحبي . انها قوة الانسان . هذه القصبة التي لا قوة لها ، ولكنها عاقلة فقط ـ كما قال « باسكال » ـ . وقصة الصاروخ الذي نزل في القمر قصة سيكون لها ما بعدها كما يقول التعبير العربي القديم . انه سيكون لهذا الصاروخ من التأثير على حياة الأرض أكثر مما كان لاكتشاف النار والجاذبية والطباعة والبخار والذرة . انه عالم جديد اكتشفه الانسان لا في محيط الجراثيم أو النباتات أو المناجم والمناطق الجغرافية من منطقة الأرض . بل في محيط الكون وما فيه من عوالم مجهولة هائلة .

ـ انني لا أظنك على أية حال ستنقلب اليوم إلى عالم فلكي أو اختصاصي في ميادين الفضاء لتتخذ من هذا الموضوع حديث اليوم .

ـ كلا . لا تنزعج ، ولا ينخلع قلبك . انني أجهل من أن أستطيع تصور هذا العالم حتى ولو وجدت من يشرحه لي . فضلاً عن أن أطمح إلى شرحه لك أنت . ولكن يهمني أن أحدثك اليوم ـ منطلقاً من هذا الحادث الجلل ـ عما يعود إليه بسبب ويرتبط معه بخيط . انه حديث العقل . لا بل سيكون حديث الثقافة في هذا العصر الذي لا نريد أن نؤمن بمعجزاته .

ـ ولكن لماذا تخلط بين موضوع العقل وموضوع الثقافة ؟ هل هما شيء واحد ؟

ـ كلا . لا أزعم ذلك . ولكن العلاقة بين العقل والثقافة أصبحت اليوم أمتن مما كانت في أي عصر ، إذا فهمنا من العقل شيئاً آخر أوسع من كونه آلة للتفكير . ويعجبني في هذا الصدد تعريف للعقل أورده الأديب الفرنسي الكبير « بول فاليري » بهذه العبارة : العقل « هذا النشاط الشخصي الا انه عالمي في نفس الوقت . هو هذا النشاط الداخلي الا أنه خارجي في آن واحد . هو هذا الشيء الذي يعطي للحياة ولقوى الحياة نفسها ، وللكون ولكل الانفعالات التي يحدثها فينا الكون ـ يعطي كل ذلك قيمته ووظيفته وتطبيقه ، ويحدث تطوراً في حركته وعمله يختلف كل الاختلاف عن النشاط العادي الذي لا يتجاوز المحافظة على حياة الفرد » .

ومن هنا كما ترى تلتصق الثقافة بالفكر التصاقاً ، أو هما يتوالدان كالليل ينسلخ منه النهار .

ـ أرجوك . لا يغرنك تيه التعريفات « فتنسلخ » بدورك عن التزامك لي بالحديث عن آراء مفكرينا . وأرجوك أيضاً أن تبسطها بقدر الامكان .

ـ لا تخف . انني لست ناسياً أحمد أمين . وله هو أيضاً ما يقوله عن ثقافتنا وثقافة أوربا . بل ان آراءه لا تزيد إلا حيوية ونصاعة بمناسبة حديث القمر اليوم :

يقول العالم المصري الكبير : « لعل الفارق الكبير بين انتشار المدنية في أوربا وبين انتشارها في الشرق أن المخترعات الحديثة جاءت في أوربا نتيجة لحوادث

ذاتية حتمية . أما انتقالها إلى الشرق فكان نتيجة الاستعمار ، ولم يكن نتيجة لحياة اجتماعية خاصة انتجتها . فكان الأمر كشجرتين احداهما نمت وتضخمت بسبب غذائها الداخلي ، والأخرى تضخمت بسبب لصق أوراق وفروع عليها من الخارج . وشتان بين الوضعين ... وربما ظهر ذلك في البيت الشرقي : فتجد فيه أشياء قد تكون آخر اختراع غربي على حين انك تجد إلى جانبه شيئاً شرقياً من بقايا القرون الوسطى . فراديو و « فريجيدير » بجانب حصير وعباءة صوف من صنع اليد . أو جلباب حرير على آخر طراز من صنع أحدث الآلات الأوربية بجانب بلغة في الرجل وهكذا . وهذا يعطينا صورة من صور الاضطراب وعدم الانسجام في حياتنا . ومن أجل هذا تولد الشعور بالنقص عندنا والشعور بالتسامي عند الأوربيين . ومن أجل هذا أيضاً عم التقليد في الشرق وكاد ينعدم الابتكار عندنا ، بينما ازدهر الابتكار عند الأوربيين . فيكاد الشرق ينقسم إلى قسمين : قسم يقلد الآباء الأولين ومدنية العصور الوسطى في العلم والأدب ونوع التأليف ونحو ذلك . وقسم آخر حديث يتساءل دائماً إذا عرض أمر : ماذا تفعل فيه أوربا ؟ فاذا عهد إليهم وضع دستور لبلادهم تساءلوا ماذا فعلت فرنسا وبريطانيا وبلجيكا . وربما أخذوا من كل دستور مادة . وإذا أراد الأديب انشاء قصيدة قلد عناوين القصائد الأوربية . وكل هذا تقليد لا ابتكار فيه . وكل ما في الأمر أن قوماً يقلدون أجدادهم القدماء ، وقوماً يقلدون الأوربيين المحدثين ، فنحن اما عالة على هؤلاء أو أولئك . ولذلك فنحن أشد ما نكون احتياجاً إلى قادة يغرسون في نفوسنا حب الابتكار ، ويعلموننا ألا نأخذ شيئاً إلا بعد تمحيص وامتحان ، ويعلموننا كيف نسائل أنفسنا دائماً : هل هذا حق أو غيره أحق منه . لقد سمعت أن احدى الدول العربية التي استقلت حديثاً جاء في دستورها أن كل منطقة من مناطقها تستقل بالتشريع في شؤونها إلا في مسائل احداها ما يتعلق بصنع القنابل الذرية . لقد نقلت هذه الدولة العربية مواد الدستور الأمريكي حيث تصنع القنابل الذرية ولم تنتبه إلى اختلاف حالها عن حال أمريكا . وسمعت إماماً في قرية صغيرة من قرى مصر يدعو الناس إلى تجنب التصييف في باريس . لأن الخطيب حصل على ديوان خطب ألفه رجل في القاهرة فقلده تقليداً أعمى » .

ـ شيء جميل . ولكن ...

ـ أي جميل ؟ هل ترى هذا الوضع عندنا جميلاً ؟

ـ لا . أقصد تحليل أحمد أمين له ، ولكن ما رأيه في سبب هذا الوضع الغريب . أم أنه يحلل الظاهرة فقط ولا يتعرض لأسبابها ولا يتطرق لعلاجها ؟

ـ الواقع أن الرجل هنا لا نجد عنده الماماً شاملاً لذكر كل الأسباب وطرق العلاج . فهو يشير إشارات مختصرة ولكنها صادقة الحس سليمة التفكير والمنطق . انه يعتقد ـ وهو على حق ـ أن هذا الاختلاف بيننا وبين الأوربيين ليس مرده إلى اختلاف في الطباع أو في الاستعداد الفطري . بل يذكر مثلاً على ذلك أن الطالب العربي عندما يدرس في جامعات أوربا لا يقل عن زميله الأوربي فطانة واجتهاداً ونجاحاً . إلا أن الطالب الأوربي ينصرف بعد ذلك للعمل في وسط يساعده على تنمية ثقافته ويلائم الجو الاجتماعي فتزدهر وتثمر ، والطالب العربي يعود بثقافته تلك إلى أرض غريبة عنها فيحاول غرسها ولكنها سرعان ما تنكمش ويعروها الذبول ، وحتى إذا لم تمت فانها لا تجد في التربة الاجتماعية ما يساعدها على الاثمار والنمو فتبقى شجرة قزمة « تعيش » بين الحياة والموت .

ـ وإذن فما الرأي عندك أنت ؟

ـ الرأي عندي يتلخص في نقطتين : احداهما أن نجند كل ما في وسعنا من وسائل التثقيف العام حتى تتغير تربتنا الاجتماعية وتصبح صالحة لنمو الشجرة التي ينقلها طلابنا ومثقفونا من العالم المتمدن إلى أرضنا الاجتماعية المتخلفة . والنقطة الثانية مرتبطة بالأولى ، وهي أن تنقصوا ـ أنتم معشر الخائفين علينا ـ من هوسكم وخوفكم على شخصيتنا من أن تذوب وتضمحل إذا تغيرت حتى تلائم منطق الثقافة والعقل الذي تمليه الحياة في العصر الحديث ، وأن تعتقدوا أننا كلما غيرنا من واقع حياتنا ، وكلما تسرب إلينا الفساد من جراء هذا التغيير ـ لأنه لا بد منه لكل حركة ـ فانه سيبقى أقل شراً مما نحن فيه . ان التاريخ لم يسجل أبداً حضارة بشرية كلها فضائل ولا تنطوي على أي شر ، بما في ذلك حضارة العرب نفسها . وحضارة العصر الحديث فيها كثير من الشر أيضاً ، ولكنه ـ كما قال

علي بن أبي طالب في المرأة ـ شر لا بد منه .

وأعود بك ـ في الختام ـ للفكرة الأساسية في رأي أحمد أمين . وهي اننا جميعاً نعيش بالتقليد محرومين من نعمة الابتكار ولذته وفائدته : قوم منا يقلدون القدماء ، وقوم يقلدون المحدثين . يا لها من كارثة نعيشها ولا نشعر بها .

ورأيي هنا هو أننا إذا كنا بين شرين وكان لا بد لنا أن نتخلص من أحدهما : شر تقليد القدماء وشر تقليد المحدثين فاني أفضل شر المحدثين على شر القدماء . لا لأني أحمل عاطفة خاصة نحو هؤلاء أو أولئك . بل لأني أعتقد أن ذلك هو الذي سيتم شئنا أو كرهنا .

ـ ولكن أليس الأفضل أن نجد طريقاً وسطاً يقينا الشرين ؟
ـ بلى . قد يوجد ، ولكني أخشى أن يكون طريقاً نظرياً أكثر منه عملياً .

دعوة بلا رسالة

ـ أما اليوم فقد قررت أن أترك لك الكلمة ، ولكني أرغب فقط في أن أقترح عليك الموضوع .

ـ هذا شيء لا يسرني ولا يحزنني . ولكن أود أن أعرف لماذا هذا القرار الهام ؟

ـ لأن الموضوع أقرب إلى مشربك وشواغلك واتجاهك . انه موضوع ديني وأنا كما تعترف بنفسك رجل لا تثق بأفكاري الدينية ولا تقنعك آرائي فيه .

ـ ولكن ما هو الموضوع بالضبط ؟

ـ هو هذا الذي يتحدث عنه الناس في طبقاتنا العليا ويسمونه بمشروع الوحدة الاسلامية أو الحلف الاسلامي ، أو شيء من هذا القبيل .

ـ ولكني أعتقد أن هذا الموضوع سياسي أكثر منه ديني . فماذا تريد مني أن أقول لك فيه ، وأنا رجل كما تعرف لا أفقه شيئاً كثيراً في السياسة .

ـ طيب سأسير معك على طريقة سقراط : أسألك فقط وتجيبني .

ـ ولكن على شرط ألا تظن أنك سقراط بالفعل !

ـ أقبل الشرط ولو مؤقتاً ! يقال ان رؤساء بعض الدول الاسلامية أو العربية تقوم هذه الأيام بمساع لاقامة وحدة أو على الأقل حلف بين الدول الاسلامية .

ـ ألم أقل لك انه موضوع سياسي وليس دينياً ؟

ـ وكيف أدركت ذلك بسرعة ؟

ـ لأنك تقول ، ان الذين يقومون بهذه المساعي هم من رؤساء الدول الاسلامية وليسوا من علماء الدين الاسلامي .

ـ وما الفرق بين هؤلاء وأولئك ؟ أليس ديننا « دينياً » ودنيوياً في آن واحد ، ومن ثم أفلا يحق لرجل دولة اسلامية أن يكون في نفس الوقت رجل دين ؟

ـ أفهم هذا في تاريخنا القديم . ولكني لا أفهمه في تاريخنا الحديث .

ـ لماذا ؟

ـ لأن رجل الدولة الاسلامية في تاريخنا القديم كان يحكم بالدستور الاسلامي .

ـ هذا حسن . فهل تتفضل بالتفصيل ؟

ـان هناك شرطاً في نظري لا بد منه لرجل الدولة الاسلامية لكي يدعي التكلم باسم الاسلام سواء في الميدان الديني أو السياسي : هذا الشرط هو أن يكون هذا الرجل مسلماً في نظم بلاده وفي سيرته الشخصية ازاء هذه النظم وازاء شعبه .

ـ وأنت إذن لا تؤمن أنه يوجد اليوم رؤساء دول اسلامية يتوفر فيهم هذا الشرط ؟

ـ حسبما أعلم لا يوجد رجل واحد يستطيع هذا الادعاء .

ـ انك اليوم تبدو ثورياً أكثر من اللازم . ألا تعترف بأن بعض البلاد الاسلامية تقطع يد السارق إذا سرق ، وهو ما أمر به الاسلام ؟

ـ ولكن هذا الحكم لا يطبق هناك إلا على من يسرق دجاجة أو محفظة نقود ،

وهو لا ينفذ في الأمراء الذين يسرقون أموال الخزينة بالملايين وينفقونها في نيس أو نيويورك .

ـ إذن هذا يسلبهم حق التكلم باسم الإسلام نظرياً ؟

ـ لا يسلبهم حق التكلم باسم الاسلام نظرياً فلهم أن يدعوا ما شاءوا . ولكن المسلمين في أنحاء العالم الاسلامي لا تؤثر فيهم دعوة دينية تأتي من أناس تتناقض سيرتهم مع كل تعاليم الاسلام . وبهذا الصدد لا يفوتني أن أصارحك بأنني أشعر بشيء كثير من الأسف كلما قارنت السمو الذي بلغته تعاليم ديننا وبين السيرة العملية التي ينتهجها الرؤساء المسلمون . انني لا أعرف في تاريخ الشعوب تناقضاً في هذا الصدد بلغ ما بلغه المسلمون ، وخاصة قادتهم ورؤساءهم . ولا أعتقد أن العرب غير مستعدين لهذا الحد لاتباع التعاليم السامية . ولكني أعتقد أن تاريخ الإسلام مشحون بسموم الحركات السرية الأجنبية التي خربت « نفسية » الرؤساء المسلمين بقدر ما عجزت عن قهر « سيوفهم » . ولا أخال هذه الدعوة التي تسألني عنها اليوم إلا حلقة من هذه السلسلة .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ ان كل الظروف الموضوعية ـ كما تسمونها ـ تشير إلى ذلك وتؤكده .

ـ مثلاً ؟

ـ مثلاً نحن اليوم لا نعيش في عصر الأحلاف الدينية . بل في عصر الأحلاف السياسية أو الاقتصادية .

وعندما كان عصر الأحلاف الدينية قائماً في العالم بالفعل لم تقم عندنا نحن هذه الأحلاف منذ الحروب الصليبية إلى عصر احتلال الجزائر وشمال افريقيا ومصر . وأنت تعرف أن الأمير عبد القادر حاول بكل جهده أن يثير في العالم الاسلامي ـ مشرقاً ومغرباً ـ شيئاً من العاطفة الدينية لمدافعة الغزو الصليبي السياسي على وطنه الذي هو جزء من العالم الاسلامي فلم يتحرك منهم أحد إلا بعض الملوك

الذين « شجعوه » بالدعاء الصالح ! فأين رؤساؤنا المسلمون في ذلك العصر عندما كان الدين هو الذي يحرك الشعوب الأوربية ويدفعها إلى غزو بلاد المسلمين حتى لم يبق بلد يخفق فيه الهلال إلا وحل محله الصليب ؟

ـ إذن فأنت تعتقد أن الاسلام دين حرب وان من لم يهب باسمه للكفاح لا حق له في أن يستعمله في شيء آخر ؟

ـ أرجوك . لا تحرف أفكاري . الاسلام دين حرب ودين سلم . وقوانين السلم والحرب معروفة في القوانين الدولية . إن الإسلام لا يخلط بينهما بل ميز بينهما بكل وضوح . إن رؤساء المسلمين هم الذين خلطوا بين الكفاح وبين السلم . كما خلطوا بين الظلم والكفاح من ناحية ، وبين السلام والاستسلام من ناحية أخرى . ولذلك أود بدوري أن أسألك ما هي رسالة هذه الدعوة الجديدة ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد إلى ماذا يدعوننا إليه بالضبط أصحاب هذا الحلف الاسلامي ؟ ؟

ـ انهم يدعوننا حسبما يبدو إلى أن يتكتل رؤساء الدول الاسلامية من المغرب إلى أندونيسية في حلف مشترك .

ـ ليفعلوا ماذا بهذا التكتل ؟

ـ هذا ما لا أعرفه بعد .

ـ ان هذه الدعوة يكون لها ما يبررها إذا كانت لها رسالة تؤديها .

ـ مثلاً ؟

ـ لو أن أصحاب هذه الدعوة قالوا لنا مثلاً : ينبغي أن نوحد صفوف العالم الاسلامي لنرفع عنه المظالم التي يعانيها من الاستعمار سياسياً وعسكرياً واقتصادياً . أو قالوا نوحد العالم الاسلامي لنقضي على ما في مجتمعه من تناقضات بين الفقر والغنى ، والجهل والتعلم ، وعلى التفاوت بين « الشريف » و « الوضيع » . أو

قالوا نوحده لنواجه التكتلات الدولية المعتدية وندفع المؤامرات التي تحاك له في عواصم الدول الاستعمارية . ونكون منه قوة دولية يرهب جانبها وتسمع كلمتها وتحقق التوازن بين مختلف الاتجاهات الدولية وتخفف من وطأة التمزق الذي يعانيه العالم وتتخبط فيه الشعوب .

إن هذا ما أعنيه بكلمة رسالة . وانني لا أعتقد أن دعوة تنجح بدون رسالة ، مهما كانت سمعة الداعي لها ، ومهما كانت قيمته . ومن يشك في هذه الحقيقة فليلتفت إلى التاريخ : الاسلام نفسه لم تنجح دعوته إلا برسالة فيها مبادئ ونظم وأهداف . وقلما قامت دولة كبرى في الاسلام إلا كانت وراءها رسالة ، وأمامها هدف وفي أحشائها محرك أي مبدأ .

ـ ولكن ما رأيك في دعوة من هذا النوع إذا كانت لها الرسالة التي تطلبها ، ولكن الدعوة والرسالة معاً « مصنوعة » في معامل أجنبية ونستوردها نحن استيراداً ، وقد لا نكون في حاجة إليها ، وانما هي من باب البذخ . أو ربما يلزمنا أصحابها أن نلبسها في بلادنا « لتتمشى » مصانعهم السياسية ؟

ـ إذا كان الأمر كذلك فينبغي أن ننظر إلى الموضوع نظرة أخرى ونسميه بعنوان آخر . انه يكون عندئذ متاجرة والمتاجرة بالمبادئ كنت أظن أننا تجاوزناها . وخاصة عندما تكون هذه المبادئ ذات طابع مقدس كلفظة الاسلام . أو تستعمل في غرض خلقت لعكسه .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني أن الاسلام جاء ليحرك البشر إلى التقدم الفكري والتحرر السياسي والعدالة الاقتصادية والعزة الإنسانية . فاذا أردنا أن نستعمل هذا « المحرك » ليؤدي وظيفة « المعطل » فان الإسلام مهما مضت عليه من عهود ما يزال محتفظاً إلى الآن بقوة لم تمس وهي أنه يأبى أن يكون أداة تعمل ـ أو تستعمل ـ في غير وظيفتها أو ـ على الأخص ـ تعاكس وظيفتها . نعم . لقد مرت به عهود طويلة « تعطل »

فيها أبناؤه عن أداء وظيفته التقدمية المحركة . ولكنه كان في هذه العهود « متعطلاً » لا محركاً إلى الوراء ومرت عصور طويلة تسمم فيها الرؤساء المسلمون بفعل الانحرافات التي أتتهم من الخارج ، ولكن أغلب المسلمين بقوا على فطرتهم البريئة ولم تستطع تلك الانحرافات أن تنال شيئاً كبيراً إلا من الرؤساء المسلمين وبعض الطرق الصوفية .

ـ وبعد هل هذه هي كلمتك الأخيرة في الموضوع ؟

ـ كلا . كلمتي الأخيرة هي أن محمداً عليه السلام عرضت عليه مملكة من قومه وكل ما يملكون ، فرفضها لأنها مملكة بدون رسالة . والذي كان يهمه هو الرسالة لا المملكة . أما ملوك المسلمين اليوم فانهم يقبلون أي مملكة حتى ولو تبرع عليهم بها قوم من غير قومهم ، كل ما يطلبونه أن لا يتحملوا مسؤولية رسالة . انهم سرعان ما يتطوعون لأية دعوة مهما كان مصدرها بشرط واحد ، هو أن لا تحملهم رسالة . تلك الرسالة التي رفض جدهم محمد في سبيلها الشمس في يمينه والقمر في يساره !

الشجرة المحرمة

ـ أنا اليوم أريد أن أبشرك بخبر أعتقد أنه يسرك ، ولكني أحب أن أقبض الثمن في نفس الوقت .

ـ تفضل يا سيدي . أرجو فقط أن لا يتجاوز الثمن قيمة البضاعة.

ـ الخبر هو أنني بدأت « أفكر » في أحاديثك . أعني أحاول أن أخرج منها بنتيجة .

ـ هذا خبر يسرني فعلاً . والثمن ؟

ـ الثمن مترتب على هذا الخبر ذاته . وهو أن النتيجة التي خرجت بها من تفكيري هي أن كل مشاكلنا وعيوبنا التي تفضحها بدون شفقة مردها إلى مشكلة الثقافة . أعني الثقافة بأوسع معانيها : المدارس والكتب والصحف والمحاضرات ، والعادات والتقاليد ومفاهيمنا للسياسة والاقتصاد والأخلاق ومشاكل التربية وتناقضات الأجيال وتنازع الأفكار . بحيث لو استقرت أقدامنا على مفهوم مسطر ثابت للثقافة وعملنا على تدعيمه في مختلف أوساط شعبنا وركزنا هذه

الثقافة على هدف معين نبلغه في كذا من السنين ، لتوصلنا إلى اكتشاف المفتاح الذي نحل به كل هذه المشاكل التي انغلقنا داخلها ورحنا ندور ـ كالعميان ـ حول أنفسنا في ظلام حالك يرمي فيه بعضنا بعضاً بحجارة من الفحم الأسود . أعني أن حرماننا من نور الثقافة من الداخل والخارج هو الذي جعلنا في هذا الوضع الغريب . فما رأيك في هذه النتيجة التي خرجت بها بعد طول التفكير ؟

ـ اني لا أتمالك عن الشعور بموجة هائلة من الانشراح تغمرني من هذا « الفتح » الذي تجابهني به اليوم . وكل ثمن تطلبه مني لا يعد شيئاً .

ـ الثمن إذن هو أن نعود من جديد إلى الحديث عن مشكل الثقافة . ولكن كما قلت لك ينبغي أن نتحدث عن مفهوم الثقافة بأوسع معانيها وليس بمعناها الاصطلاحي وحده .

ـ ولكن ينبغي أن نبقى دائماً على طريقتنا . أعني طريقة المقارنة التي سرنا عليها حتى الآن في كل أحاديثنا بيننا وبين العالم المتمدن .

وسنتكلم اليوم عن تأثير الأدب في حياتنا . وأدبنا كما تعرف كان مشحوناً بالمدح والهجاء .

ـ ولكن أية قيمة لهذه الملاحظة اليوم بعد أن انقرض المديح من الأدب العربي ؟

ـ لا . أولاً لم ينقرض المديح كما تزعم بل ما تزال كثير من أوطان العرب تجعل من شعر المديح عنصراً أساسياً في أدبها تحت ستار ادعاء كاذب هو تخليد البطولات التي قام بها هذا الزعيم أو ذاك الملك . وثانياً حتى ولو انقرض المديح نفسه فان نتائجه لم تنقرض بعد من نفسية المجتمع العربي . اننا ما زلنا نلجأ إلى المديح والتزلف في أحاديثنا مع المسؤولين عن مصائر شعوبنا بدل أن نفاتحهم بأخطائهم وأنانيتهم وتناقضاتهم الأخلاقية . وأؤكد لك أن هذه النفسية فينا ليست إلا أثراً من آثار فن المديح في أدبنا القديم والكثير من أدبنا الحديث أيضاً . وأذكر أنني بقيت مدة سنوات أدرس الأدب العربي لطلاب من الثانوية فلا أختار لهم

شيئاً من نصوص المدح . حتى سألني يوماً أحد الطلاب عن هذا السر . فأجبته بأن رأيي في هذه القناطير المقنطرة من شعر المدح هو أن نجمعها يوماً في جبل كبير يضم ما طبع منها وما لا يزال مخطوطاً ونشعل فيها النار ، ونتخلص من هذه التركة المخجلة ولا نعود إلى الحديث عنها أبداً لأجيالنا الناشئة حتى ولو اشتملت على كثير من الكنوز الفنية والبلاغية التي لا تعد شيئاً إذا قيست بالمضار الأخلاقية والاجتماعية التي تركتها في نفوسنا هذه الرواسب من حيث نشعر ومن حيث لا نشعر .

ـ وإذن ماذا يبقى من الأدب العربي ؟

ـ انك بهذا السؤال نفسه تعترف بأن أدبنا العربي عبارة عن « ملحمة » ضخمة من المديح . حتى اننا إذا تخلصنا منه لم يبق شيء . ولكن اطمئن يا صاحبي :

إن الأدب العربي يشتمل على كنوز أخرى لم نتفطن حتى الآن لقيمتها لأننا لا نزنها بميزان الأدب الشريف بل بميزان النفوس المتخاذلة . ان من أروع الأدب أن نهتم بآيات معينة من القرآن . وبخطب علي بن أبي طالب وأفكار عمر بن الخطاب ومحاورات أبي حيان التوحيدي وحكم الأعراب الفطرية الساحرة وأدب الجاحظ وسخريته وأدب ابن المقفع وشعر الخوارج النضالي العجيب وحتى أشعار أبي نواس في الخمر أو غزل ابن أبي ربيعة ، أو زهديات أبي العتاهية أو حتى الشعر الصوفي ـ أفضلها جميعاً على المدح البغيض . وهذا فضلاً عن بقية الأغراض الشعرية ـ غير المديح ـ التي تجدها عند كل الشعراء في غير عصور الانحطاط .

ـ ولكن من الذي سيقدم على هذه العملية الجراحية المؤلمة ؟

ـ انني لا أعرف ماذا تصنع اللجنة الثقافية في الجامعة العربية على وجه التحديد . ولكني أعتقد أنه لو وجد على رأسها مثقفون ثوريون لا يخشون الألم بل يخشون المرض ـ لكانوا أول من ينادي بهذه العملية الجراحية كما سميتها .

ـ وإذا لم تجد في اللجنة الثقافية للجامعة العربية ما ترغب فيه ؟

ـ يبقى علينا نحن المثقفين الأحرار الذين نعيش في بلاد عربية ثورية لا تقدس القديم المريض بل تحترم الصالح النافع قبل كل شيء ـ أن ندعو إلى هذه العملية ونحققها في أوطاننا التي لا نعاني فيها ما يعاني زملاؤنا في أوطان أخرى من أجواء خانقة

وهنا أحب أن أضيف إليك ملاحظة من أحمد أمين تلتصق بالموضوع ، وهي قوله في مجال المقارنة دائماً ، وقد استمد هو بدوره هذه الملاحظة من الناقد الفرنسي « تين » يقول فيها :

« إن العرب خاصة والشرقيين عامة أميل إلى النظر في الماضي . والأوربيون على وجه العموم أميل إلى النظر في الحاضر والمستقبل . »

ثم يضيف أحمد أمين هذه الملاحظة الثانية من عنده وهي : « أن الثقافة في الشرق متأثرة بالتعاليم الدينية في حين أنها في الغرب متأثرة بالعلم غالباً .

والثقافة الشرقية متأثرة بميل الشرقيين إلى التقليد على حين أنها في الغرب أميل إلى الابتكار . فلا بأس عند الغربيين أن يغيروا منهج التربية إذا أظهر البحث فساده ويضعوا منهجاً جديداً ، ولذلك اعتاد الغربيون تربية أولادهم حسبما تثبته نظريات التربية الحديثة .

أما التربية في الشرق فتكاد تكون تربية موروثة قل أن يدخلها تغيير » .

نعم ان أحمد أمين هنا لا يشير بعلاج ولا يعطي رأيه صراحة في أي الطريقتين أفضل . ولكن السياق الذي يأتي به في عرض هذه المقارنة يضاف إليه ما عرف عنه من روح تقدمية وبى بساطة أكاد أقول شعبية تجعلنا نستشف من هذه المقارنة أي الطريقتين أفضل . فكأنه يقول لنا ان النهار تطلع فيه الشمس ويتحرك فيه الأحياء للسعي والعمل والنضال اليومي.والليل تسكن فيه كل حركة ويغمر الكون

فيه النعاس . أو يقول لنا ان الشجرة الحية تنبت الزهر الجميل والثمرة النافعة والشجرة الميتة تبعث فينا الشعور بالانقباض واليأس والألم .

ـ انني لا أعتقد أنك سترى من الصالح اقتلاع الشجرة التي تسميها ميتة لنغرس مكانها شجرة فتية حية بحجة أن الشجرة القديمة أصبحت لا تثمر شيئاً .

ـ لا . لا أرى ذلك . بل أذهب إلى أبعد منه بقليل : هذه الشجرة ما زالت تثمر . ولكن ثمرتها أصبحت محرمة . لأنها تورث الأمراض الخلقية وتقضي جرثومتها القاتلة على جرثومة الحياة الناشئة في نفوسنا . وأذكرك بأن عمر أقدم على قطع شجرة البيعة ، فاستعظم المسلمون ذلك منه .

ولكن أليست هذه هي النفوس الثورية التي يجب أن نقتدي بها ؟ !

الثقافة والسياسة

ـ ما تقول في هـذا الرأي الذي يبديه أحمد أمين في صلـة الثقافة بالسياسة : « لقد استعان الغربيون على الاستعمار بفئة الرجعيين ، لأنهم في نظرهم يؤمنون بفكرة القديم على قدمه ، ويودون ابقاء ما كان من غير أن يحركوا ساكناً وهذا من غير شك يخمد النفوس ، ويبعدها عن الثورة ويمكن الاستعمار في تغلغله » ؟

ـ إذا كنت تسألني عما أقوله أنا في هذا الرأي فانه يبدو لي ماشياً على رجل واحدة أو ينظر إلى نصف الحقيقة دون نصفها الآخر .

ـ ماذا ؟ هل بدأت فعلاً تطير بجناحيك وحدك ، وتتطلع إلى استكمال ما بقي في نظري ناقصاً عند أحمد أمين ؟

ـ نعم . إذا سمحت لي أنت وأحمد أمين بهذه الجرأة : ان الاستعمار يعتمد على كل شيء يصلح لقضاء مأربه ، وحتى الأرض الذي لا تصلح لارضاء حاجته يحاول كيف يصيرها صالحة لذلك . فهو يعتمد على فئة الرجعيين لأنهم يؤمنون بابقاء القديم على قدمه ، ولأن الخبز اليومي عند هذه الفئة متوقف على بقاء القديم دون تغيير ، ولأن هذا القديم إذا تغير تغيرت معه ظروف الحياة وتعقدت فلا

يستطيع مجاراتها ولا اللحاق بها أولئك الرجعيون . وهنا تلتقي مصلحتهم بمصلحة الاستعمار الذي لا يستطيع أن يستغل طاقاتنا البشرية وخيرات أرضنا الطبيعية الا ببقائنا عاجزين عن القيام مقامه في استغلال هذه الطاقات والخيرات لفائدتنا الخاصة . فليس هناك اذن أي عجب في أن يستغل الاستعمار الفئة الرجعية دون أن تستطيع الفئة الرجعية استغلال الاستعمار في مقابل ذلك إلا على حساب الشعب ، والضحية الوحيدة في هذا الاستغلال المزدوج هو الشعب .

ولكن هذا كما قلت لك جانب واحد من الحقيقة في نظري : أما الجانب الآخر منها فهو يتمثل في استغلال الاستعمار لفئة أخرى من المثقفين وهي فئة المحدثين أو المجددين دون قيد ولا شرط ، ودون مراعاة لظروفنا الخاصة وتركتنا الثقافية المثقلة التي لا تستطيع ـ كما تتصور أنت ـ أن نحرقها في جبل من الكتب المتهرئة . أو نقصها كما فعل عمـــر بن الخطاب في شجرة البيعة . هذه الفئة لا أقول ان الاستعمار « يستخدمها » كما يستخدم فئة الرجعيين . ولكني أعتقد أنها بوعي أو بدون وعي تسير في الطريق الذي يوده الاستعمار أو بعبارة أدق في الطريق الذي هيأه لها الاستعمار وعبده وحسنه فلم تعد تشعر فيه بتعب المسير. وكما استلذت الفئة الرجعية الجلوس على الأرض في مكان واحد ، استلذت فئة المجددين السير في هذا الطريق ولو كانت وجهته غير الوجهة التي يجد فيها الشعب نفسه وشخصيته ويستطيع أن يستخدم فيها مواهبه وعبقريته الخاصة ، ويبعث فيها تاريخه ويجدد فجره ويربط يومه بأمسه فيكون حاضره استمراراً للشخصية التي كان عليها في ماضيه ، والتي تصلح أن تكون أساساً لمستقبله . وأنا لست أدري هل هم يشعرون أو لا يشعرون بأن تجديد حاضرنا دون ربطه بأمسنا هو بتر لديمومتنا ـ كما تقولون في لغة الفلسفة ـ وتجزئة لخيوط تاريخنا التي يجب أن تكون مستمرة كما هي عند الأوربيين أنفسهم .

فأنا مثلاً أتصور أن هذا التجديد الذي يدعوننا إليه بدون قيد ولا شرط وبدون مراعاة لظروفنا وأمسنا وحاضرنا لا بد أن ينتج عنه اختلال في أعصابنا

نفسها . فكأننا شخص كان بالأمس اسمه عليا فأصبح اليوم يسمى خالداً ، ونام في الليلة البارحة وهو طويل القامة وطلع النهار فوجد نفسه قزماً قصيراً ، ونام أسود العينين ، ولكن عندما نظر إلى وجهه في المرآة صباحاً وجدهما أصبحتا زرقاوين إلى آخره . فأي عجب في أن تعتري هذا الشخص هزة عصبية واختلال في نظرته إلى الحياة والاحياء . وخبال في حكمه على القيم : فلا يعترف بشيء مما مضى ولا يعرف شيئاً مما أقبل عليه . وفي كل هذا أيضاً منفعة للاستعمار لا تقل عن منفعته في سيطرة الرجعية على العقول وعجز الأيدي والأبصار .

ـ وإذا طلبت منك أن تقارن بين هذين الشرين وعن الحلو في هذين المرين فماذا عساك تقول ؟

- الواقع أنني هنا أتوقف ولا أكاد أستبين أيهما أقل سواداً من الآخر . اللهم الا اذا استطعت أن تفاضل بين أن تكون جامداً أو مائعاً وبين مرض السل والشلل . أو الصحراء الرملية والأرض القطبية الجليدية ، وبين أن تموت غريقاً أو محترقاً . كل هذه لا أستطيع أن أفاضل بينها وانما أدفعها جميعاً بكل ما أوتيت عندي الغريزة من مدافعة الأذى والتشبث بالحياة .

- انك نسيت أن تضرب لي مثلاً على ذلك كما هي عادتك وكما تطلب مني أنا أن أفعل معك .

- ضع أمامك شيخاً يكفرك لأنك استبدلت مطرقة حديدية مكان مطرقة خشبية في أعمالك . واستراب في أمر دينك لأنك طلبت أن تعرف معنى جديداً أو مقنعاً في تفسير آية من القرآن لا كما يفهمها هو أو يفسرها ، أو لأن ابنتك ترتدي لباساً لا يصل الكعبة من ساقها ، أو لأنه رأى في يد طفلك الصغير كتاباً مصوراً بلغة أجنبية .

والى جانب هذا « الشيخ » تصور مثقفاً من خريجي جامعة اميريكية أو ممن قضوا فترة تدريب في تعلم الموسيقى الأوربية يحتقر أباه لأنه لا يتذوق سنفونية

بتهوفن . ولا يصافح الراعي في جنوب الصحراء لأنه لا يستحم كل يوم بالصابون المعطر . أو تقول له لماذا تتحدث مع أطفالك باللغة الأجنبية في المنزل فيجيبك بأنه يفعل ذلك ليدربهم على استعمال لغة العلم والتقدم . وبأن لغته القومية لا تصلح الا للصلاة أو خطب الوعظ في شهر رمضان .

ان هذين الطرازين من الناس يبدوان لي شر ما أرى في الحياة .

- ومع ذلك فان هذين الرجلين هما اللذان امتلأت بهما شوارع المدينة في مجتمعك . وهما اللذان تتكون منهما أمتك .

لقد أعرضنا فعلاً . في عهد الاحتلال ، عن الأخذ بثقافة الغرب في تقاليدها وقيمها ومقاييسها . وحتى في لغتها وعلومها الا ما كان منها ظاهر الفائدة لا جدال في منفعته . وتمسكنا بكل ما في تقاليدنا من مميزات خاصة ولو كانت سخيفة . لأنها كانت في جملتها جزءاً من حصانتنا ومن غريزة الدفاع عن الذات حتى لا يبتلعنا العدو . ولكن ما كاد خطر هذا الابتلاع ينتهي ويزول بخروج الغاصب من ديارنا حتى أطلقنا العنان لاشباع شهوة التقليد التي كثيراً ما لجمناها في عهده . واصبحنا لا نميز بين ما فيها من ضار ونافع ، بل سارعنا الى لباس كل سخيف في حضارته بقدر ما كنا في عهد تحكمه فينا نضيق على أنفسنا فلا نأخذ منه الا ما يصلح لنا سلاحا لمقاومته . اننا اليوم متفرنسون بقدر ما كنا في العهد الفرنسي جزائريين . وكما قلت لك يوماً بأن رجال الدين عندنا أصبحوا اليوم محافظين بقدر ما كانوا في العهد الفرنسي ثوريين . كذلك طبقة المثقفين المجددين أصبحوا اليوم فرنسين بقدر ما كانوا في العهد الفرنسي وطنيين . فأي تفسير نستطيع أن نجده لهذه الظاهرة العجيبة ؟

- أما أنا فليس لي أي عجب في الأمر ، وأراه طبيعياً لا يحتاج الى اجهاد فكر . اننا كنا نأخذ عن الفرنسيين ما نقاومهم به لأن وجودهم كان يمنعنا من أن نكون مثلهم باختيارنا وارادتنا وحريتنا . أما اليوم فقد أصبحنا نستطيع أن نكون مثلهم دون أن يسوقونا الى ذلك بأنفسهم . هذه واحدة ، أما الثانية فاننا اليوم لا

نريد أن نكون فرنسيين ، بل نريد أن نكون متحضرين ، مثل الفرنسيين والانجليز والروس . اننا اليوم لا نتشبه بأمة بعينها ، بل بطائفة من الأمم راقية . كما لا نريد أن ننسلخ عن جزائريتنا بل نريد أن ننسلخ من كل مظاهر التأخر التي نلتقي فيها مع كل الشعوب الأخرى المتأخرة . فليست المسألة في نظري مسألة جنس يقلد جنساً أو حتى حضارة تذوب في حضارة أخرى . بل مسألة عصر ينجلي عنه عصر آخر ، وطريقة في الحياة تترك مكانها لطريقة جديدة . والاختلال في الأعصاب الذي تتحدث عنه لا يتأتى من انقلاب شخص الى شخص آخر بين عشية وضحاها ، بل من حدوث هذا التغير بدون ثقافة وفهم وادراك ، تماماً كما هو الأمر بالنسبة لامرأة أخذت الحياة العصرية عن طريق المدرسة ، وأخرى أخذتها عن طريق الشارع . فأنا لا أميز بين هذا الشيء الوطني أو القومي أو الجزائري وبين ذلك الشيء الفرنسي أو الانجليزي . بل أميز بين ما أتى عن طريق المعرفة والفهم الناضج ، وبين ما أخذ عن طريق الشهوة الصبيانية والسهولة المبتسرة والجهالة العمياء . ان الحضارة العصرية يا أخي حضارة علم ، وينبغي أن تدخل الينا من أبوابها الطبيعية وهي أبواب المعرفة والثقافة ، أما اذا تسربت الينا تسرباً كالمجرى الهوائي عن شقوق النافذة العتيقة المتهرئة فهناك الخطر .

الإيمان بالعقل

- هل تريد أن ننتقل اليوم إلى موضوع آخر ، وليكن الفلسفة ؟

- أما هذه فلا :

- لماذا ؟

- لأن الفلسفة شيء لا يفهم أولاً . ثم لأنها كفر في جملتها . ثم لأنها تحير العقل بدل أن تطمئنه . وأخيراً لأنه لا فائدة فيها عملية : كلها لغو وحشو وتلاعب بالالفاظ والأفكار . وأخذ ورد الى غير نتيجة .

- انك يا صديقي أوشكت أن تكون خطيراً حقاً . أقصد أنك أضبحت ذا قيمة مخيفة ولا بد لي في المستقبل من أن احتاط معك ولا التي لك الأفكار على عواهنها كما تقولون في اللغة القديمة. ولكن هذا لا يعني أن حكمك في الفلسفة صحيح . ان هذا يعني فقط أن لـك أفكاراً قد تكون محترمة . ولكنه يعني بالخصوص أنك لا تعرف شيئاً كثيراً عن الفلسفة . وأخيراً أنبئك بأنك لست

الأول ولن تكون الأخير ممن أصدر هذا الحكم على الفلسفة . أصدره من قبلك الغزالي وخطأه ابن رشد ، وجاء بعدهما ابن خلدون فتبنى رأي الغزالي وان كان لغرض آخر بعيد عن غرض الغزالي بقدر ما هو قريب من غرض الفلاسفة المحدثين في أوربا . والمعركة ما تزال الى اليوم قائمة وستستمر .

والنقطة التي تهمنا اليوم هي أن ما سنتحدث فيه نحن من مسائل الفلسفة ، لن يتناول الأعماق التي يجري حولها الخلاف . بل سيتناول مسائل متفقاً على صلاحيتها وفائدتها . وقد بحثها أعداء الفلسفة كما بحثها المتحمسون لها على السواء . ثم اننا سنحاول أن نبسط هذه المواضيع ونضبط حدودها ونجعلها مفهومة لك وللناس فلا تنفر منها ولا تقشعر . ان أكثر ما بغض الفلسفة للناس ليسوا هم الفلاسفة بل شراح الفلسفة أي أولئك الذين جاءوا ليبسطوها واذا هم يعقدونها بمصطلحات ما أنزل الله بها من سلطان وبتعابير سمجة لا يتذوقها الا ذو الصبر الطويل وهم الذين ملؤوها بما سميته اللغو والحشو والتلاعب بالألفاظ والأخذ والرد الى غير نتيجة . أما عن أنها كفر أو شبيهة بالكفر أو موحية به فهو رأى من مخلفات عصور الانحطاط بقيت في أذهاننا عندما أصبح الفقهاء المسلمون ورجال الكنيسة المسيحيون في القرون الوسطى رسل جهالة ودعاة ظلام . فألبوا رجال الدولة الجاهلين والجماهير الشعبية المتعصبة على الفلاسفة فنفوهم وسجنوهم واحرقوا كتبهم وعذبوهم من أجل أفكارهم وهم من خيرة الناس أخلاقاً وأكرمهم طباعاً . وأما عن فائدتها فاعلم يا صاحبي أن الفلسفة لا تحل مشاكل الحياة اليومية ، هذا صحيح . ولكنها تخلق الفكر الذي يحل مشاكل القرون والأجيال ويتمرس على صعاب الحياة وينظم المجتمع ويحدد العلاقات بين بني الوطن وبني الانسان في جملة الأوطان . الفلسفة يا صاحبي لا تحل المشاكل العاجلة ، ولكن الحضارة المتشبعة بها هي التي تخطو الخطوات السريعة في الرقي ، ومن المفيد أن نعلم أن أغنى بلاد بالفلاسفة هي المانيا فهل تستطيع أن تقول عنها أنها متخلفة في أي ميدان ؟ ! وهلا انتبهت الى أن أكثر الأمم تخلفاً في عصرنا الحاضر هي التي لا نسمع بوجود فيلسوف عندها ، وأن الأمة الواحدة اذا مرت بعصر حضارة في تاريخها

فان ذلك العصر يكون ـ حتماً ـ مليئاً بالفلاسفة ؟ وعليك بمراجعة تاريخنا وحده ! على أنني بعد كل هذا لن أرهقك ولن أتعبك ، وسأحاول أن أجعل منك صديقاً للفلسفة لا عدواً لها ، وأجعل من الفلسفة شيئاً ممتعاً ومفيداً لك لا تعب فيه ولا ألفاظ فارغة . وأخيراً سنحاول أنت وأنا ـ أن نستمد الأمثلة الفلسفية ومواضيعها من حياتنا نفسها حتى نتأكد أن الفلسفة ليست خيالاً بل هي واقع يعالجه الفكر ، وفكر يدخل إلى صميم الواقع . وبما أنك تثق باستاذنا الكبير المرحوم أحمد أمين ، الرجل الرصين المخلص ، الذي لن تجد عند غيره ما تجده عنده من سلامة في الفكر وصحة في الموقف وبساطة في القول وتقدمية في النزعة وثورية عاقلة في الاتجاه ـ فإنني سأستغل هذه الثقة فأعرض عليك أفكاره .

– انك تحاول اغرائي وتدللني كما لو كنت أمامك طفلاً مريضاً لا شهية له في الطعام : « كل هذه يا ولدي وسأذهب بك بعد الظهر الى حديقة الحيوان لترى العصافير الملونة والقردة الرشيقة والأشجار الغريبة ، وأشتري لك الحلوى فتمتصها وأنت تتفرج على الثعابين من وراء الزجاج وتستمع الى زئير الأسد وهو يطلب الطعام . » ولكن لا بأس سأذهب معك الى حديقة الفلسفة وسنرى ماذا ستقدم لنا فيها .

– لقد سبق لنا أن طرقنا أحياناً مشاكل فلسفية . ولكنك لم تكن تعلم أنها فلسفة . ومن بين ما طرقناه حديث عن نفسيتنا التي تعتمد في الحياة على الحظ والقدر . ولا تعتمد على الجهد والتعب والانتاج .

– اني أذكر فعلاً أنه مر بنا شيء من هذا القبيل .

– يقول أحمد أمين أن الرجل الشرقي « اذا خطا خطوة فأصابه خير أو شر نسبه الى القدر أو الحظ . وأن هذا سعيد وهذا شقي بالقدر ، وهذا غني وهذا فقير بالقدر . أما عقل الغربي فهو في ناحية أخرى : فالفرد يكون شقياً أو سعيداً لسبب من الأسباب : كالتربية أو الوسط أو النشاط والكسل ، والغربي اذا عجز عن

وجود السبب لا يقول ان ذلك قدر وحظ . بل يقول ان السبب غير معروف فلاجتهد في معرفته » .

– اذن هذا ضرب من الفلسفة أو موضوع من مواضيعها ؟

– هو ذاك . واستمع الى ارتباطه بالفلسفة . يقوله لك أحمد أمين : « وربما كان السبب في ذلك هو بناء الحياة في الشرق على مجموعة من الأوهام والخرافات وان لم يكن ذلك من الدين نفسه اذ جاء أصحاب المذاهب كالاشعري يقولون أن النار لا تحرق والماء لا يروي ولكن الله يوجد الاحراق عند وجود النار والري عند وجود الماء » .

اذن هذه الخرافات التي « نعمل » بها نحن اليوم كانت في أصلها أفكاراً فلسفية ؟

– تماماً . ولكني هنا أود أن أبرئ ساحة الأشعري من هذه المسؤولية : فالرجل في الواقع كان يؤمن بالعقل ويؤمن بالسبب ويربطه بالمسبب عندما كان معتزلياً . ثم تبين له أن طريق المعتزلة غير صحيح فأنضم الى أهل السنة ولكنه بقي محافظاً على الروح الفلسفية وعلى الايمان بالعقل . وانما تنصل مما بدا له تطرفاً عند المعتزلة في ايمانهم الذي لا حد له بالعقل . أما الذي قضى نهائياً على ايمان المسلمين بالعقل فهو الغزالي . وقامت بينه وبين ابن رشد ـ وكانا متعاصرين ـ معركة حامية في هذا الصدد . اذ كان ابن رشد شديد التأثر بالفلسفة اليونانية ولكن تشبع الفقهاء في بلادنا المغربية بأفكار الغزالي وبالتصوف . وتشددهم في المذهب السني جعلهم يؤلبون عليه الملوك والجماهير الجاهلة فسجن ونفي وأحرقت كتبه وانطفأ بانطفاء شعلته نور العقل في هذه الديار المغربية الى اليوم .

– اذن مسؤولية المجتمع في المغرب العربي كبيرة في القضاء على روح التفكير الفلسفي الصحيح ؟

– نعم . مسؤولية كبيرة في التاريخ . ولذلك ينبغي أن لا نسمح في المستقبل

لأحد بأن يضغط على أفكار الفلاسفة مهما كانت جريئة . أو يهين المفكرين من أجل أفكارهم . ان الأفكار في المجتمعات الراقية أعز من الخبز . والمجتمع لا بد له من مجهودات قرون لكي ينتج فيلسوفاً . فلا يعقل أن يقضي في يوم على انتاج قرون ومجهودات أجيال . واذا أردنا أن نقضي على أفكار نعتبرها خاطئة أو خطيرة فينبغي أن نقضي عليها أو نقاومها بأفكار أرقى منها وأصلح . لا بالارهاب والضغط والحسد والوشايات والدسائس كما كان يفعل أجدادنا عفا الله عنهم . فأبقونا نحن في الظلمات والعماية وورثنا منهم هذا الفساد الأخلاقي الشنيع الى جانب التركة الثقيلة من الجاهلية الجهلاء .

– هل أفهم من هذا أنه يجب أن نطلق فكرة الايمان بالقدر . ونؤمن مكانها بفكرة السبب ؟ واذا حدث لنا أمر وأردنا أن نعالجه يجب أن نفهمه قبل كل شيء ولكي نفهمه ينبغي أن نبحث عن أسبابه ونعرفها ؟

– بالضبط كما هو الأمر بالنسبة للمريض : « نكتشف » مرضه . و« نخترع » له الدواء . وفي كل من الاكتشاف والاختراع معا لابد من البحث عن السبب . ولكي نجد السبب يجب أن يكون لنا « عقل سببي » ان صح التعبير . أو عقل علمي ولو لم نكن علماء . وهذا الطراز من العقل هو الذي تكونه فينا الفلسفة . ان الفلسفة لا تأتيك بالخبز اليومي . ولكنها تكون فيك الفكر الحي الذي يجعلك تبحث وتعرف الأسباب وتكتشف المشاكل وتخترع علاجها فلا يصبح عندك الخبز مشكلة .

– ولكنك لم تجبني على مسألة القدر : هل نطلق الايمان به اذا آمنا بفكرة السبب ؟

– ان هذا لا ينفي ذاك . وكل منهما لا يعارض الآخر : الايمان بالقدر لا يتعارض مع الايمان بفكرة السبب . فنحن نستطيع أن نؤمن بالقدر في أشياء ونؤمن بفكرة السبب في أشياء أخرى : فلكل ميدانه . وان كان من العسير على البسطاء من الناس أن يميزوا هذا الميدان عن ذاك . ولهذا عمدوا في تاريخنا الطويل الى العمل بالمبدأ البسيط الذي لا يكلفهم عناء فكرياً طويلاً . وهو مبدأ الاستسلام للقدر

في كل شيء ، وعدم البحث العقلي . أما اليوم فاننا نستطيع أن نقيم هذا التوازن بين الايمان بالقدر والايمان بالعقل ، لأننا متعطشون للنشاط العقلي بعد طول الغفوة ، ولأن العالم من حولنا يغلي بالنظريات العقلية والمذاهب الفلسفية فلا يعقل أن نبقى نحن في وسطه كالكسيح المشلول في سوق الفكر ونشاطه ، كل ما يستطيعه هو أن يمد يده يستجدي الفتات المتساقط من الموائد . وأول ما ينبغي أن نحققه في مبدأ نهضتنا هو أن نؤمن بالعقل والعلم . سئل أحد أجدادنا هذا السؤال : « اذا أخبرت صباحاً بأنك ستموت في المساء . فماذا تفعل ؟ » فأجاب : « أقوم من حيني فأتعلم ما لا أعلمه » !

الخبر والفلسفة

– انك لا شك تسمع بما يجري هذه الأيام من حوادث دامية في الهند من جراء المجاعات التي تجتاح عدة مناطق من هذه البلاد الواسعة ؟

– نعم . سمعت وقرأت عن ذلك وتألمت ، ولكن ما دخل هذه المجاعة في أحاديثنا الجديدة التي وعدتني بأنها ستكون في الفلسفة ؟ أم أنك نسيت الوعد ؟

– كلا . لم أنس الوعد ، والحديث عن مجاعة الهند له صلة وثيقة بالفلسفة .

– أخشى أن تكون قد بالغت في « النزول » بالفلسفة الى تحت الأرض ، وهي التي قيل لنا عنها تحلق في السماء !

– ألم أقل لك أن فهمك للفلسفة ما يزال ناقصاً . الأفضل ألا تقاطع حديثي حتى أمشي بعض الخطوات التي توضح لك مدى التصاق الفلسفة بالحياة المادية وبأن كل حادثة كبيرة من نوع موضوعنا اليوم تجدها قائمة على أسس فلسفية ، بل تجدها نباتاً ـ طيباً أو خبيثاً ـ وعروقه المخفية في أطباق الأرض عروق فلسفية صامتة لا تقول شيئاً ولكنها تنبت الدواء والداء والحلو والمر والسم القاتل وماء الحياء الشافي .

والآن قبل أن أدخل الموضوع أحب أن أسألك : هل تعلم أن أميركا وكندا هما أكبر مزود للهند بما يقيم أودها من الحبوب ، كما توزع القمح على مختلف أنحاء العالم الجائع ؟

– نعم أقرأ من حين لآخر شيئاً متقطعاً عن ذلك .

– طيب . سنعود الى هذه النقطة في نهاية الحديث : « تاغور » الشاعر الهندي الكبير تعرفه ؟ لقد توفي في الحرب العالمية الثانية كتب الى صديق له في بلاده يحدثه عن الحياة في انكلترا فقال له فيما قال : « أكتب اليك من لندن التي لا يوجد فيها وقت فراغ ولا مكان هادئ تستطيع فيه أن تستجمع أفكارك أو تعرف نفسك . اني أعيش الآن بين رجال الأعمال الذين ليس لهم وقت للتفكير الا في العمل . ان قلبي يبحث عن غذاء ولكن دون جدوى .. اني أحلم دائماً ببلادي وما فيها من حياة سهلة بسيطة واني لا أستطيع أن أفهم كيف يرضى القوم هنا أن يعيشوا في كل هذه القيود . انهم يضخمون الحياة من حولهم آملين في مستقبل أسعد . واني أخشى على الشرق هذا الفيضان المادي من الغرب .. ثم يصبحون بعده عبيداً لهذه المادة . ان الثراء عند هؤلاء الأوربيين قوة لا تعادلها قوة .. الحياة هنا ضخمة والرخاء مزدهر ولكن ليست الحياة في هذه الضخامة وهذا الرخاء . انهم يعيشون هنا ليتملكوا كل ما هو مادي . أما نحن فاننا نبحث عما ينبع في داخل أنفسنا » .

ان هذه الفقرة الصغيرة من رسالة تاغور تصور لنا كل ما يسمى بالفلسفة المادية عند الغرب والروحانية عند الشرق . الغربيون يبحثون عن المادة في باطن الأرض ويستخرجون المعادن ويذهبون الى أعماق البحار ويتوغلون في أدغال المناطق المجهولة من افريقيا وآسيا واستراليا وأميركا وسيبريا ، ويحلقون الى القمر ، ويحللون الجرائيم بحثاً عن خلية الحياة وسرها . ونحن نبحث عن الروح هل هي نور الهي أم شيطان مخيف ، ونتجادل في صفات الله هل هي داخلة في ذاته أم أن الله شيء ، وصفاته شيء آخر ، وهل أنه سبحانه وتعالى يجلس على عرش يشبه الكرسي أم أن مكانه الذي يحل فيه هو الكون بأسره ؟ ونتفلسف في السعادة فنعتبر

السعداء هم أولئك الذين عودوا أنفسهم على الجوع والظمأ والملبس الخشن وقلة النوم وارهاق الجسم بالعبادة في الليل والصوم في النهار ، ونعتبر الأشقياء هم أولئك الذين يبحثون دائماً عن السعادة المادية فيأخذون حظهم من النوم كاملاً ويقضون النهار في السعي والعمل ، وأوقات الراحة في الرياضة والسباحة والانشراح والحبور ونهب ملذات الحياة .

ومصدر هذا الاختلاف بيننا وبين أوربا في النظرة الى الحياة مرده الى أن أرسطو قال للغربيين أن الانسان حيوان عاقل ، وداروين قال لهم أن الانسان منحدر من أصل حيواني . وقال لهم ماركس أن الانسان حيوان تتحكم فيه العوامل الطبيعية والجغرافية والاقتصادية ، فهو اذن حيوان ، ولكنه حيوان ذكي وسعادته هي سعادة الحيوان ولكن بصورة أذكى . وهذا ما حققه الأوربيون فعلاً في حياتهم .

أما نحن فقد قال لنا الهنود أن الانسان نسخة من الله . ولكي يكون شبيهاً بالله ويتحصل على هذا الكمال يجب أن لا يأكل الا ما يقيه الموت ، ولا « يقتل حواسه بالملذات » بل ينعشها بالعبادة والتقوى ولا يبحث عن قوته في الأرض بل في تأمله في ذاته . وقال لنا الغزالي أنه لا يليق بالرجل العاقل أن يعيش عيشاً سعيداً ولا بالعالم المفكر أن يكسب قوته بيده ، بل ينبغي أن لا يكون عنده في بيته شيء يطمع فيه السارق ، وأن الرزق الحقيقي الذي أنعم الله به على الناس هو الفقر . وأن هذه الحياة المادية التي يلهث وراءها الأشقياء من بني آدم هي شيء سخيف يجب ألا نعيره ـ اهتماماً . الحياة الحقيقية في الفقر لا في الثروة ، وهي في التفكير في نفسك وفي الآخرة . والطبيعة لم يخلقها الله لنستغلها بل لنعبدها ، ورحنا ننظر الى الطبيعة كما نظر الشابي الى معشوقته : « أنت لم تخلقي ليقربك الناس ولكن لتعبدي من بعيد » . وحتى الحيوانات لا نأكلها لأن الله حل فيها فهي مقدسة .

كل هذه الأفكار الفلسفية القاتلة تسربت الينا في عصور سحيقة من اختلاط حضارتنا بحضارة الشرق القديم وبقيت تغذي عقول الفلاسفة ، والفلاسفة يبثونها في تلاميذهم وهؤلاء يلقنونها جماهير الناس ، وكلما انحدرت درجة ازدادت

تصلباً وانغلاقاً حتى أصبحت عادات لا تقاوم ، وأصبحت فلسفة الجوع مجاعة حقيقية ، وكان لابد للزهد في العمل من أن يأتي بنتيجة الحتمية وهي الفقر والموت على قارعة الطريق .

أما عن أميركا هذه التي تغدق على العالم كله قموحها وحبوبها وعلب الحليب والخضر والأدوية والملابس والآلات والسيارات والأفلام والجاز هل تعرف ما هي فلسفتها ؟

- لقد طلبت مني ألا أقاطع حديثك .

- فلسفتها يا صاحبي تدعى بالفلسفة النفعية أو العملية أو في لغتها « البراقماتية » . وهي تقول بأن ما لا يصلح للحياة العملية ينبغي أن لا يدخل في أفكارنا : الدين شيء يجب أن نعتنقه ونؤمن به ، ولكن لا لأنه يضمن لنا السعادة في الآخرة بل لأنه يصلح لنا اليوم في هذه الحياة الدنيا . فهو يعيننا في التغلب على القلق والحزن واليأس ويشعرنا بأننا لسنا مهملين في هذا العالم المخيف دون أن تسهر علينا عين رحيمة تقينا شر الغازه ومفاجآته . واللغة عندما نتعلمها فلا ينبغي أن نتناول أمثلتها من تعابير شكسبير كما نفعل نحن مع امرئ القيس بل من الجمل والعباراتالتي نحتاج الى استعمالها اليومي في القطار والتليفون والبنك وادارة البريد .

وهكذا فأنت اليوم لا تتحدث مع شخص أميركي أو تدرس طريقة حياته الا وتجدها قائمة على النفع ، والشيء الذي لا نفع فيه لا قيمة له ولا قدسية ولا اهتمام .

والماركسي في روسيا تقول له فلسفته : ان الانسان ابن محيطه الجغرافي والاقتصادي فاذا أردت أن تكون سعيداً فابدأ بتوفير أسباب السعادة في محيطك هذا . الأرض القاحلة أجلب اليها الماء . والناقصة العمران عبد لها الطرق وأوصل اليها القطار . واذا كانت أرضك غنية فمن المستحيل أن تعيش شقياً ، واذا كنت جائعاً فانه لا ينفعك أن تصلي أو تذبح القرابين ، ومن السخف أن تكرس جهودك

اليومية لنيل سعادة الآخرة التي لم تحصل بعد وتهمل السعادة التي تعيشها بالفعل والتي هي بين يديك .

كل هذه الفلسفات سواء عند الأميركان أو الروس تنبثق منها أساليب التربية والتعليم وتكتب ـ تمشياً معها ـ محاورات الأفلام والقصص ، وتجري بمقتضاها المناقشات في المجالس البرلمانية أو خلايا الحزب . وتسطر على ضوئها المشاريع الاقتصادية ، وتقوم على أساسها الجمعيات الفنية ومؤسسات الشباب والنساء والكشافة ، وتدخل كل أجهزة الحياة صغيرها وكبيرها . وتنظر أنت الى هذه المجتمعات في السوق التجارية أو في المعمل أو الحقل فتجد خلائق كالنحل لا هم لها الا العمل في وعي ودراسة وتفكير . وتراهم في حياتهم فتجدهم قائمة على الانتاج ، كثرة الانتاج حتى أصبح الاستهلاك والتبذير والاسراف وجباً وطنياً يشجع الانتاج . وتنظر الى مجتمعاتنا نحن في السوق التجارية أو الحقل فتجد الخطوة البطيئة والحركة الوئيدة والتوغل في الأحلام والحزن البادي على الوجوه واللباس والعظام النخرة وترانا في حياتنا فتجد التقشف والتحيل في قلة الاستهلاك لأنه ليس عندنا انتاج نستهلكه .

في أيام الحرب العالمية الأخيرة سأل رجل شيخنا المرحوم العربي التبسي : « لماذا يقاتل هؤلاء الكفار الملاعين ؟ أهي نقمة الله حلت بهم ؟ » فأجابه الشيخ على الفور : « ان كل واحد منهم يقاتل حتى لا يصير مثلي ومثلك من العبيد . وهم بالضبط يتقاتلون حتى لا تحل عليهم النقمة التي حلت بنا نحن منذ أن تخلينا عن القتال » .

الاسم والمسمَّى

– أعترف أن الحديث عن الفلسفة واتصالها بالحياة العملية بدأ يتضح لي بعض الشيء .

– لقد كنت أتوقع ذلك من ذكائك . وكنت أشعر أنه لا يلزمك كثير من الشرح والأمثلة حتى تضع اصبعك معي على ما للفلسفة من خطر في حياة البشر . ولكن أرجو أن لا تغتر أنه ليس معنى ذلك أن الحديث قد انتهى . بل ما تزال عندنا أمثلة أخرى على جوانب أخرى في الموضوع : أعني في الحياة عندما ننظر اليها من خلال الفلسفة .

اذا أردت أن تسترسل اليوم في حديث الحياة والفلسفة فأرجو أنتعينني كالعادة بضرب الأمثلة . وأن تبتعد بقدر الامكان عن تحليلاتكم المجردة . فتلك هي التي لا أذوق لها طعماً .

– اليك هذا المثل : « ان الفاشيستية والشيوعية نتاج لنوع واحد من التفكير . فليس هناك أقرب الى الشبه للعقل المتعصب لليمين من هذا العقل المتعصب لليسار : كلاهما يعبد القوة ويقدس المنطق وهما أصل الفساد . ان الرجل المنطقي مخطئ وهو غير انساني . أما الرجل الذي لا يعبد المنطق . فهو يقول دائماً : ربما أكون مخطئاً . ولهذا فهو دائماً مصيب . ولعل أهم العوامل التي تصبغ أوربا بالصبغة غير الانسانية هو تفكيرها المنطقي في السياسة . والواقع أني لا أخاف من مبادئ الفاشيستية والشيوعية بقدر ما أخاف من الروح المنطقية التي يعلمون بها النشأ فيمزجون الفن بالدعاية والعلم بالوطنية والحكومة بالدين وحقوق الدولة بحقوق الفرد . ان الحضارة الأوربية لم تقدم للانسانية الا الصعوبات في الحصول على الطعام والا

فما كل هذه المتاعب التي نجدها في الحصول عليه في حين أن الحيوان لا يجد نصف هذه المتاعب ؟ ان الأوربيين أناس يرهقون أنفسهم في العمل ويفخرون بأن ليس لديهم الوقت . اذن فماذا يملك أولئك القوم ان لم يملكوا وقتهم ؟ » .

– أما أنا فأعترف لك بأني أجدُ ميلاً شديداً في نفسي نحو هذا النوع من التفكير . ولكن من الذي يقول هذا الكلام الجميل ؟

– انه أحد فلاسفة الصين قبل أن تتشيع . والمهم أنك تستطيع أن تدرك وحدك (وقد فعلت) بأنه يعبر هنا عن عقلية شرقية سائدة في كل العالم الثالث كما يسمونه . العالم الذي يعبد المعنويات والروحيات ويبغض المنطق والعقل والمتاعب .

ولكي أستكمل لك اتصال هذه الفكرة « الفلسفية » بالحياة العملية أقص عليك هذه الحكاية : « مر سائح أمريكي في مناطق الجنوب عندنا بقرية صغيرة فوجد رجلاً جالساً أمام بيته على حصير مستظلاً بحائطها القصير وقد رش حوله المكان بقطرات من الماء ووضع أمامه تنوراً فيه جمرات قليلة يغلي من فوقها ابريق من الشاي . وكان السائح الأميركي يتجول في الأزقة الضيقة ويعجب للناس كيف لا يعملون ، وكان الوقت ضحى وليس وقت راحة وكان معه أحد شباب القرية يتكلم فرنسية مهشمة كالتي يتكلم بها الاميركي نفسه ، ويقوم له بدور الدليل والمترجم فسأل السائح صاحب التنور وابريق الشاي : ماذا تعمل في مثل هذا الوقت ؟ فأجاب صاحبنا : اني كما ترى أنعم بالراحة وبرائحة الشاي وهي تتصاعد الى أنفي من هذا الابريق . ثم استرسلت المحاورة على هذا النسق :

– السائح : وهل تمضي كل أوقاتك هكذا بدون عمل ؟

– الرجل : تقريباً . وأنت الست مثلي ؟ انك تستريح أنت أيضاً بسياحتك ولا تعمل .

– السائح : ولكني قبل أن أقوم بهذه السياحة بدأت حياتي عاملاً بسيطاً ثم ارتقيت الى عامل فني . ثم رئيس قسم للعمال ثم مديراً . وأخيراً صاحب أسهم

في شركة المعمل والآن فقط وصلت الى دور الراحة .

– الرجل : ولماذا كل هذه الجولة المتعبة ؟ انك انتهيت أخيراً في حياتك الى نفس النتيجة التي توصلت اليها أنا منذ البداية . »

انك تلاحظ في « فلسفة » الرجل عندنا صدى عملياً أميناً لتفكير ذلك الفيلسوف الصيني الذي يحب أن يرى الناس يملكون أوقاتهم ، ويبغض أولئك الذين يفتخرون بأنه ليس لديهم وقت . ولكن ماذا كانت نتيجة هذا التفكير في الحياة العملية ؟ كانت نتيجته اما أن تموت جوعاً كما يجري اليوم في الهند وغداً في اماكن أخرى . أو أن يثور الشعب على حكامه وعلى نفسه وماضيه وينفض سلاسل القرون من رجليه ويلتحق بأولئك الذين ليس لهم وقت . ويعبدون القوة ويقدسون المنطق ، ويؤمنون بالعقل ، والا فلماذا لا تسمع عن هؤلاء الذين لا يملكون الوقت لأنفسهم انهم قاموا بثورة أو اندلعت عندهم حوادث واضطرابات ؟ انهم كذلك لأنهم يصرفون وقتهم في العمل . والعمل يسد حاجاتهم المادية والعقلية . وهم اذ رأوا هذه النتيجة راحوا يعبدون القوة فعلاً . لأن القوة ليست الا المظهر الأعلى لسد الحاجات المادية والعقلية .

ان صاحبنا يقول بأنه لا يخشى المبادئ الشيوعية ولا الفاشيستية بقدر ما يمقت العقل المنطقي أو نفسية القوة التي تنبع منها هذه المبادئ وتلك على السواء .

ولكن ما حيلتنا اليوم وقد أصبحنا واقعين تحت وطأة هذه المبادئ أو تلك ، وفي كلا الحالين نحن نعيش ضحيتها في حين ينعم بها أصحابها على حسابنا . وهم يمنعوننا أن نكون مثلهم ويسوءهم أن نكون شيئاً آخر الا ما نحن فيه بالفعل .

– اذن فماذا يكون الحل في نظرك ؟

– الحل أنه ليس لنا مفر من أن نعمل بهذه العقلية نفسها التي لا يريدها الفيلسوف الصيني وصاحب الابريق عندنا . أن نتبنى الحياة العقلية والمنطق ونحب المتاعب ونقدس القوة ونمقت فلسفة الراحة ، ونحرم أنفسنا من الوقت . أما

الاسم الذي نطلقه على هذا الاتجاه فهو عندي ثانوي . ان من مظاهر سطحيتنا أننا نسرع الى تبني الأسماء والمناداة بها واطلاقها على أشياء لم تخلق بعد ومسميات لا نعرفها . لأن اطلاق الاسم أيسر من خلق المسمى . ولأن فيضان الألفاظ على ألسنتنا يعطل ما يجب أن يكون لعقلنا من ابتكار في خلق الأشياء . وكثيراً ما نتخاصم في « الألفاظ » لأننا لا نملك صورة واضحة عن « الأشياء » التي نطلق عليها تلك الألفاظ.وخذ على ذلك كلمة الاشتراكية أو الديموقراطية أو الشيوعية نكثر عليها الكلام بل ونتعادى لا في سبيلها هي بل من أجل أسمائها . وأعتقد أننا لو تصورنا مدلول كل منها بالضبط لقضينا على نصف المعركة . واليك هذا المثل الآخر من صاحبنا أحمد أمين : « أذكر أني كنت في مجلس الجامعة مدة سنين . وكان في المجلس مصريون وانجليز . وكانت المناقشة تدور أحياناً باللغة العربية وأحياناً باللغة الانكليزية . فاذا تناقشنا باللغة العربية كثر الاستطراد والخروج من باب الى باب . واذا كان الكلام باللغة الانكليزية قل الاستطراد وانحصر الكلام في الموضوع .

- هذا أمر عجيب . فكيف نفسر هذه الظاهرة في نفس الأشخاص ؟

- تفسيرها أننا تعودنا عادات عقلية من عدم الضبط فيما نتحدث فيه . واللغة ليست الا عادة من عادات العقل . اذا تكلم بها الانسان عمل بعاداتها ودخل في جوها دون أن يشعر . ومن بين عاداتنا العقلية أننا نقدس اللفظ المنطلق ولا نقدس المنطق لأنه تقييد وحصر وضيق وننصرف الى الفراغ لأننا نمقت العمل . ونسترسل مع السهولة ونكره المتاعب . كل هذه الجوانب متشابكة متفاعلة متأثرة ومؤثرة . ان الحل ليس في أن نسمي حياتنا باسم من الأسماء . بل نخلق هذه الحياة أولاً . والمعركة الحقيقية ليست في أن نطلق على نظامنا كلمة اشتراكية أو الشيوعية أو الفاشيستية . بل المعركة هي الانتاج : انتاج ما يسد حاجتنا المادية والعقلية . ان العامل أو المثقف في أميركا الرأسمالية ينتج كما ينتج زميله في روسيا الاشتراكية . وهو عاطل كسول يحب الراحة ويعبد اللفظ الفارغ في كل من ايران الاقطاعية أو غينيا الاشتراكية !

طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مركب الطباعة ـ رغاية
الجزائر : 1981